



عربی زیدان

تاج التمدد الاسلامی

الجزء الأول





تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

عرجي زيدان

منشور الهلال



الجزء الأول

يبحث في نشوء الدولة الإسلامية وسعة مملكتها واحصائها وتاريخ
مصلحتها الادارية والسياسية والمالية والعسكرية وغيرها

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس

استاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

134963

تقديم

فرغ جرجى زيدان من الجزء الاول من هذا الكتاب سنة ١٩١٠ ، اى بعد عامين من انشاء الجامعة المصرية القديمة ، وكانت مؤسسة أهلية حفز على انشائها نزوع الشعب المصرى نحو العلم والمعرفة . وكانت السنوات التى انقضت بين ميلاد القرن العشرين وقيام الحرب العالمية الاولى فى سنة ١٩١٤ فترة خصبة ذات أثر حاسم فى تاريخ الفكر المصرى الحديث ، فقد تخلص فى سهولة وسرعة تدعوان الى العجب ، من أسار الماضى وقيوده ، واحتفظ فى نفس الوقت بلباب الحضارة المصرية وجوهر الفكر الاسلامى ، ونجا كذلك من الانحرافات التى يتعرض لها الفكر المحلى عندما يواجه تيارات حضارية فكرية جارفة ، كما كان الحال مع تيارات الفكر الغربى التى اجتاحت العالم كله آنذاك ، ونهج لنفسه نهجا وسطا حرا تجتمع فيه الآراء كلها دون شطط فى الجدل أو لدد فى الخصومة ، كما يحدث عادة عندما تتلاقى تيارات فكرية مختلفة بل متعارضة ، فمضى السلفيون يدبجون وينشئون ، ومضى المجددون يقرأون ويفكرون ويكتبون ، وساد أولئك المجددين حماس شديد للاطلاع ونهم الى المعرفة ، بل ان من يقرأ ما كانوا ينشرونه اذ ذاك على صفحات «المقتطف» و«الهلل» و«البيان» من مقالات وبحوث ليحس انهم كانوا فى سباق : كل منهم يريد ان يحمل الى قرائه أقصى ما يستطيع من مادة فكرية نافعة . وكان شيوخ الفكر المصرى اليوم اذ ذاك شبابا متطلعا طموحا يتعلم اللغات دون معلم ، ويتطلع الى العالم الجديد ويتصوره تصورا سليما دون رحلة ، ويدلج فى مهامه الكتب القديمة دون مرشد ، ويتصل بمفكرى الغرب ويساجلهم ويحاورهم عن تمكّن واصالة ، ويوفق فى ذلك كله توفيقا يدعو الى الاعجاب . وبفضل هذا الصبر الدعوب وضع ذلك الجيل المبارك أساسا سليما للحركة الفكرية المعاصرة فى مصر والعالم العربى كله

وجرجى زيدان من اعلام هذه المدرسة المكافحة فى سبيل العلم والمعرفة . ولد فى بيروت فى ١٤ ديسمبر ١٨٦١ ، وفى الثانية والعشرين من عمره اخذ طريقه الى مصر مقتفيا آثار سلسلة طويلة من اعلام المدرسة الفكرية التى ازهرت فى ربوع الشام - ولم يكن قد تقسم بعد على الحال التى نراه عليها اليوم - خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . واستقر فى القاهرة

حاملًا معه ثروة من التجارب احتشدت في سنوات عمره القليلة على نحو
 لانجد له مثالا الا في الاقاصيص ، فهذا شاب خرج الى الدنيا على شيء ، واراد
 هو ان يكون شيئا آخر . وجد نفسه وهو في السابعة من عمره يشقى من البكور
 الى منتصف الليل ليعين ابيه في تحصيل رزق قليل ، وتنقضي السنون وهو
 ابعد ما يكون عن عالم الفكر والعلم ، ولكن وجدانه يهيم في وادي الكتب
 وآفاق المعرفة ، واذا به يشق طريقه الى بحر المعرفة شقا لا يتسع المقام
 لبسطة في هذه السطور ، ولقد حكى هو بنفسه قصة ذلك التحول في مذكراته
 وقص علينا في بساطة وصراحة كيف وجد طريقه ، وكيف ثبت قدميه في
 ذلك الطريق بكفاح صبور يروع النفس ، وانا اشير الى ذلك هنا لان قصة
 كفاحه تلك ، هي احسن تفسير لما نجد في مؤلفاته من التبحر والاحاطة وصدق
 الملاحظة وعمق النظرات ، فما كان هذا كله ليتأتى لرجل ، الا اذا كانت حياته
 قد اذكت في كيانه فحولة كفيفة بالوصول بصاحبها الى ما لا يصل اليه من لم
 يعرف مغالبة الظروف ومطاوله الايام

استقر جرجى زيدان في القاهرة في أكتوبر سنة ١٨٨٣ ، واتخذ مصر له
 وطنا من ذلك التاريخ ، وكان قد قرأ في العربية قراءات طويلة عميقة في
 الكتب العربية ، وملك ناصية اللغة الانجليزية بعد سنوات من الدرس
 الصبور ، وبهذه الادوات اخذ يهيم لنفسه مكانا في عالم الترجمة والتأليف
 والصحافة في مصر ، وانقضت سنوات وهو يؤلف ويترجم ويكتب ، واستهوته
 الصحافة الادبية فعمل في المقتطف ، ثم انشأ مجلة الهلال في عام ١٨٩١ ،
 واخذ ينشر فيه مقالاته وبحوثه ، واستهواه التاريخ ، وتاريخ الادب فمضى
 يؤلف فيهما

وقد اخرج جرجى زيدان الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي سنة
 ١٩١٠ ، بعد ان مهد لذلك الكتاب تمهيدا طويلا ، فقد اخرج قبل ذلك «روايات
 تاريخ الاسلام» لكى « يهيم اذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت
 معارفهم ومدارسهم لمطالعة هذا التاريخ بما نشره من الروايات التاريخية
 الاسلامية تباعا في «الهلال» ، لان مطالعة التاريخ الصريح تثقل على جمهور
 القراء وخصوصا في بلادنا ، والعلم لا يزال عندنا في دور الطفولة . فلا بد لنا
 من الاحتيال في نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة ، والروايات افضل
 وسيلة لهذه الغاية » كما قال في مقدمة الكتاب ، ولا شك انه قرأ كثيرا
 جدا لكى يكتب هذه القصص التاريخية التي لم يدانه فيها احد من كتاب
 العربية ، فكأنه كان يعد نفسه لدخول ميدان تاريخ الحضارات بتلك
 القراءات المتطاولة ، وكان قد عانى في اثناء ذلك كتابة التاريخ ، فأخرج في

سنتي ١٨٨٨ و ١٨٨٩ « تاريخ مصر الحديث » في مجلدين ، و « تاريخ الماسونية » و « التاريخ العام » وهو موجز في تاريخ قارتي آسيا وافريقية . وعلى الرغم من أن دراسة الادب قد استهوتته في مطالع حياته الادبية والعلمية ، حتى أن أول كتاب ألفه كان في فقه اللغة العربية ، فان التاريخ أخذ يجتذبه رويدا رويدا . ولقد عبر المرحلة من الادب الى التاريخ وهو يؤلف روايات تاريخ الاسلام ، ولو أننا تتبعناها بحسب تواريخ تأليفها للاحظنا كيف أن الخيال القصصي في البواكير منها أغلب ، والبحث التاريخي في الاخرى أظهر

ومنذ أن انشأ مجلة الهلال سنة ١٨٩١ تجلّى اتجاهه نحو التاريخ ، حتى أن اهتمامه بالادب تحول الى اهتمامه بتاريخ الادب ، ولو أننا تصفحنا السنوات الاولى من « الهلال » لوجدنا معظم كتابات جرجي زيدان دراسات وابحاثا تاريخية ، ولعل أظهر مثال لذلك سلسلة مشاهير الشرق ، وهي تراجم بارعة تذكرنا بتراجم ابن خلكان

وقد تهيب جرجي زيدان التأريخ للحضارة الاسلامية ، ووصف شعوره هذا في مقدمة الطبعة الاولى للجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي ، وكان محقا في ذلك التهيب ، فان الميدان كان مجهولا على أيامه ، بل كان فن التأريخ للحضارات جملة فنا جديدا في طور التكون في العالم كله اذ ذاك

ولم يكن التاريخ قد أصبح اذ ذاك علما محدد المعالم كما هو الحال في أيامنا ، بل كان في الغالب لونا من الفلسفة . . كانت مذاهب تفسير التاريخ في عنفوانها ، وكان المؤرخون منقسمين الى هيكلين وهيكلين محدثين وماركسيين وابتداعيين (رومانتيين) وداروينيين ، وتعددت المذاهب وكثرت الاسماء ، فلا نجد بلدا غربيا واحدا الا حفل بعشرات من المؤرخين المفكرين ، الذين خلفوا من الكتب مالم تتضاءل قيمته الى اليوم وان تقادم العهد بما فيها من معلومات ، فقد كان هذا عصر ليوبولد رانكه وسانت بيف ودرويسن وماكولى وفينلى وتيكنور وتريتشكه ومومسن ودى توكفيل وفوستل دى كولانج وميتلاندوتين وبرونتيير ورينان وبوركهارت ، وغيرهم ممن لا يحصون كثرة . .

كان هذا دون شك هو العصر الذهبي للتاريخ كفن ، وكان التاريخ كعلم ومنهج يأخذ طريقه رويدا نحو الثبات ، وكان المثقفون في العالم كله يتجهون نحو التاريخ ، حتى الشعراء مثل شيلر ، والكتاب مثل كارلايل ، أصبحوا أميل الى المؤرخين منهم الى أهل الشعر والادب ، وهذا هو الذى يفسر لنا تحول جرجي زيدان من الادب الى التاريخ ، ويفسر لنا أيضا كيف أصبح

مؤرخا ثابت القدم ، فقد كانت كتب التاريخ احسن ماتخرجه المطابع في ذلك العصر ، وكان الرجل شديداً لهم الى القراءة والاطلاع ، فنهل من هذه المناهل وروى عن سعة ، وسار في ركب المؤرخين فلم يلبث أن فارقه تهيبه ، واصبح بفضل دابه على العمل وصبره على المطالعة والبحث ، عمدة مؤرخى العرب على ايامه . .

وكانت الظروف مواتية له لادراك هذه الغاية ، فقد كان الاستشراق على ايامه في ازهى عصوره . . كان الشرق يبدو امام أوروبا اذ ذاك وكأنه هدية ثانية أهدتها المقادير لها لتتابع عملية الفتح والاستيلاء والاستغلال والاستعمار التى بدأتها عندما اكتشفت العالم الجديد ، فتغلبت الامم الاوروبية على معظم بلاد افريقية وآسيا وتقاسمتها فيما بينها مستعمرات وحمايات ومناطق نفوذ ، واخذت كل دولة اوروبية تجود ادوات الاحتلال والاستعمار الدائمين ، وكان الاستشراق احدى هذه الادوات . . فقد كان لابد من دراسة هذه البلاد وأهلها وكل ما يتصل بها وبهم ، حتى تقوم السيطرة على اسس ثابتة من العلم بكل شىء . .

من هنا قامت جمعيات الاستشراق ومعاهد الدراسات الشرقية في كل بلد اوروبى ، واعانت الحكومات ذلك كله بمالها وتأييدها المادى والادبى ، واجتهدت الجامعات في انشاء كراسى للدراسات الشرقية وتوفير الاساتذة الذين يقومون عليها . وأرسلت الجمعيات الجغرافية المستكشفين والمستطلعين والجواسيس من كل صنف ولون ، وقامت مجلات الدراسات الشرقية بنشر نتائج ذلك كله ، واصبح الشرق واهله موضوع اهتمام فكرى علمى عام ، حتى كبار الادباء والمفكرين اتجهوا الى المشرقيات يكتبون فيها . ومن ذلك النشاط كله نشأت طوائف من العلماء والباحثين اختلفت أمزجتهم بين عالم احب هذه الدراسات لذاتها فأخلص لها وكتب فيها بشىء من الانصاف ، لانه بطبعه عالم حر لا يخضع لنزوات السياسة ومطامع السياسيين الا بمقدار ، وعالم وضع علمه كله في خدمة السياسة وغدا داعية خبيثا يستخدم العلم في تأييد قضايا سياسية وأغراض استعمارية شريرة تتنافى مع مبادئ الانسانية ، وفيما بين هاتين الطائفتين جماعات تميل الى هذا المذهب او ذاك ، وانضم الى هؤلاء جميعا نفر من رجال الدين من شتى طوائف النصرانية اقبلوا على هذه الدراسات وتسارعوا الى بلاد الشرق للدراسة والبحث ظاهرا ، وللتبشير الدينى ظاهرا وباطنا

واكب هؤلاء جميعا على الدراسة والبحث ، واقبلوا على الرحلة والكشف بما عرف عن الاجناس الاوروبية من صبر وداب ، فلم يلبثوا ان احاطوا

بالكثير ، ووصلوا في العلم بأمر الشرق وأهله الى نتائج لا تخطر على البال فقرأوا أو ترجموا معظم ما وصل الى ايديهم من كتب ومخطوطات ووثائق ونقوش ونصوص ، والفوا في ذلك كله كتباً وأبحاثاً على اعظم جانب من الاهمية لدارسي الشؤون الشرقية عامة والعربية والاسلامية خاصة ، وطبقوا في البحث والتأليف مناهجهم العلمية التي يدرسون بها شؤون أنفسهم ، فبدأت أبحاثهم ومنشوراتهم وكتبهم وكأنها أهدى الى الاحاطة بشؤون الشرق من مخطوطات العرب وكتبهم ، التي كانت الى ذلك الحين ساذجة بسيطة كما كانت في العصور الوسطى

وسط هذا الجمع الحاشد من الباحثين والدارسين ظهر جرجى زيدان ، وانفرد من بين معاصريه من مثقفي العرب بالمعرفة التامة للانجليزية والفرنسية والالمانية واللاتينية والامام بأطراف من الايطالية والاسبانية ، مع معرفة بأصول فقه اللغات ، وكان قد توفر عليه زمانا حتى برع فيه ، فأقبل يقرأ ويدون ويسجل بهذا الشوق الى المعرفة الذي كان أظهر خصاله ، وأكب على ذلك العمل ست عشرة ساعة متوالية في اليوم ، حتى لقد كان يكتفى من النوم بأربع ساعات الى آخر حياته

وكانت الدراسات العربية في مهدها في الشرق اذ ذاك . وكان من يكتبون في تاريخ الاسلام يجرون على منهج رواة المسلمين القدامى مع شيء من التحسين القليل ، كما ترى في « محاضرات التاريخ الاسلامي » للشيخ محمود الخضري ، ولم يكن لهم بعالم الاستشراق أو بالابحاث الجديدة صلة ، فظهر جرجى زيدان ، بمعرفته للغات واطلاعه على المناهج الحديثة ، فكان أشبه بهمة وصل بين الحركة العلمية العربية الناهضة وحركة الاستشراق المتدفقة النشاط في أوروبا وأمريكا ، واتصلت العلاقات بينه وبين اعلام مثل تيودور نولدكه ويوليوس فلهاوزن ومارجوليث واغناتس جولدتسيهر وأمدروز وادوارد سخاو ووليام رايت ودنكان بلاك ماكدونالد

وكان معظم هؤلاء يفدون على القاهرة ، للدراسة أو للبحث عن المخطوطات أو لنشر بعض ما يعدونه من مخطوطات عربية ، فاتصلوا بجرجى زيدان وأخذوا عنه وأخذ عنهم ، ووجدوه يبحث على أسلوبهم ، مع تفوقه عليهم في العلم بالعربية ، فعظمت قيمته في أعينهم ، وأقبلوا يقرأون ما يكتبه في الهلال ، وما ينشر من كتب ، وتصدى نفر منهم لترجمة بعض روايات تاريخ الاسلام ، فكانت هذه الروايات من اول ماترجم الى اللغات الغربية من عيون الادب العربي الحديث . وعندما أعلن عن عزمه على التأليف في تاريخ الحضارة الاسلامية استقبل الخبر في مجلات الاستشراق استقبالا عظيما ، وتلقف

المستشرقون والمسلمون في الهند وفارس وتركيا الجزء الاول بترحاب كبير. وعجب الكثيرون من المستشرقين من قدرته على تأليف هذا الجزء على هذا النحو ، وشرع بعضهم في ترجمته الى الانجليزية والفرنسية ، وأفرد كارل بروكلمان لجرجى زيدان فصلا مطولا في تاريخ الآداب العربية

وأثار الكتاب لاول ظهور اجزائه الاولى نشاطا واسع المدى في أبحاث التاريخ الاسلامي ، وأقبل الناس عليه يتدارسونه ، وكانت الجامعة المصرية قد قامت وكثر الطلاب في قاعات الدرس ، وكانوا يستمعون الى محاضرات كارلو نالينو واينو ليتمان الى جانب ما كانوا يسمعون من محاضرات الشيخ الخضري ، فوجدوا في « تاريخ التمدن الاسلامي » طلبتهم وأصبح معتمدتهم ، وتنبهت الجامعة الى مكانة هذا العالم الجليل ، فدعته الى القاء سلسلة من المحاضرات في التاريخ الاسلامي فأعد المحاضرات ، ولكن الظروف حالت بينه وبين القائها ، فسلم الجامعة مخطوط هذه المحاضرات كاملا ، واندرج المخطوط بين كتب مكتبة الجامعة ، حتى نبهني اليه الاستاذ الصديق اميل زيدان ، فقراته ، ثم نقلت منه صورة فوتوغرافية تمهيدا لنشره ، وأرجو أن يتيسر ذلك في القريب باذن الله

وقد طبع « تاريخ التمدن الاسلامي » بعد ذلك مرارا ، ولم يؤلف أحد من العرب في الموضوع كتابا يشبهه الى الآن ، وان كان الكثيرون قد الفوا في نواح مختلفة من الحضارة الاسلامية ، ولكنهم لم يمساوا النواحي العسيرة التي اقبل جرجى زيدان على التأليف فيها في ذلك الزمن المبكر ، كالناحية المالية ، وهي من أعر نواحي التاريخ الاسلامي ، ومعلوماتنا عنها قليلة متفرقة في عدد كبير من الاصول ، والكتب العربية القديمة شيء عجيب ، فربما استقصيت كتب الخراج والاموال بحثا عن شيء يتصل بالنظام المالي ، فلا تجده ، ثم تناول كتابا في مختار الشعر لترفيه به عن نفسك ، فاذا بك أمام ماتطلب ، وقد تبحث عن معلومات تهلك عن معاوية ابن أبي سفيان ، فلا تجدها فيما بين يديك من كتب التاريخ ، وتجدها مع ذلك في مادة « برذون » في كتاب « حياة الحيوان للدميري » وهكذا ، وليس أمامك والحالة هذه الا أن تقرا كل شيء مطبوع او غير مطبوع اذا ساعفك الصبر وامتد بك الاجل . ولهذا ، فقلما يستقصي انسان موضوعا ، ولا يجرؤ واحد منا على القول بأنه قرأ كل ماكتب في موضوعه ، لانه باديء ذي بدء ، لايعرف اين تفرقت اشتات المادة التي يطلب ، وقد حكى جرجى زيدان في مقدمة الكتاب كيف استخراج رواتب القضاة من معلومات متفرقة في

ثلاثة مراجع متباعدة ، وكل مؤرخ منا يستطيع أن يروي شيئاً مما اتفق له من هذه النواذر . فاذا نحن تصورنا الحشد الهائل من المعلومات التي أتت بها جرجي زيدان في كتابه هذا بأجزائه الخمسة ، استطعنا أن نقدر الجهد الذي بذله في القراءة والتنقيب

كان هذا الكتاب فريداً في بابه يوم صدر لأول مرة ، ولا زال فريداً في بابه الى اليوم ، ولقد أبدى مؤلفه في سياق كلامه آراء أثبتت الابحاث التي جددت بعد ذلك صحة الكثير منها ، وظهرت بعد ذلك أصول جديدة أضافت الى معلوماتنا أشياء جديدة هنا وهناك ، فحرصت عند اعداد هذه الطبعة على اضافة ماجد من المعلومات والآراء والمناقشات والنتائج في الهوامش ، وحافظت على نص المؤلف سليماً كما تركه صاحبه ، فيماعدت تعديلات قليلة في الفاظ في المتن

كان لابد من اخراج هذه الطبعة الجديدة من هذا الكتاب ، وقد قمت بها اكراما لعميد من عمداء الفكر العربي الحديث ، وتكريماً لاستاذ من اساتذة المدرسة المصرية في التاريخ ، واعتقد أن دار الهلال تقدم لاهل التاريخ والدراسات الاسلامية عامة خدمة جليلة بقيامها على نشر تاريخ التمدن الاسلامي على هذه الصورة

حسين مؤنس

تنبيه

تعليقات الدكتور حسين مؤنس مشار إليها في الهامش بعلامة (*)
تميزاً لها عن تعليقات المؤلف الاصلية المشار إليها بأرقام

مقدمة الطبعة الاولى

لا مشاحة في ان تاريخ الاسلام من اهم التواريخ العامة ، لانه يتضمن تاريخ العالم المتمدن في العصور الوسطى ، او هو حلقة موصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث . فيه انتهى التمدن القديم ، ومنه اشرق التمدن الحديث . وقد علقنا بدرس هذا التاريخ منذ اعوام ، وكنا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء « الهلال » ونعلق ما يبدو لنا من حقائقه على امل التفرغ لتأليف تاريخ مطول فيه . وقد اعلنا عزمنا على ذلك غير مرة ، ولا نزال على هذا العزم بعون الله ونظرا لما نعتقده من افتقار قراء العربية على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم الى نشر هذا التاريخ فيما بينهم - لانه تاريخ لسانهم وامتهم وبلادهم ، بل هو تاريخ تمدنهم وآدابهم وعاداتهم - ما فتئنا نختلس الفرص لنشر مايسهل تناوله وتدعو الحاجة اليه في حينه مما يتعلق بهذا التاريخ . واخذنا نهيبء اذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم ، لمطالعة هذا التاريخ بما نشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعا في « الهلال » . لان مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء وخصوصا في بلادنا ، والعلم لا يزال عندنا في دور الطفولة . فلا بد لنا من الاحتيال في نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة . والروايات افضل وسيلة لهذه الغاية

وقد صدر من تلك السلسلة الى الآن ست حلقات تتضمن وصف اهم وقائع التاريخ الاسلامي الى مقتل ابن الزبير وخصوص الخلافة لعبد الملك ابن مروان (١) . وقد آنسنا من جمهور القراء شوقا الى التوسع في هذا التاريخ واستطلاع كنه التمدن الاسلامي . وراينا في افاضل كتابنا تطلعا الى البحث في هذا التمدن والنظر في علاقته بالتمدن الاوربي الحديث . وكتب لنا غير واحد من اهل الادب يسألوننا رأينا في ذلك ، فراينا ان نجعل تنمة السنة العاشرة من الهلال كتابا في هذا الموضوع نبين فيه تاريخ هذا التمدن ونستطرد مع الكلام الى علاقته بالتمدن الافرنجي

وتاريخ الامة الحقيقي انما هو تاريخ تمدنها وحضارتها ، لا تاريخ حروبها وفتوحها ، وخصوصا على ما تعوده مؤرخو العرب في تاريخ الاسلام . فانهم يسردون الوقائع على علاتها ، وقلما يشيرون الى الاسباب التي تربط تلك الوقائع بعضها ببعض بحيث يرتاح العقل الى تحليلها والنظر فيها وترسخ في

(١) بلغت الحلقات التي صدرت من هذه السلسلة الى صدور هذه الطبعة ١٩ حلقة

ذهنه حقيقة تلك الامة . على أننا نظنهم معذورين في ذلك باعتبار ما كانت تدعوهم اليه الحال من تجنب الخوض في أسباب تلك الوقائع ، وأكثرها لا ينجو الباحث فيه من الانتصار لاحد الجانبين وهم يتجنبون ذلك . ولعل لهم عذرا آخر

أما الآن فليس هناك ما يمنعنا من الخوض في هذا العباب . وقد حاول غير واحد من المستشرقين ، من الافرنج وغيرهم استطلاع كنه ذلك التمدن ، فلم يجدوا في كتب القوم ما يشفى غليلا ، لتشتت تلك الحقائق وتبعثرها . ولذلك لما نشرنا في العام الماضي عن عزمنا على تأليف هذا الكتاب ، كتب الينا جماعة من هؤلاء الافاضل يستغربون اقدامنا على ركوب هذا المركب الخشن

والحق يقال أننا أعلننا هذا العزم ونحن لا نتوقع العثور على ما يزيد على صفحات تتمة السنة العاشرة من مجلة « الهلال » (١٦٠ صفحة) فשמرنا عن ساعد الجد وبذلنا جهد المستطاع في مطالعة ما كتبه العرب في الادب والتاريخ والسياسة وسائر العلوم فيما وفقنا اليه من الكتب المطبوعة والمخطوطة . .

ومن أمثلة ما قرأناه من كتب التاريخ والفتوح والتقاويم مؤلفات البلاذري والمسعودي وابن الاثير وابن خلكان وأبي الفدا وابن خلدون وابن طباطبا والسيوطي والمقري من المؤرخين ، وابن خرداذبة والاصطخري وياقوت الحموي من الجغرافيين . ومن كتب الادب الاغانى لابى الفرج الاصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والكشكول والمستطرف للابشيهي وسراج الملوك للطرطوشي وغيرها . ومن كتب التفسير والحديث والفقه تفسير الرازي والزنجشري وصحيح البخاري ومشكاة المصابيح والهداية وغيرها

ومن كتب السياسة والادارة كتاب الخراج لابى يوسف ، وكتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدماء بن جعفر ، والاحكام السلطانية للماوردي والعقد الفريد للملك السعيد ومقدمة ابن خلدون . وغير ذلك من الكتب في موضوعات أخرى لا يخطر للمطالع انها تفيده في هذا الموضوع ، وقد عثرنا فيها على فوائد جمة ، مثل حياة الحيوان للدميري وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما . فضلا عن المعاجم والفهارس مثل كشاف اصطلاحات الفنون للنهازي ، وكتاب كشف الفنون لحاجي خليفة وكليات ابي البقاء وغيرها وكل ذلك في اللغة العربية . .

ثم طالعنا ما استطاع الوصول اليه مما ألفه الافرنج في الاسلام وتاريخه وآدابه في اللغات الفرنسية والانجليزية والالمانية . مثل كتاب جستاف لوبون

الفرنسي في تمدن العرب (١) وكتاب ليبو في تاريخ الدولة الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية (٢) ومقالات في المجلة الآسيوية الفرنسية (٣) ، وكتاب فون كريمر بالألمانية في تاريخ تمدن المشرق (٤) ، وكتاب مولر الألماني في تاريخ الإسلام في الشرق والغرب (٥) ، وكتاب ستانلي لين بول الإنجليزي في الدول الإسلامية (٦) وكتاب ادوارد جيبون الإنجليزي في اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها (٧) وغيرهم

وقد زاد عدد ما طالعناه من الكتب العربية والافرنجية على مائتي مجلد . . عدا ما راجعناه من القواميس العامة والموسوعات على اختلاف اللغات والموضوعات ، مع ما رسخ في ذهننا من مطالعة تاريخ المشرق بتوالي الاعوام ، فوفقنا بعد كل ماتقدم الى ما يملأ أضعاف الكتاب المطلوب من الابحاث الفلسفية في تاريخ ذلك التمدن العجيب ، من الوجوه السياسية والادارية والعلمية والادبية والاخلاقية . فلم نر بدا من تقسيم الموضوع الى اجزاء نصدر الجزء الاول منها الآن ، ثم نصدر ما يليه من الاجزاء تنمة للسنين التالية من الهلال ان شاء الله

فالجزء الاول ، وهو هذا ، اساس ما يليه من الاجزاء . وقد صدرناه بمقدمات تمهيدية في العرب والتمدن وحال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الاخيرة قبيله ، والحكومة في الجاهلية وتاريخ الكعبة وقريش الى ظهور الدعوة الاسلامية وكيفية ظهور هذه الدعوة ، وانتشار الاسلام والفتوح الاسلامية الى قيام الدولة الاموية فالعباسية فالاموية الاندلسية فالفاطمية فغيرها . وقد نظرنا في كل ذلك نظر الناقد ، فلم نذكر حادثة الا اسندناها الى عللها واسبابها وبيننا ما نتج عنها وذكرنا علاقتها بما بعدها . . وخصوصا فيما ساعد العرب على فتح المملكتين الفارسية والرومية (البيزنطية) مع قلة عددهم وضعف معداتهم . وهو بحث فلسفي لم يستوفه احد في لغة من اللغات على ما نعلم - الا ما قد تراه في كتب الباحثين من الافرنج واكثره مختصر لا يروى غليلا . ولا يعابون في ذلك والموضوع بعيد عنهم ولا علاقة له بأحوالهم ولا بأديانهم ولا بأدابهم ولا بتاريخهم الا قليلا - وانما اللوم علينا نحن ابناء

La Civilisation des Arabes, par le Dr Gustave Le Bon. (١)

Hist. du Bas-Empire par Lebeau, 30' vol. (٢)

Journal Asiatique. (٣)

Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, von A. von Kremer. (٤)

Der Islam im Morgen und Abendland, von Dr. Mueller. (٥)

The Mohammadan Dynasties, by S. Lane-Poole. (٦)

Decline and Fall of the Roman Empire, by Gibbon. (٧)

هذا اللسان - وقد سبقنا الافرنج الى البحث في تاريخ بلادنا وامتنا
وآدابنا وأخلاقنا

وعمدنا بعد تلك المقدمات الى النظر في المملكة الاسلامية في ابان عزها وفي
احصائها . ثم في الدولة الاسلامية واداراتها وكيف نشأت وتشعبت الى
الوظائف المتعددة كالخلافة وما يتبعها والوزارة وولاية الاعمال وبيت المال
والجند وسائر الدواوين . ثم ذكرنا تاريخ كل من هذه الادارات والوظائف
وما تفرع منها أو الحق بها . وقد عانينا المشاق الكبرى في استخراج
حقائق تلك التواريخ من كتب القوم . فربما قرانا المجلد الضخم فلا نستفيد
الا فقرة أو فقرتين ، وقد لاتتم الحقيقة الواحدة الا بمطالعة المجلدين أو الثلاثة

ومن أمثلة ما اتفق لنا من هذا القبيل أننا بعدما كتبنا تاريخ ولاية الاعمال
وتاريخ القضاء في الدولة الاسلامية ، عمدنا الى البحث عن رواتب العمال
ورواتب القضاة في زمن الخلفاء الراشدين . فوجدنا في فتوح البلدان
للبلاذرى أن عمر بن الخطاب « بعث عمار بن ياسر على صلاة أهل الكوفة
وجيوشهم ، وعبدالله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم ، وعثمان بن حنيف
على مساحة الارض الخ » لكنه لم يذكر مقدار عطاء أحد منهم ، ثم وجدنا
في كتاب سراج الملوك للطرطوشي في باب سيرة السلطان في الانفاق من بيت
المال وسيرة العمال قوله : « ولم يقدر عمر الارزاق الا في ولاية عمار فأجرى
على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ، وعبدالله بن مسعود
مائة درهم كل شهر الخ » ولم يذكر منصب عمار ولا منصب ابن مسعود .

- ولكننا جمعنا بين الروايتين فاستنتجنا منهما أن راتب من يتولى الجيوش
والصلاة في عمل من الاعمال ، كان على عهد عمر بن الخطاب ستمائة درهم وراتب
القاضي مائة درهم في الشهر . وعلمنا من قرائن أخرى أن الذي يتولى الصلاة
والجيوش في أيام عمر هو العامل . ومن قرائن أخرى أن عمارا كان عاملا لعمر
على الكوفة ، فتحققنا من مجموع ما تقدم أن راتب العامل كان على عهد
عمر ستمائة درهم وراتب القاضي مائة درهم - وقس على ذلك

وسنبحث في الجزء الثاني عن ثروة المملكة الاسلامية وغنى أهلها وحضارتها
وعلاقتها بالدول المعاصرة لها ، ووصف أحوال الخلفاء في مجالسهم والعبابهم
واهتمامهم بالعلم والعلماء والشعر والشعراء والدخول عليهم وجلوستهم
للناس وقصورهم وبدخهم وركوبهم وضيافتهم وكرمهم والابنية الاسلامية
والمدن الاسلامية الخ . . .

والجزء الثالث يبحث في العلوم والآداب والشعر والصناعة وحالها في الشام

والعراق قبل الاسلام ، وكيف ارتقى اليها المسلمون وتاريخ ذلك الارتقاء ومقداره
والجزء الرابع يبحث في الآداب الاجتماعية في تلك العصور الزاهرة على
ما يقتضيه المقام (١)

وسنختم المقال ببيان نسبة التمدن الا فرنجي الحديث الى التمدن الاسلامي،
ويكون الكلام في ذلك جليلاً واضحاً بعد تفصيل عوامل هذا التمدن في
الاجزاء السابقة (٢)

فترى مما تقدم ان الموضوع شاق ووعر ، فضلاً عن حداثة في عالم التأليف
مع قصورنا في هذا الشأن . وفي ذلك تمهيد للعذر على ما قد يشوب هذا
الكتاب من النقص . ونتقدم الى اهل الفضل ان يؤازرونا بملاحظاتهم وآرائهم
للانتفاع بها فيما سيصدر من الاجزاء التالية ان شاء الله تعالى

٤

(١) تبين لنا بعد التقدم في تأليف الكتاب انه لا يتم الا ان يكون خمسة اجزاء كما ستري
(٢) عدلنا عن هذا البحث في هذا الكتاب واجلناه الى كتاب آخر

مقدمة الطبعة الثانية

ظهر هذا الكتاب منذ بضع عشرة سنة ، فتناوله الادباء والعلماء بالتقريظ والانتقاد في الصحف العربية وغيرها . وجاءتنا كتب اهل العلم من اقطار العالم الاسلامي ينشطوننا ويستحثوننا . وفيهم من جاهر صريحا انه لم يكن يظن تأليف مثل هذا الكتاب ممكنا لقلة المآخذ المساعدة على ذلك . فزادنا تنشيطهم ثباتا على هذا العمل حتى ظهر الكتاب في اجزائه الخمسة وكان له وقع خاص عند ادباء اللغات الاخرى ، فأخذوا في نقله كله او بعضه الى سنتهم . فنقل الى اهم اللغات الشرقية - نعى الفارسية والاوردية والتركية ، ظهر مطبوعا فيها كلها . ونقل الى اهم لغات اوربا ، نعى الانجليزية والفرنسية ، وقد ظهر جزؤه الرابع في الاولى وسيظهر جزؤه الاول في الثانية . وتضاعف الاقبال على الطبعة العربية حتى نفذت نسخ هذا الجزء منذ بضعة أعوام . ونحن نتحين الفرص لاعادة طبعه ، فلم نتمكن من ذلك الا الآن

وما برحنا منذ صدور الطبعة الاولى ونحن نجمع ما يمر بنا من الفوائد التي يحسن ادخالها في هذا الكتاب عند اعادة طبعه . فاجتمع لدينا من ذلك شيء كثير اضعفناه الى هذه الطبعة . ونظرنا فيما وصل اليانا من انتقادات المنتقدين او ملاحظات الملاحظين مما نشر في الصحف او الكتب او جاءنا في الكتب الخصوصية . وتدبرناها كلها باخلاص وروية فأصلحنا ما صح عندنا وأغفلنا الباقي - وهو الاكثر - وانما توهم المنتقدون خطأه لانهم نظروا فيه من وجه غير الذي نظرنا منه نحن . او اننا اطلعنا عليه في مصادر لم يطلعوا عليها ، فاكفينا في هذه الحال بذكر المصدر الذي عولنا عليه في ذيل الصفحة

فجاءت هذه الطبعة اكبر من الاولى وأوفر مادة واحسن ترتيبا واكثر صورا واشكالا . وفي ما اضعفناه اليه من الصور او الخرائط ما يزيد البحث اوضاحا . فعسى ان يقع عملنا هذا موقع الاستحسان . وحسبنا أننا قمنا ببعض الواجب في سبيل آداب هذا اللسان

مقدمات تمهيدية

البحث في تمدن الامة يتناول النظر فيما بلغت اليه من سعة الملك والعظمة والثروة ووصف ما رافق تمدنها من اسباب الحضارة وثمارها ، ويدخل في ذلك تاريخ العلم والادب والصناعة ولوازمها ، كالمدارس والمكاتب والجمعيات ، وبسط حال الدولة ومناصبها وما انتهت اليه من الرخاء ، وما هو مقدار تأثير ذلك في هيئتها الاجتماعية . وذلك يستلزم وصف عادات الامة وآدابها الاجتماعية ومناحيها السياسية واسناد ذلك الى اسبابه وبواعثه غير أن النظر في هذا التمدن على هذه الصورة ، لا يكون واضحا وافيا الا اذا تقدمه البحث عن حال تلك الامة في بداوتها ، وكيف تدرجت الى الحضارة وما هي العوامل التي ساعدتها على ذلك . والبحث المشار اليه ضروري خصوصا في تاريخ التمدن الاسلامي ، لان فيه عوامل خاصة به لا وجود لها في تمدن الامم الاخرى

وبناء على ذلك لم نر بدا من تصدير هذا الكتاب بمقدمات تمهيدية ، نبسط فيها حال العرب قبل الاسلام ونسبتهم الى التمدن وما تقدم الدعوة الاسلامية من احوال تلك الامة . . وكيف كانت جزيرة العرب عند ظهور الدعوة ، وكيف كانت حال الروم والفرس يومئذ . . وما الذي ساعد هؤلاء العرب على فتح تينك المملكتين مع قلة عددهم وضعف معداتهم . . وكيف نشأت الدولة الاسلامية وارتقت من حالها الدينية في أيام الراشدين الى حالها السياسية في أيام الامويين فالعباسيين فالفاطميين فغيرهم

فاذا فرغنا من ذلك ، عمدنا الى الكلام في سعة المملكة وتاريخ اداراتها ومناصبها وغير ذلك (*)

فنبدا بوصف حال العرب قبل الاسلام

(*) يشير المؤلف هنا الى رأى كان كثير من المستشرقين يقولون به في دراساتهم للتطور العام للدولة الاسلامية ، وهم يذهبون الى ان الدولة الاسلامية أيام الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين ، كان يقوم عليها رؤساء دينيون يستهدفون نشر العقيدة ورعايتها أولا ، ثم تحقيق اهداف سياسية بعد ذلك ، وهذا هو الذي يسمى بالحكومة الدينية أو الشيوقرافية . . وابتداء من الدولة الاموية تحولت الدولة الاسلامية الى دولة سياسية ، اي يقوم عليها رجال ملك وسياسة . وهذا التقسيم ، وان كان يعيننا على ادراك بعض نواحي التطور التي شملت الاتجاه العام للدولة الاسلامية عند انتقالها من آخر الخلفاء الراشدين الى اول خلافة معاوية ، الا أنه لا يطابق الواقع تماما كما يعرفه من يدرسون تاريخ الدولة الاسلامية . وقد انصرف معظم المستشرقين المحدثين عن هذا الرأى

قارن الرأى الاول كما يمثله يوليوس فلهاوزن في « تاريخ الدولة العربية » الترجمة العربية للدكتور محمد عبد الهادي ابو ريده - القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٠٧ وما يليها ، والرأى الثانى كما يمثله الشيخ محمد الخضرى في كتاب : « محاضرات تاريخ الامم الاسلامية » الطبعة الخامسة ١٣٦٦ هـ ، ص ٩٦ وما يليها

العرب والمدن

زعم بعض الكتاب من الافرنج ان العرب لا فضل لهم في تمدنهم الاسلامي لانهم انشأوه على انقاض التمدنين البيزنطي والفارسي . فالتمدن الاسلامي عندهم عبارة عن مزيج من ذينك التمدنين ، مع بعض التعديل . وان العرب من فطرتهم بعيدون عن الحضارة ، لانهم لم ينشئوا تمدنا من عند انفسهم في عصر من العصور الجاهلية ولا الاسلامية . وعندنا ان العرب اكثر الامم استعدادا للحضارة وسياسة الملك ، لا يقنون في ذلك عن سواهم من الامم التي تمدنت قديما او حديثا واليك البيان

قدماء العرب

المشهور عند المؤرخين ان العرب يقسمون الى قسمين كبيرين : العرب البائدة كعاد وثمرود ، والعرب الباقية . وان العرب الباقية يقسمون الى القحطانية سكان بلاد اليمن وما جاورها ، وهم ينتسبون الى قحطان او يقطان بن عامر وينتهي بأرفخشاد الى سام . والاسماعيلية او العدنانية وهم سكان الحجاز ونجد وما جاورهما من اواسط جزيرة العرب ، وينتسبون الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل من امراته هاجر ، ويسمون ايضا مضرية ومعديية لمثل ذلك السبب

وقد بينا في كتابنا « العرب قبل الاسلام » ما كان للعرب من الدول القديمة فيما بين النهرين قبل الميلاد ببضعة وعشرين قرنا . . نعى دولة حمورابي واضع اقدم الشرائع الانسانية التي وصلت الينا ، وقد اتينا من هناك بالادلة التي ترجح كون دولته عربية (*) ، وبيننا ان تلك الامة كان لها تمدن عظيم وآداب راقية . وكانت للمرأة فيها منزلة وحرية ، حتى تقلدت المناصب السياسية والقلمية (١) وتفرع من الحمورابيين بعد ذهاب دولتهم

(١) انظر كتاب « العرب قبل الاسلام »

(*) يجمع العلماء اليوم على ان دولة حمورابي سامية الاصل . فان سومو ابوم Soumou Aboum جد حمورابي ، الذي استولى على دولتي سومر واكاد وجعل منهما دولة واحدة ابتداء من سنة ٢٢٢٥ ق . م . كان عموريا وعاصمته مدينة بابل . والعموريون قبيل من الساميين هاجروا حوالي ٢٥٠٠ ق . م . في موجة واحدة كانت تضم الكنعانيين الذين نزلوا غربى الشام وفلسطين ، والفينيقيين الذين نزلوا سواحل الشام . كما هاجر العرب من الجزيرة بعد الاسلام . وهذه الشعوب جميعها ، التي يطلق عليها عادة اسم الساميين ، هي فروع جنس واحد قديم سكن جنوب غربى الجزيرة العربية ويسميه العلماء الاورسييميتيش Ursemetisch وهي تسمية المانية أصبحت اصطلاحا عاما في كل اللغات ومعناها

134963

دول العمالقة المختلفة ، ومن فروعهم عاد وثمود والانباط وعرب تدمر وغيرها
ويلى الحمورابيين عرب اليمن وهم القحطانية . وقد تمدنوا قبل العرب
الاسماعيلية ، لان بلادهم اقرب الى الخصب والرخاء من بلاد هؤلاء، فنشأت



حمورابي ملك بابل واقفا
بين يدي اله الشمس

منهم دول قديمة عاصرت الفراعنة وملوك
بابل وأشور. وقد ظهوروا بعد الحمورابيين
بعده قرون ، ذكرنا منهم الدول المعينية
والسبائية والحميرية ، أصحاب مأرب
وصنعاء وغيرهما

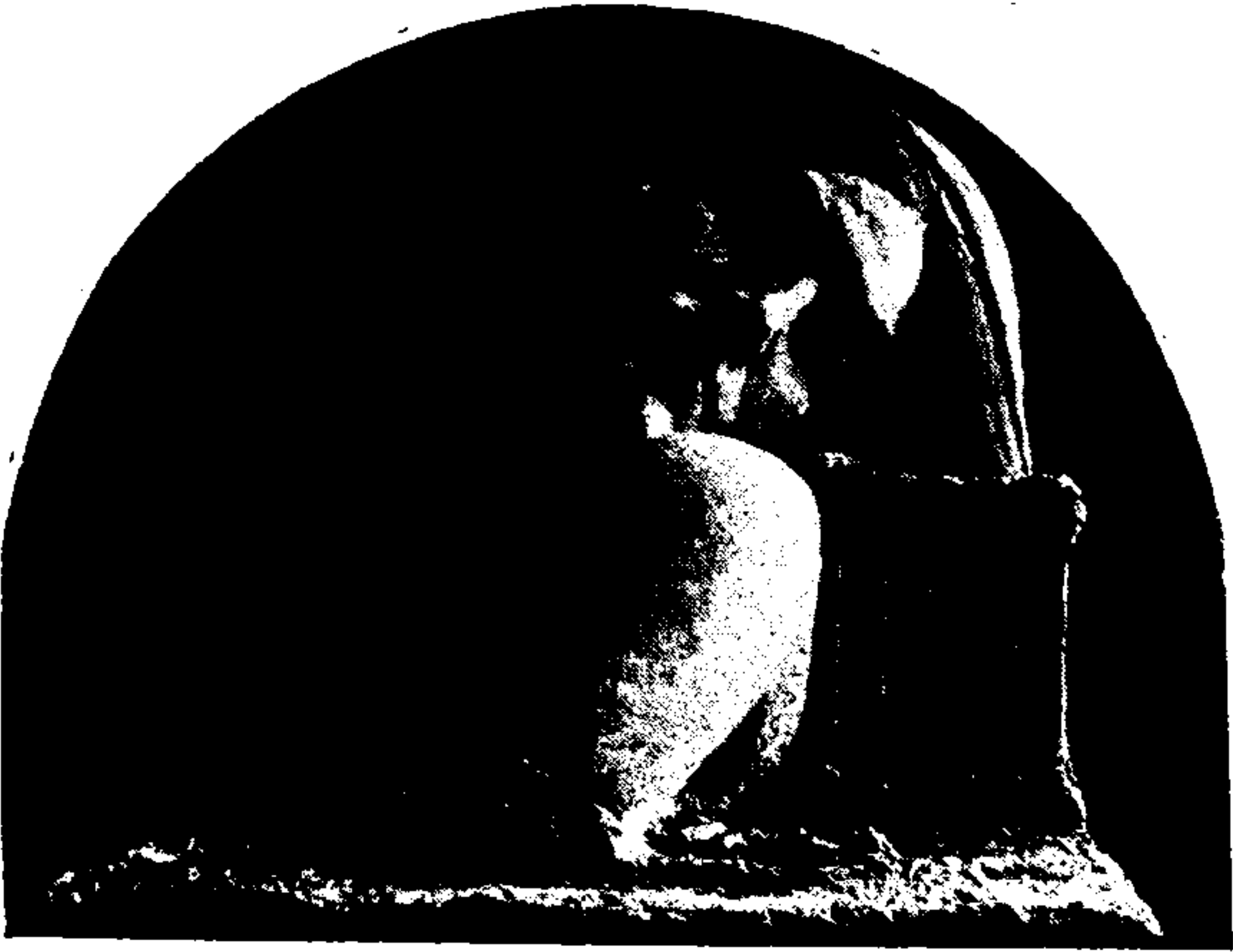
أما العرب الاسماعيلية وهم أهل الحجاز
ونجد فأكثرهم أهل بادية ، وقد ظهر منهم
دول قبل الميلاد وبعده ، أشهرها دول
القبائل صاحبة الوقائع التي جرت بينهم
قبيل الاسلام والتي تعرف بأيام العرب
ثم ان العرب ليس في أرومتهم ما يمنع
استعدادهم للحضارة ، لانهم اخوان
الاشوريين والكلدانيين والفينيقيين ، ولهم
استعدادهم وأهليتهم . . فالذين اقاموا
منهم في بلاد مثل بلاد ما بين النهرين
أدهشوا العالم بمدنيتهم . والمقيمون في
جزيرة اكثر بقاعها جرداء لا أنهر فيها ولا
جداول ، وانما يستقون من مياه المطر ،
قضوا قرونا في البداوة . . فلما أتتحت
لهم الاقامة في البلاد الخصبة بعد الاسلام،
لم يكن تمدنهم فيها يقصر عن تمدن
اولئك

فالتمدن الاسلامي ليس أول عهد العرب
بالحضارة . فقد كان المعينيون والسبائيون
والحميريون واسطة عقد التجارة بين الشرق
والغرب ، لتوسط بلاد اليمن بين الممالك
التمدنة في ذلك الحين . فكانت تجارات الهند

الساميون الاصلاء ، ولا يجوز لهذا ان يقال ان العموريين ، ومنهم حمورابي ، عرب . كما
لا يجوز ان يقال ان العبرانيين عرب
انظر : ديبلاورت : بلاد ما بين النهرين ، ترجمة الاستاذ محرم كمال - القاهرة ١٩٥٦
ص ٤٤ وما يليها

وفيليب حتى : تاريخ العرب (مطول) - بيروت ١٩٤٩ ، ص ١٠ وما يليها

تحمل في البحر الهندي الى بلاد اليمن وحضرموت، فيحملها اهل اليمن الى الحبشة
ومصر وفينيقية وبلاد الادوميين والعمالقة وبلاد مدين وبلاد المغرب . وكذلك
كان الاسماعيليون ينقلون التجارة من اليمن وموانئ بحر العرب الى بلاد الشام
وساعد العرب على التوسع في وسائل التجارة - فضلا عن توسط بلادهم -
انهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات اكثر الامم المتمدنة في ذلك الحين .
لان اللغات السامية كانت يومئذ لاتزال متقاربة لفظا ومعنى . فالعربي
والكلداني والاشوري وال عبراني والحبشي والفينيقي كانوا يتفاهمون بلا



زينوبيا (الزباء) ملكة تدمر

واسطة لقرب عهد تلك اللغات بالتشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية
المتشعبة من اللغة الفصحى الآن . فكان العربي من حمير او مضر اذا جاء
العراق لا يحتاج في مخاطبة الكلداني او الاشوري الى ترجمان . وكذلك اذا
يمم فينيقية او الحبشة فانه يفهم لسان اهلها كما يفهم الشامي لسان اهل
مصر اليوم . ويؤيد ذلك ما جاء في التوراة عن ابراهيم الخليل فانه نزع من
بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبل الميلاد واجتاز سوريا وفينيقية
وببلاد العرب وخالط اهلها ولم يفتقر في مخاطبتهم الى مترجم . وكذلك بنو
اسرائيل في تيههم حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فانهم قضوا اربعين

سنة في أعالي جزيرة العرب ولم يحتاجوا الى مترجم بينهم وبين أهلها والمسافر في بلاد العرب اليوم يجد أكثرها رمالا قاحلة ، لكنه لو نقب تحت تلك الرمال في بعض المواضع ، لوقف على آثار القصور وغيرها من بقايا المدينة . روى مؤرخو العرب البائدة عما خلفه العاديون من الابنية الفخمة هناك مانعه من الخرافات لخروجه عن المألوف عندنا . مثل حديثهم عن مدينة ارم ذات العماد التي زعموا « أن شداد بن عاد بناها في الاحقاف في بقعة مساحتها عشرة فراسخ في عشرة . فجعل جدرانها من الجزع اليماني وغشاها بصفائح الفضة الموهة بالذهب ، وبني داخل المدينة مائة الف قصر على عمد من الزبرجد واليواقيت ، طول كل عمود مائة ذراع . وأجرى في وسطها أنهارا وعمل فيها جداول الى تلك القصور ، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت » الى غير ذلك مما يفوق طور الامكان . لكنه يشف عن حقيقة مهما قيل في تحقيرها ، فانها تدل على أن بعض ابنية العرب البائدة كانت مرصعة في بعض جدرانها أو اساطينها بالحجارة الكريمة . وهذا غاية ما يمكن أن يصل اليه البذخ والترف . ولا يكون ذلك الا في ابان المدينة (*)

عرب اليمن

أما عرب اليمن القحطانية ، فقد تمدنوا تمدنا لا تزال آثاره مطمورة تحت الرمال في حضرموت ومهرة واليمن . وأشهر دولهم عند العرب حمير وسبأ وكهلان . وتاريخ هذه الدول اقرب عهدا من عاد وثمود ، وقد اكتشف الباحثون بعض آثارهم ، وأكثر ما اكتشفوه انقاض بعض الابنية في صنعاء وعدن وحضرموت . فاستخرجوا منها الواحا مكتوبة بالقلم الحميري (المسند) أكثرها دعاء ديني أو نحوه . ولم يتمكنوا من التنقيب عن الدفائن المهمة في داخلية البلاد لمشقة الوصول اليها . ناهيك بما ذكره مؤرخو العرب عن ابهة تلك الدول وكانت قد انحلت قبل الاسلام . لكن أختارها كانت الى ذلك العهد لا تزال مألوفة وفيها ما يدل على تمدن قديم لا يقل عن تمدن الاشوريين

(*) يبالغ مؤرخو العرب في تصوير ازدهار مدينتهم في العصور السحيقة ، والحقيقة أن بلاد العرب كانت فيما قبل التاريخ كثيرة الامطار ، تغطي ارضها الحشائش وتكثر فيها الوديان التي تمتلئ بالمياه في موسم الامطار . وقد بدأت الجزيرة في الجفاف عندما بدأت الارض كلها تجف في منتصف العصر الجليدي الرابع ، اى عندما بدأ الجليد يتراجع الى الشمال والجنوب ، فأخذ جوها يجف شيئا فشيئا حتى صارت صحراء . وهذا ينطبق على صحراوات اخرى مثل الصحراء الافريقية الكبرى . وهذا الخصب القديم هو الذي يفسر لنا قيام دول وحضارات قديمة في شبه الجزيرة ، وهو أمر لا يتصوره من يرى جفافها وجدبها الآن

والمصريين والفينيقيين . فقد انشأوا المدن وعمروا القصور وغرسوا الحدائق ونحتوا التماثيل وحفروا المناجم ونظموا الجند وفتحوا البلاد ووسعوا التجارة

ض	ϩ	ا	α α
ط	Ϩ	ب	π π π π π ο ο π π
ظ	ϩ ϩ ϩ	ت	χ χ
ع	ο	ث	θ θ
غ	γ γ γ γ γ	ج	Γ Γ
ف	ο ο	ح	ψ ψ
ق	ο	خ	ϣ ϣ ϣ ϣ ϣ
ك	κ κ κ κ	د	δ δ δ δ
ل	λ λ λ λ	ذ	η η η η η
م	μ μ μ μ μ	ر	ρ ρ ρ ρ ρ Ϡ Ϡ Ϡ Ϡ Ϡ
ن	ν ν ν	ز	ζ ζ ζ
و	ο ο ο ο	س	σ σ σ σ
هـ	υ υ υ	ش	ς ς ς ς ξ ξ ξ ξ
ي	ϑ	ص	σ σ σ

الحروف الحميرية (المسند) وما يقابلها في العربية

واتقنوا الزراعة . وقد ذكرهم هيروdotus الرحالة اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد فقال : « ان في جنوبي بلاد العرب وحدها البخور والمر والقرفة والدار صيني واللاذن » وعدها من اغنى ممالك العالم في زمانه

ومن آثار العرب في اليمن ، ما لا يزال التاريخ يلهج بذكره ويعد من عجائب الابنية ، نعني بذلك السد المشهور بسد مأرب ، بنوه نحو القرن الثاني قبل الميلاد كما بنى محمد على (باشا) القناطر الخيرية في رأس الدلتا ، وكما بنت الحكومة المصرية خزان أسوان

سد مأرب

وسد مأرب هذا ، عبارة عن حائط موصل بين جبلين يحجز الماء الذي يسيل بينهما ، فيرتفع ويروى السفحين الى اعلاهما . جعلوا فيه شعبا واقنية وساقوا اليه سبعين واديا تصب مياهها فيه . فمثل هذا السد العظيم يحتاج الى مهارة في الهندسة وهمة عالية ، وهو اقدم خزان للماء ذكره التاريخ ،

وعرب اليمن أسبق الأمم الى هذه الهندسة . وكان بناؤه متينا صبر على صدمات الماء وتأثيرات الهواء بضعة قرون . ولما ضعفت الدولة عن تجديده وأحسوا بقرب تدممه أخذوا في المهاجرة من جواره ، في أواسط القرن الثاني للميلاد ، وتفرقوا في البلاد . والمشهور عند العرب ان الفساسنة في الشام ، والمناذرة في العراق ، والاوز في المدينة ، والازد في منى وخزاعة بجوار مكة منهم (اى من عرب الجنوب) . ثم انفجر السد وطفغت المياه فهاجر من بقى . وذلك ما يعبرون عنه بسيل العرم (*)

وذكر استرابون الرحالة اليونانى في القرن الاول قبل الميلاد ، ان مأرب كانت في زمانه مدينة عجيبة ، سقوف أبينتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة . وفيها الآنية الثمينة المزخرفة مما يبهر العقول . وذلك يهون علينا سماع ما ذكره العرب عن ارم ذات العماد

وفي اعتقادنا انهم لو بحثوا في انقاض مأرب وصنعاء وغيرهما من عواصم ملوك سبأ وحمير لعثروا على أحافير ثمينة تكشف للعالم عن تاريخ جديد كما كشفت آثار وادى النيل عن تاريخ الفراعنة ، وكما كشفت آثار وادى الفرات عن أخبار ملوك آشور وبابل . ولا يتأتى ذلك الا بارسال البعثات العلمية للحفر والتنقيب

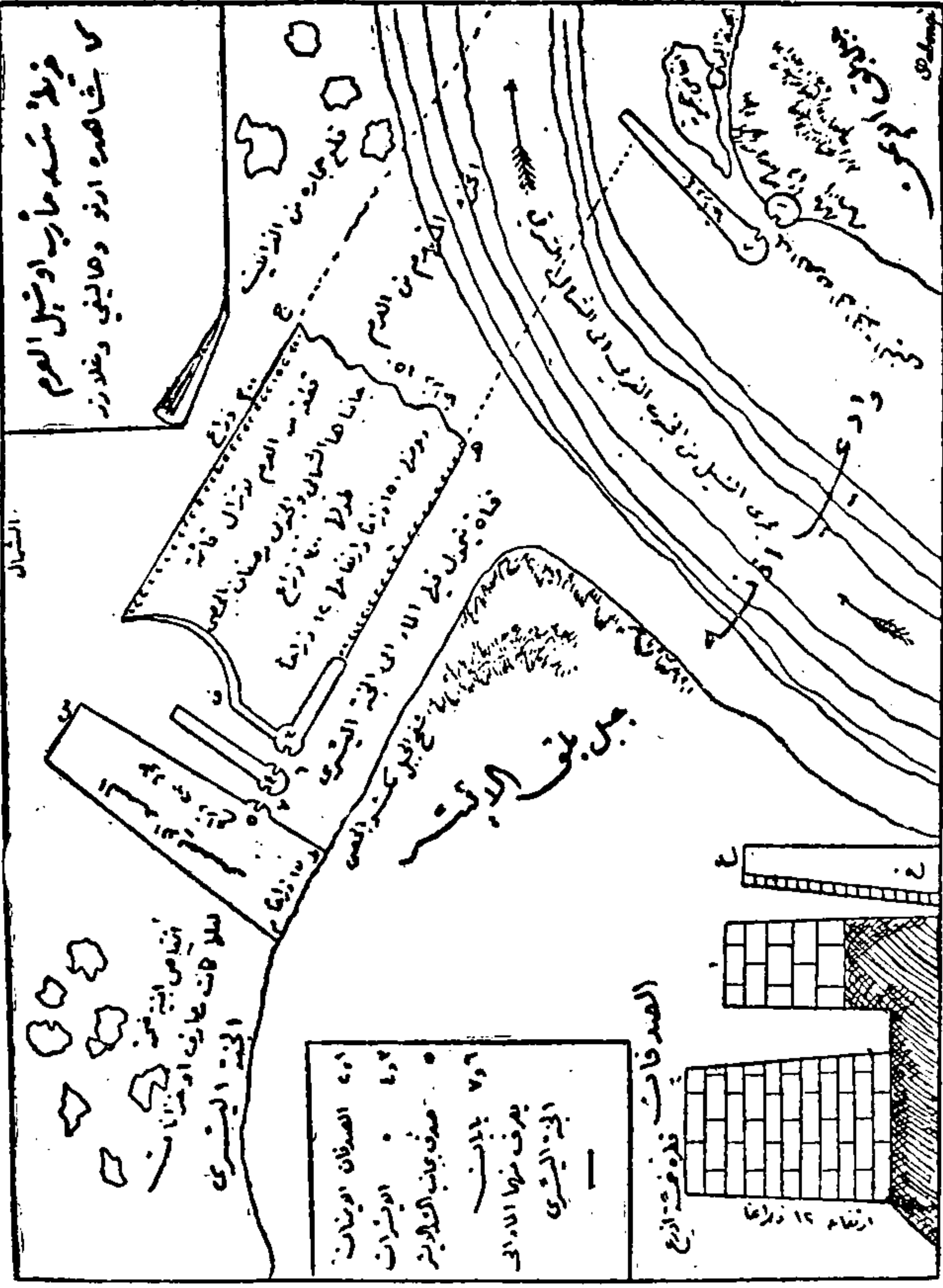
الانباط

ومن الأمم العربية التي تمدنت قبل الاسلام الانباط أصحاب مدينة بطرا Petra (***) بين فلسطين وشبه جزيرة سينا . وقد امتدت سيطرتهم على تلك الجزيرة وما جاورها من جزيرة العرب الى الحجاز . وكان الانباط واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب ، وقد عاصروا الرومان في ابان مجدهم وكثيرا ما كانوا عوناً لبعض قوادهم في الحروب حتى تآتى لاحدهم وهو الملك الحارث الثالث (***) أن يتولى دمشق برهة قصيرة في القرن الاول للميلاد قبل عهد الفساسنة بأجيال . وقد ضرب النقود باسمه واسم الحاكم الرومانى هناك . وما زالت دولة الانباط سائدة الى أوائل القرن الثاني للميلاد فدخلت في

(*) انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٨٢ - ٣٨٤

(**) تسمى أيضا البتراء ، وتعرف في التوراة باسم سلع وفي بعض النصوص العربية بالرقيم ، وتعرف اليوم بوادى موسى . وتقع على رابية ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم . وقد ازدهرت البتراء في القرن الرابع بعد الميلاد ، ودام ازدهارها نحو اربعة قرون ، كانت خلالها مركزا رئيسيا على طريق القوافل من سبأ في اليمن الى نفور البحر الابيض

(***) يسمى في النصوص اللاتينية اريتاس Aretas ويرجع انه حكم بين سنتى ٨٥ و ٦٠



كاشاهده ارنو وهاليني وغلدرن
 فريلا سيد مايرب اوسيل العم

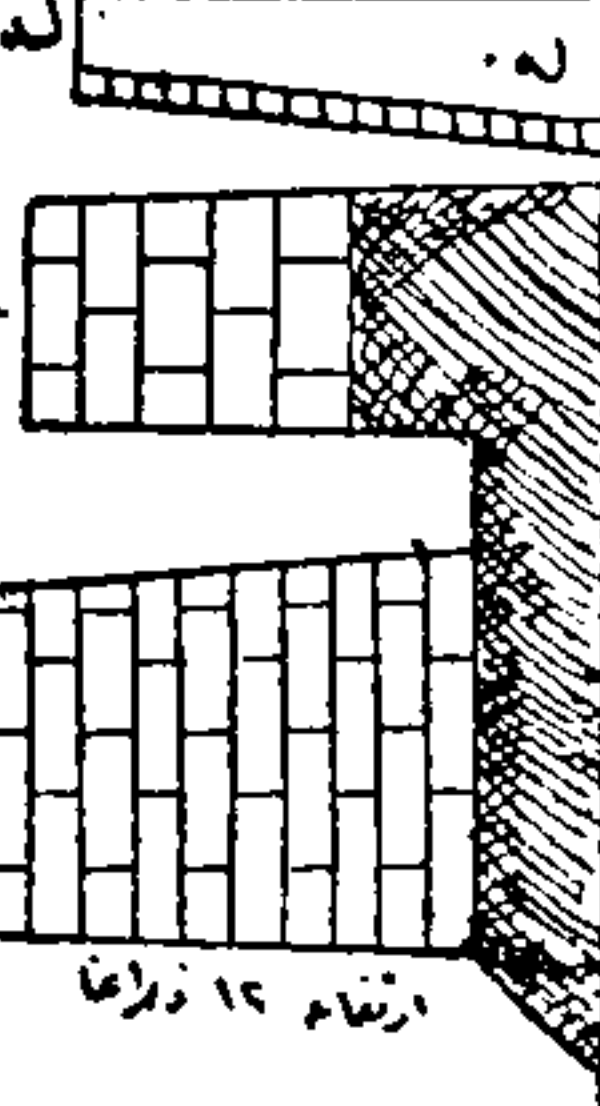
الشمال

ملاقات عاريف اوت جارات
 الجزيرة اليسرى

- الصدقان اوبنات
- البيشات
- صدف جانب الكلاوشر
- بلاليش
- يعرف منها الاداء
- الجنة اليسرى

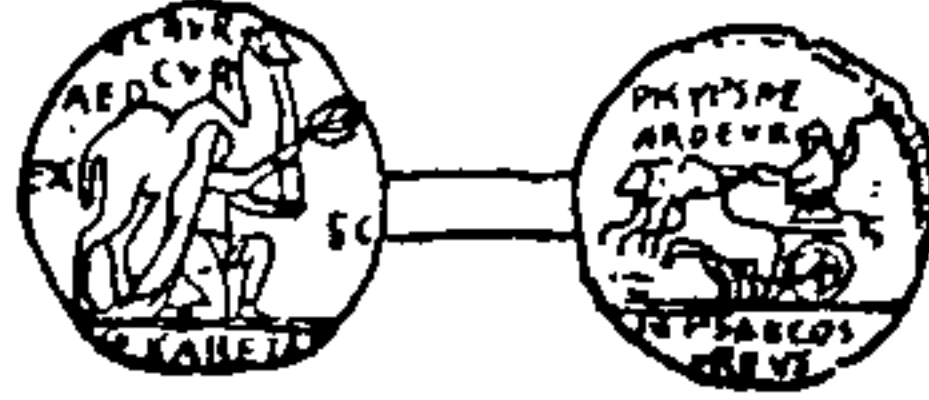
الصدقات

قلعة غصنة اذرع



ارتفاع ١٢ ذراعا

حوزة الروم وضاعت فيها ولا تزال انقاضها في بظرا وعليها الكتابة النبطية
يقراونها كما يقرأون الكتابة الحميرية (١)



نقود الحارث الثالث واسكاوروس

ومن الامم العربية التي تمدنت قديما العمالقة (*) ، وقد تفرعوا من
الحمورابيين على ما نظن وهم مشهورون بشدة البطش . ومنهم الملوك الرعاة
الذين فتحوا مصر وتولوها عدة قرون ، غير مستعمرات العرب في مشارف
الشام والعراق ومن مدنها بصرى في حوران للفساسنة ، والحيرة في العراق
للمناذرة ..

أيقال بعد ما تقدم أن العرب بعيدون بفطرتهم عن الحضارة ؟

التمندان اليوناني والفارسي

على اننا لا ننكر أن التمدن الاسلامي قام على انقاض التمدنين اليوناني
والفارسي، لكن شأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان والرومان والفرس وسائر
الدول العظمى .. لان اليونان اقتبسوا أكثر عوامل تمدنهم من المصريين وزادوا
فيها ووسعوها على مقتضى مؤثرات الطبيعة ، حتى صار تمدنا معروفا بهم .
فأخذ عنهم الرومان وعدلوا فيه تعديلا طفيفا جدا . وكذلك الفرس فان تمدنهم
قام على انقاض تمدن الاشوريين والبابليين والكلدانيين قبلهم وأخذوا أيضا عن
اليونان

على ان تلك الامم لم تستطع الظهور في عالم الحضارة الا بعد أجيال متوالية .
أما العرب فلم يمض على نشوء دولتهم قرن حتى ظهر تمدنهم وبانت ثمار

(١) جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام

(*) الرأي مختلف حول العمالقة ، ومفردهم عملاق بفتح العين او كسرهما او ضمها ، فيذهب
البعض الى ان العمالقة من العرب البائدة وانهم ينتسبون الى نفس الاصل الذي ينتسب اليه
طسم وجديس وثمود . ويذهب البعض الى ان الكنعانيين والفلسطينيين منهم ، بل يذهب
نفر من مؤرخي العرب الى ان الفراعنة كانوا من العمالقة . والرأي متفق الآن على انهم من
اجيال الساميين التي هاجرت من شبه الجزيرة ، وهم المعروفون في تاريخ مصر باسم
الهيكسوس او ملوك الرعاة

انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة عماليق



مسكوكات نبطية

عقولهم . وفي القرنين الثاني والثالث للهجرة ملأوا الارض علما وادبا ومدنية
وحضارة

وزد على ذلك أن الجرمان الذين نشأ منهم فيما بعد عدد من أعظم دول الأرض ، قضوا أجيالا متطاولة وهم يغيرون على الدولة الرومانية قبل الاسلام وبعده ، وفتحوا كثيرا من مدنها ودخل بعضهم رومية نفسها ولم يكن من ثمار فتوحهم في القرون الاولى غير النهب والقتل . واعتبر ذلك في غزوات الهون في القرن الخامس للميلاد ، فانهم اكتسحوا شمالي الدولة الرومانية وشرقيها ، وفتحوا المجر ورومانيا وسائر شرق أوروبا ، وأنشأوا هناك دولة عرفت بدولة الخاقانات حكمت مائتي سنة - كما فعل العرب باكتساح سوريا ومصر والعراق - لكن الهون لم ينشئوا تمدنا ولا خلفوا حضارة مع أنهم أقرب الى مركز التمدن اليوناني من العرب . وغزا الصقالبة في القرن السادس للميلاد الدولة الرومانية الشرقية حتى طرقتوا ابواب القسطنطينية ثم عادوا ولم يتمدنا . الا يدل ذلك على أن في العرب استعدادا خاصا للحضارة ؟

الحجاز في العصر الجاهلي

لجاهلية العرب عصران : الجاهلية الاولى في عهود من ذكرنا من أمم العرب البائدة ومن خلفهم في اليمن وغيرها ، والجاهلية الثانية نريد بها حالة جزيرة العرب ولاسيما الحجاز قبل الاسلام بعدة قرون . وللحجاز شأن خاص في ذلك ، ففي الجاهلية الثانية تمدن العرب في جنوبي جزيرة العرب وفي شمالها وظل اهل الحجاز في اواسطها على بدائتهم ، لجذب ارضها وجفاف تربتها مع بعدها عن الاحتكاك بالدول المتحضرة ، لتوسطها في الصحراء ووعورة المسالك اليها . حتى امتنعت على الفاتحين العظام مثل رعمسيس الثاني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، والاسكندر الاكبر في القرن الرابع قبله . وايلينوس غالوس على عهد يوليوس قيصر في القرن الاول للميلاد . وامتنعت ايضا على ملوك الفرس في ابان دولتهم فال امتناعهم هذا الى اطمئنانهم وسكونهم . والانسان لا ينزع الى الاصلاح الا مضطرا بخطر او نحوه . ولكنه مفطور على الاثرة والمنافسة ، فقامت المنازعات بين العرب انفسهم واصبحت مصادر الارتزاق فيها الغزو والنهب . فشغلهم ذلك عن الالتفات الى المصادر الاخرى

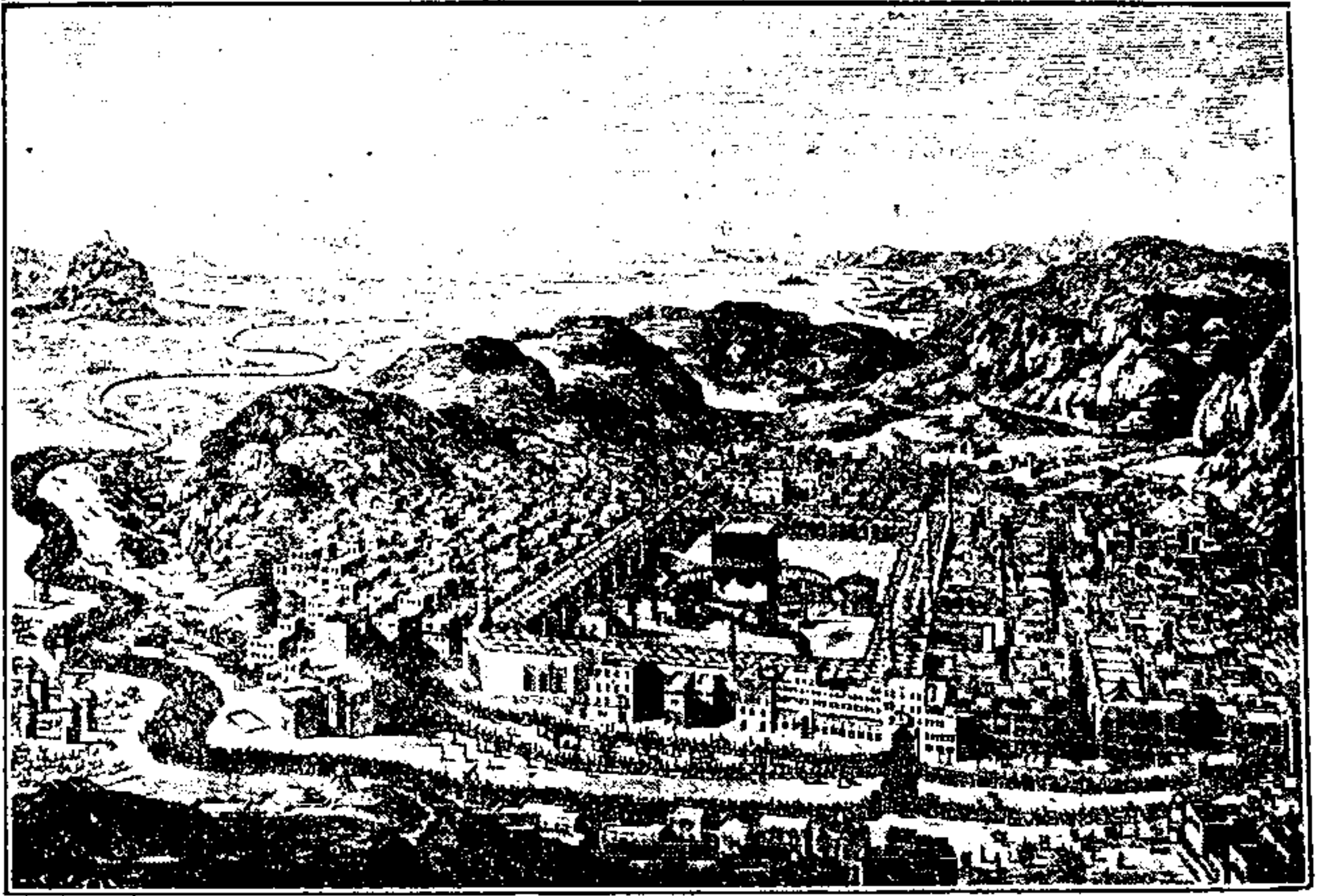
على انهم كانوا على جاهليتهم اهل انفة وذمام وكرم ووفاء ، مما يدل على استعدادهم لمستقبل عظيم

قضى اهل الحجاز في جاهليتهم الثانية قرونا لا يعلم مقدارها الا الله وهم في حال البداوة ، الا ما اقتبسوه ممن هاجر اليهم من جالية اليمن جيرانهم ، او من لجأ الى بلادهم من اليهود ، وخصوصا في القرون الاخيرة قبل الميلاد والاولى بعده ، فرارا من اضطهاد حكامهم الرومانيين ولاسيما بعد خراب بيت المقدس . وربما هاجر اليهم ايضا قوم من الانباط وهم اهل تمدن كما تقدم ، فجعلوا مكة والمدينة والطائف دار هجرتهم بعد استبداد الرومان بهم . اما اليهود فكانوا يقيمون في يثرب على الاكثر

مكة

وكان لليهود تأثير عظيم على عرب الحجاز من حيث الآداب الدينية وطقوسها ، فاقتبس العرب منهم امورا كثيرة كانوا يجهلون بها ، كالحج والذبايح والزواج

والطلاق والكهانة والاحتفال بالاعياد ونحوها . وعلموهم بعض اقاصيص التوراة وفصولا من التلمود ، ونشروا بينهم كثيرا من تقاليدهم وعاداتهم . وقد يكون بعض تلك الآداب أو الطقوس متسلسلا اليهم مما كان عند اسلافهم في الجاهلية الاولى ، فضلا عن هاجر الى الحجاز من اهل اليمن وغيرهم من الامم التي كانت تحيط بجزيرة العرب : كالكلدان والمصريين والاحباش وغيرهم ، فأصبح اهل الحجاز بعد ذلك الاختلاط فئتين : اهل البادية الباقين على الفطرة وهم العرب الرحل . واهل المدن المقيمين في مكة والطائف والمدينة وهم الحضرة



مكة ومسجدها وفي وسطه الكعبة في القرن الثامن عشر للميلاد

وكانت مكة اشهر مدن الحجاز لاتخاذها محججا يؤمه الناس من اقاصى البلاد لزيارة الكعبة . فأصبحت بتوالى الاجيال مركزا للتجارة لمن يتوافد اليها من الحجاج في المواسم كل عام . فطمحت اليها انظار اهل السلطة من القبائل القوية . وكانت في اوائل ازمانها في حوزة الحجازيين بنى اسماعيل وهم سدنة الكعبة اى حجابها . ثم نزع اليها بنو خزاعة من اليمن بعد سيل العرم نحو القرن الثانى للميلاد وتسلطوا عليها ، وغلبوا الحجازيين عليها بما تعودوه من السيادة في عهد دولتهم باليمن . وكان الاسماعيليون (او العدنانيون) يومئذ ضعافا لا يقوون عليهم ، ولكن ناموس الاجتماع قضى عليهم كما قضى على سواهم فدارت الدائرة بعد عدة اجيال على بنى خزاعة وضعف أمرهم ، وقوى أمر العدنانية . ففرع منهم كنانة وتشعب من كنانة قريش

قصی بن کلاب والکعبة

ففي نحو القرن الخامس للميلاد كان سيد قريش ورئيسها قصي بن كلاب ابن مرة ، وكان حكيما عاقلا ذا سياسة ودهاء . فتزوج ابنة ولي الكعبة (وهو من خزاعة) طمعا في السدانة . فولد له اولاد اعتز بهم واشتغل بالتجارة حتى صار غنيا . ولما اقترب اجل حميه اوصى بسدانة الكعبة لابنته زوجة قصي فاعتذرت بأنها لا تستطيع فتح الباب واغلاقه - وهو عمل سادن البيت عندهم - فأوصى بالولاية لابن له اسمه المحترش أو أبو غبشان ، وكان ضعيفا فابتاع قصي ذلك المنصب منه بزق من الخمر (١) (*)

فشق ذلك على خزاعة ، وحدثت بسببه حروب بينهم وبين قريش ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم ، فحكموا بينهم رجلا من قريش فقصى لقصي . وما زالت سدانة الكعبة في قريش حتى جاء الاسلام

وكانت سدانة الكعبة تستلزم السيادة على مكة ، فجمع قصي اهله من قريش في مكة ، وحولها فملكوه عليهم . فقسم مكة ارباعا بينهم . فبنوا المساكن وعمرت بهم وأصبح هو سيدهم في كل شيء . وخلفه بعده ابنه عبد مناف . وكان في جملة اولاد عبد مناف ولدان : هاشم ، وعبد شمس . فلما دنت وفاة عبد مناف اوصى بالسدانة لهما ثم انفرد بها هاشم . وكان لعبد شمس ابن اسمه أمية (جد بني أمية) حسد عمه على الرئاسة ، قال ذلك الى المنافرة . فكره هاشم أن ينافر ابن أخيه فلم تتركه قريش حتى نافرته على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشرين سنة . فرضى أمية وجعلا الكاهن الخزاعي حكما بينهما . فاستفتياه فقضى لهاشم بالغلبة فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعمها وغاب أمية عن مكة بالشام عشرين سنة على حسب الشرط . وكانت تلك اول عداوة وقعت بين هاشم وأميه وتوارثها اعقابهما الى ايام الاسلام . وتولى الكعبة بعد هاشم ابنه عبد المطلب جد النبي صاحب الشريعة الاسلامية

وكانت منزلة قريش من سائر قبائل العرب مثل منزلة اللاويين من بني اسرائيل . ولهم مثل امتيازاتهم ، وهي تشبه امتيازات الكهنة في النصرانية .

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٩

(*) وهذه هي رواية ابن هشام نقلها عن الكلبي وابن اسحاق ومن تابعهما من اصحاب الروايات الاولى ، والغالب أنها أسطورة . والراجع ما يذهب اليه الازرقى في بعض رواياته من أن قصيا لم يسيطر على الكعبة ومكة الا بعد حروب طويلة مع خزاعة . انظر : ابن هشام : السيرة ، طبعة فستنفلد ص ٧٥ - ٨٤ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ١ كراسة ١ ص ٢٦ - ٤٢ ، الازرقى : تاريخ مكة ، طبعة فستنفلد ج ١ ص ٦٠ - ٦٦

وكانوا لا يؤدون أتاوة ولا يتكلفون دفاعا . . يحكمون على الناس ولا يحكم عليهم احد . . وكانوا يتزوجون من أية قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم في ذلك ، وكانوا لا يزوجون أحدا الا اشترطوا عليه أن يكون متحمسا لدينهم - « التحمس (*) التشدد في الدين » - (١) وقد فرضوا فروضا ألزموا الناس باتباعها

(*) التحمس مذهب من مذاهب قريش في دينها قبل الاسلام . ويقال لصاحب هذا المذهب احمس وجمعه حمس ، والاحمس هو الشجاع ، ولكن المراد به هنا المتشدد في دينه والمتقشف في حياته . وكان غالب بنى هاشم حمسا ، وقد وصف ياقوت الحموي مذهب الحمس بقوله : « وكان من سنة الحمس الا يخرجوا ايام الموسم الى عرفات ، انما يقفون بالمزدلفة ، وكانوا لا يشتكون ولا ياقطون ، ولا يرتبطون عنزا ولا بقرة ، ولا يفرلون صوفا ولا وبراً ، ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدر ، وانما يكتنون بالقباب الحمر في الاشهر الحرم »
ياقوت : معجم البلدان ، طبعة نستنفلد ، ج ٤ ص ٦٢٠ - ٦٢١

(١) معجم البلدان ، ص ٦٢٠ ج ٤

حكومة العرب في الجاهلية

ونريد بالعرب خاصة عرب الحجاز وبالاخص قريش ، لان منها ظهر النبي محمد (صلعم)

والحكومة في الجاهلية متشابهة عند سائر اهل البادية . فان المناصب التي تعد عند اهل العالم المتمدن بالعشرات ، تجتمع عندهم في شخص شيخ القبيلة . فالشيخ هو الملك ، والقاضي ، وصاحب بيت المال ، وقائد الجند وكل شيء (*) . وكانوا يختارون لهذه الرياسة اقواهم عقلا واكثرهم دهاء وسياسة بلا تراطؤ أو تعمد . واذا تساوى عدة منهم في القوة والدهاء اختاروا اكبرهم سنا واوسعهم جاها . واذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعا ، اقرعوا بين اهل الرئاسة ، فمن خرج سهمه رأسوه ، كبيرا كان أو صغيرا

ذلك كان شأن العرب الرحل اهل الغزو والسطو . أما الحضرة وهم اهل مكة فقد كانت السيادة فيهم لسادن الكعبة . ولما افضت السدانة الى قريش ، صارت السيادة لهم في كل شيء

الكعبة والتجارة وقريش

كانت قريش كما قدمنا حضرا اهل تجارة ، وتجارتهم قائم اكثرها على الحجاج الذين يردون مكة في المواسم . فكان من مقتضيات مصلحتهم تسهيل طرق القدوم وترغيب الناس في الحج . وفي جملة ما بعث القبائل على زيارة الكعبة ، انه كان لكل قبيلة منها صنم خاص بها ، تأتي في المواسم لزيارته والذبح له حتى زاد عدد الاصنام في الكعبة على ثلثمائة صنم وفيها الكبير

(*) لم تعرف قبائل العرب قبل الاسلام الرياسة المطلقة على هذا النحو ، وانما كان في كل قبيلة نفر من « السادة » ومفردهم سيد ، يعترف افراد القبيلة لهم بسُلطان ادبي ويوقرون آراءهم ، وكان اعظم اولئك السادة عادة يعتبر سيد القوم وواجباته كثيرة ولكنها ليست محددة ، فهو يمثل القبيلة ويحمل ديوات من يعجز عن دفع الدية من افرادها ، ويطعم الضيفان وما الى ذلك ، فاذا دخلت القبيلة في خصومة اصبحت سيادته رياسة حقيقية ، فيقوم القبيلة في الحرب ويقوم بتمثيلها امام الخصوم وينظم القتال. هذا بالنسبة للقبائل الطائفة، اما في مكة ، فقد اخذت السيادة معنى حقيقيا بسبب الاستقرار وانتظام امور الجماعة ووجود الكعبة وضرورة وجود من يتولى شئونها ، ومن هنا كان تنافس القبائل وشيوخها على سدانة الكعبة حتى انتهت اخيرا الى قريش ، على يد سيدها قصي بن كلاب . ومع ذلك فان قريشا لم تنفرد بسيادة مكة ، بل شاركتها فيها القبائل الاخرى وتقاسمت معها الوظائف كما سيتضح فيما بعد من كلام جرجي زيدان نفسه

انظر : محمد بن حبيب السكري النسابة : المحبر ، ص ١٢٩ - ١٢٧

والصغير ، ومنها ماهو على هيئة الادميين أو على هيئة بعض الحيوانات
أو النباتات

سوق عكاظ

وكان على مقربة من الطائف سوق يجتمع اليها الناس في الاشهر الحرم ،
فينصبون خيامهم بين نخيله ، يبيعون ويشترون ويتبادلون . وهى سوق
عكاظ المشهورة . وكان للعرب أسواق أخرى في أماكن أخرى . ولكن هذه
كان يجتمع فيها أهل البلد المجاور لها . . واما عكاظ فكان يتوافد اليها العرب
من كل جهة . وزادت قريش في بواغث الاجتماع اليها بأنهم جعلوها مسرحا
للأدب والشعر ، تتسابق فيه القبائل الى اظهار نوابغها من الشعراء والخطباء ،
نيتناشدون ويتحاجون ويتفاخرون . ومن كان له أسير سعى في فدائه . وكان
لعكاظ في أيام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل في ماقد يقع من الخلاف أو
نحوه . وكان الغالب أن يكون ذلك الحاكم من بنى تميم . ومتى فرغ الناس من
سوق عكاظ ، وقفوا في عرفة ، ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويرجعون
الى مواطنهم

وكان رجال قريش يرحلون للتجارة رحلتين في العام : رحلة الشتاء الى اليمن ،
ورحلة الصيف الى بصرى في حوران بضواحي الشام . فكانت مكة واسطة عقد
التجارة ، بين اليمن والشام . وكانت طرق التجارة خطرة ، الا عليهم لحفظ
العرب حرمتهم لانهم ولاية الكعبة . وكانوا كثيرا ما يسافرون الى بلاد فارس
أو الى الشام ، فيأتون من الشام بالانسجة والاطعمة ، ويحملون من فارس
السكر والشمع وغيرهما

فالكعبة كانت مصدر رزق أهل مكة ، ولولاها لما استطاعوا المقام في ذلك
الوادي وهو غير ذى زرع . على أن أسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدن في
أطراف العراق والشام ، جعلتهم أوسع العرب علما ، وأكثرهم خبرة ودراية .
ونظرا لعلاقة الكعبة بأسباب معائشهم بذلوا العناية في القيام على شؤونها ،
وسهلوا على الناس القدوم اليها ، فأنشأوا فيها أماكن للسقاية وأخرى للطعام
وجعلوا ما يجاورها حرما لايجوز فيه القتال ، وتولى بعضهم السقاية وبعضهم
الرفادة وبعضهم غير ذلك . وما زالت تلك المناصب تتعدد حتى أصبحت
قبيل الاسلام بضعة عشر منصبا ، هي عبارة عن مناصب الدولة في ذلك العهد
اقتسمتها قريش في بطونها ، وأشهرها عشرة أبطن : هاشم وأمية ونوفل
وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم . لكل من هذه البطون
منصب أو أكثر ، واليك هي :

مناصب القرشيين

١ - السدانة : وهى الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة ويده مفتاحها . يفتح

بابها للناس ويقفله ، ولها المقام الاول عندهم . ومثل هذا المنصب قديم عند اليهود فقد كان عندهم كاهن خاص لحراسة الهيكل يسمونه حافظ الباب . وقد جعل صاحب « العقد الفريد » السدانة والحجابة منصبتين

٢ - السقاية : وصاحبها يتولى سقاء الحجاج لقلّة الماء في مكة فينشئ حياضا من الجلد ، توضع في فناء الكعبة تنقل اليها المياه العذبة من الآبار على الابل في المزارد والقرب . وما زال ذلك شأنهم حتى حفرت زمزم . وكانت السقاية في بنى هاشم

٣ - الرفادة : وهي خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من أموالها الى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاما يأكله الفقراء . واول من اشار بالرفادة قصي المتقدم ذكره . وكانت الرفادة في بنى نوفل ثم في بنى هاشم

٤ - الراية : كانت لقريش راية تسمى « العقاب » فكانوا اذا ارادوا الحرب أخرجوها ، فاذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه اياها والا فانهم يسلمونها الى صاحبها وكانت الراية لبنى عبد الدار

٥ - القيادة : وهي امارة الركب ، وصاحبها يسير امام الركب في خروجهم للقتال او التجارة . وكانت القيادة في بنى امية ، وصاحبها منهم في اول الاسلام ابو سفيان والد معاوية (*)

٦ - الاشناق : وهي الديات والمغرم وصاحبها اذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه فيه . وكانت لميم

٧ - القبة : هي قبة كانوا اذا خرجوا الى حرب ضربوها وجمعوا فيها ما يجهزون الجيش به ، أشبه بما يسمى عندنا بالمهمات الحربية

٨ - الاعنة : وهي اعنة الخيل وصاحب هذا المنصب يتولى خيل قريش ويدبر شؤونها في الحرب

٩ - الندوة : وهي دار بناها قصي بجانب الكعبة للشورى فيجتمع فيها كبار قريش للمشاورة ، ولا يدخلها الا من بلغ الاربعين من عمره . وكان لا يتزوج

(*) وقد استمرت قيادة قريش في بنى عبد الدار بعد مجيء الاسلام حتى فتح مكة ، فقد قادها في موقعة بدر عقبة بن ربيعة ، وقادها في أحد والخندق ابو سفيان بن امية اما الاعنة فهي قيادة الفرسان من المقاتلين

والحكومة جزء من القضاء ، ولكنها كانت فيما يتصل بالحروب محاولة فض المنازعات قبل القتال . وكان الغالب ان يتولاها من قريش رجل من بنى سهم اما الاشناق فتقدير الخسائر بعد الحروب وتقرير ما يتطلبه انهاؤها من دفع ديات وتعويضات ، وهي وظيفة فنية تحتاج الى معرفة وخبرة كما هو واضح

انظر : ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج ٢ ص ٢٠٢

ابن الاثير : اسد الغابة . ج ٣ ص ٢٠٦

محمد بن حبيب السكري : المحبر ، ص ١٢٢ - ١٢٣

الازرقى : تاريخ مكة ، ج ١ ص ١٠١

المسعودى : ج ٢ ص ٥٨

رجل ولا امرأة الا في تلك الدار ، ولا يعقد لواء الحرب الا فيها ولا تدرع (*) جارية من قريش الا فيها فيشق صاحب الدار درعها ويدرعها بيده . وكانوا يفعلون ذلك في بناتهم اذا بلغن الحلم . وكانت دار النسوة في ايدي بنى عبد الدار (**)

١ - المشورة : وصاحبها يستشار في الامور الهامة ، وكانت في بنى اسد . فلم تكن قريش يجتمعون على امر حتى يعرضوه عليهم

١١ - السفارة : هي انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب ، وارادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيرا . وان نافرهم حتى لمفاخرة جعلوا السفير منافرا ورضوا به . وكان آخر سفراء قريش في الجاهلية عمر ابن الخطاب قبل ان يسلم

١٢ - الايسار : وهي الازلام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة ونحوها اذا هموا بأمر عام من سفر او قتال ، فكانوا يستقسمون بالازلام بما يشبه سحب القرعة عندنا ، وكان يتولى ذلك رجل من بنى جمح

١٣ - الحكومة : وهي عندهم الفصل بين الناس اذا اختلفوا ، وتشبه القضاء في الاسلام او التحكيم (***)

١٤ - الاموال المحجرة : وهي اموال كانوا يسمونها لآلهتهم ، وفيها النقد والحلى وربما اشبهت بيت المال . وكانت ولايتها في بنى سهم

١٥ - العمارة : ويراد بها ان لا يتكلم احد في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته (١) (****)

فترى مما تقدم ان بعض هذه المناصب لا اهمية لها على الاطلاق . ولكن يظهر انهم اكثرها ليرضوا كل بطون قريش ، خوفا من التحاسد واجلالا . لقدرك الكعبة والمبالغة في تعظيمها

وترى ايضا انهم جمعوا بها بين السياسة والدين والادارة والحرب ، ولكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية ، او هو نوع من الحكومة

(*) درع الجارية قميصها

(**) اللواء والقيادة والاشناق من الوظائف المتعلقة بالحرب في المجتمع المكي قبل الاسلام ، ويضاف اليها وظائف اخرى هي الاعنة والحكومة والقبلة والسفارة مصعب الزبيري : نسب قريش (ط . بروفسال) ص ٥٢ : ٢٥١

(***) لم يعرف المجتمع المكي نظام القضاء ، ولم يكن هناك شخص واحد يحتكمون اليه ، وكان الغالب ان يقوم بالفصل في المنازعات التي تقع بين افراد القبيلة الواحدة رئيس العشيرة ، اما اذا كان الخلاف بين افراد من قبائل متعددة ، فكانوا يلجأون الى الهاتف او العايف او الاستقسام بالانصاب

انظر : صالح احمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب (بغداد ١٩٥٥) ج ١ ص ٦٠٦
(١) العقد الفريد ٢٨ ج ١ (****) وهذه الوظيفة نستطيع ان نصف صاحبها بأنه المحافظ على حرمة الحرم

لا ترى له شبيها بين الامم المتعدنة ، وربما اشبهت الحكومة الشورية من بعض الوجوه ، الا ان للشورى رئيسا كالملك او السلطان او رئيس الجمهورية ، وليس في هذه شىء من ذلك الا ما قد يكون لصاحب دار الندوة او السدانة من الرياسة

النهضة العربية قبل الاسلام

اذا تدبرت تاريخ العرب قبل الاسلام على غموضه وابهامه ، تبين لك امور تدعو الى الاعتبار واعمال الفكرة . منها ان العرب على اختلاف القبائل والبطون ، قلما نبغ فيهم شاعر او خطيب او حكيم او كاهن في عصورهم الجاهلية الثانية الا بعد دخولهم في القرن الاول قبل الهجرة . ولا يعترض بضياع اخبار من ظهر منهم قبل ذلك التاريخ ، فقد حفظوا اخبار عاد وثمود وصالح وهود قبل ذلك بقرون متطاولة ، وذكروا بضعة شعراء ظهوروا قبل القرن الاول المذكور . فلو نبغ غيرهم من الشعراء او الخطباء لما ضاع ذكرهم ضياعا تاما . واما تاريخهم في جاهليتهم الاولى وهم في بابل او اليمن ، فلم يصلنا منه ما يشفى الغليل

فتكاثرت الشعراء والخطباء والحكماء في القرن الاول قبل الاسلام دفعة واحدة هو ما عبرنا عنه بالنهضة العربية او الادبية . على انها لم تكن تقتصر على الادب والشعر ولكنها شملت الدين ايضا . فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الافكار واختلطت الاعتقادات ، واصبح اهل الجاهلية لا يعرفون لمن يصلون ولا الى من يتوسلون . يذبح احدهم للصنم ويدعو الى الله . وفيهم عبدة الحجارة وعبدة النار وعبدة الاصنام . وفيهم الموحدون والمشركون وغير ذلك من انواع العبادات المتضاربة . وظهر في اثناء ذلك الاضطراب من حرم الخمر ورفض الاصنام . واصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة . وكان ذلك حديث الناس في مجالسهم . فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة وهم بعضهم بادعائها مما يدل على تنبسه الازدهان الى امر الدين والتفكير في عواقب الاعمال

سبب تلك النهضة

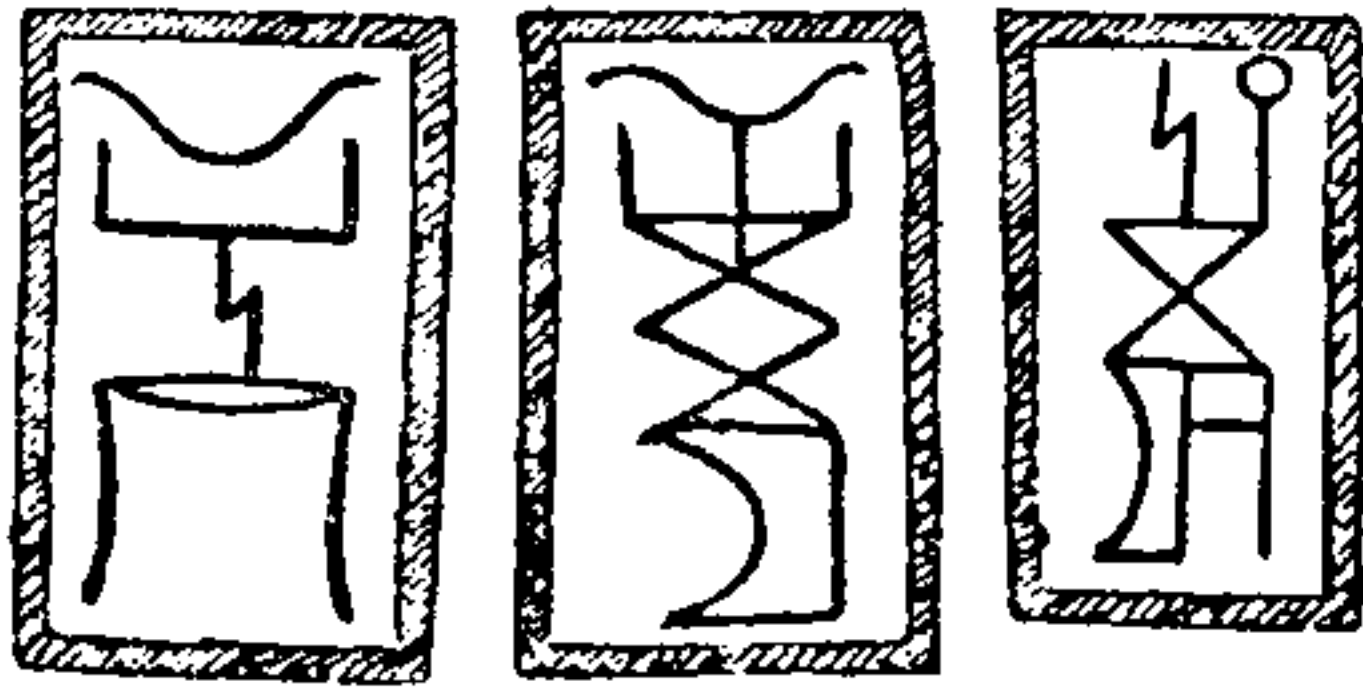
بينما في ما تقدم استعداد العرب العدنانية للنهوض واهليتهم للتمدن ، لما فطروا عليه من صفاء الذهن وسرعة الخاطر ، ولكنهم لم يكونوا يستخدمون تلك القوى لاشتغالهم بالغزو وقعودهم عن طلب العلى مع بعدهم عن العالم المتمدن . والانسان تظهر قواه بالاحتكاك او الضغط شأن القوى الطبيعية . فالفرد لا يسعى في طلب العلى غالبا الا اذا عضه الفقر فأحوجه الرزق او نافسه منافس في امر يبعث الى الاستثثار به

أما الأمم فأنما يدعوها إلى طلب العلى الحروب الخارجية أو الثورات الداخلية . والأولى أكثر تأثيراً لما يرافقها غالباً من الاختلاط بالأمم الأخرى . وفي ذلك من الاحتكاك ما يدعو إلى الاقتباس والمنافسة . وفي التاريخ شواهد كثيرة على ذلك

غزو الحبشة

ومن هذا القبيل ما أصاب العرب في القرنين الأخيرين قبل الإسلام . كان عرب الحجاز قبل الإسلام يدينون بالطاعة لدولة حمير اليمنية ، وكانوا يؤدون لها الاتاوة . ثم غزا الأحباش اليمن في القرن الرابع للميلاد وبعده ، وتغلبوا على الحميريين فقلت هيبتهم في قلوب العدنانيين

لكن هؤلاء ظلوا على الطاعة بعامل الاستمرار ، فاتفق أن الحميريين شددوا في طلب الاتاوة في سنة جذب وضيق فضايق العدنانيون ذرعا وتحذثوا في الخروج عن الطاعة . وأول من فعل ذلك قبيلة ربيعة في أواخر القرن المذكور واقتدى بها غيرها (١) فكان ذلك من بواعث استنهاض الهمم



خرطوش بحرف المسند فيه أسماء أبرهة واراحميس وزبيمان من قواد الأحباش في اليمن

ثم غزا الأحباش الحجاز في أواسط القرن السادس للميلاد ، يريدون فتح مكة والاستيلاء على الكعبة . وكانت سدانتها يومئذ إلى عبد المطلب جد النبي فجاء الأحباش بأفيالهم ورجالهم وعدتهم ، وأهل مكة لم يتعودوا شيئاً من ذلك لما للكعبة من المنزلة الرفيعة في نفوس القبائل وغيرهم ، فلما رأوا الأحباش قادمين شعروا بما يهددهم من الخطر ، وأحسوا بافتقارهم إلى الاتحاد لدفع الأجانب عنهم ، فدفعوا الأحباش وقد تنبعت أذهانهم وأخذت مواهبهم في الظهور

ومما يدل على شدة تأثير ذلك الهجوم في نفوسهم أنهم جعلوا يؤرخون به وهو ما يسمونه عام الفيل ، وكانوا قبل ذلك يؤرخون بموت الوليد بن المغيرة من مخزوم، أو هشام بن المغيرة (٢) . ولم يقتصر تأثير ذلك الاحتكاك على تلك النهضة

(١) العرب قبل الإسلام ٢٢٢ ج ١ (٢) الأغانى ١١ ج ١٥

الادبية او الدينية ، لكنها أنتجت رجلا نبغوا في السياسة والقيادة والادارة
وكانوا من أهم العوامل تأثيرا في سرعة انتشار الاسلام ، كما أنتجت الثورة
الفرنسية بونابرت ورجاله

ومهما يكن من السبب فان بلاد العرب كانت قبل الاسلام في نهضة ادبية
دينية تمهيدا لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتها . ومثل هذه النهضة
تتقدم الدعوات الدينية في الغالب استعدادا لقبولها (*)

«

(*) لا شك ان عرب الحجاز كانوا عندما جاءت البعثة المحمدية - في حالة عقلية تمكنهم من
قبولها ، وقد وصف نفر من المستشرقين - على رأسهم راينهارد دوزي - وصول العرب الى
هذه الحالة بأنه نهضة فكرية كان الاسلام نتيجة لها . ذلك افتعال ومحاولة للتقليل من قيمة
الرسالة الاسلامية ، خاصة اذا عرفنا ان دوزي نفسه يذهب الى ان الاسلام اوقف التطور
الطبيعي لهذه النهضة ! والحقيقة ان وصول عرب الحجاز الى هذه الحالة كان تطورا طبيعيا
ساعدت عليه العوامل التي اشار اليها هنا جرجي زيدان وذكرها بالتفصيل في كتابه الفصل
عن تاريخ العرب قبل الاسلام

انظر : R. Dozy. Essai sur l'Islamisme

الدولة الإسلامية.. كيف نشأت؟

فرغنا من المقدمات التمهيديّة في حال بلاد العرب قبل الإسلام ، فنتقدم بعد ذلك الى الكلام في نشوء الدولة الإسلامية وكيف تكونت وتطورت ، حتى صارت على ما عرفناه منها في اوج التمدن الإسلامي

الدعوة الإسلامية

نشأة النبي الاول

تلك كانت حالة العرب في الحجاز لما ظهر النبي صاحب الشريعة الإسلامية ودعا الناس الى التوحيد واظهر دعوته سنة ٦٠٩ للميلاد وعمره أربعون سنة، ولا يتسع المقام لتفصيل سيرته ، وانما نذكر هنا ما يتعلق بالموضوع لبيان الاسباب التي رافقت ظهور الدعوة وساعدت على انتشارها

ولد صاحب الدعوة الإسلامية وقد مات أبوه ، وبعد ست سنوات ماتت أمه فكفله جده عبد المطلب ، وكانت له السقاية والرفادة من مناصب الكعبة وكان له مقام رفيع في قريش ، لكنه توفي بعد سنتين ، فكفله عمه أبو طالب وكان وجيها محترما ، فشب محمد في بيته كأحد أولاده ، وكان أبو طالب صاحب تجارة مثل سائر قريش ، فكان اذا خرج في تجارة اصطحبه في أسفاره، فاشتهر منذ حداثة بالحصافة والذكاء وصدق السريرة حتى لقبوه بالأمين واشتهر في مكة بهذا اللقب ، فعرفت بأمره خديجة بنت خويلد وكانت ذات ثروة وتجارة فعهدت اليه في الاتجار بمالها فاتجر وربح فازدادت اعجابا به ، فعرضت عليه الزواج بها فتزوجها فاتسعت حاله وأصبح من أهل الرخاء واليسار والكل يحبونه ويحترمونه

الدعوة

ولما بلغ الأربعين من عمره مال الى الخلوة والاعتزال عن الناس فأوى الى الجبال والشعاب كما يفعل النساك . وأول ما ابتدئ به « الرؤيا الصالحة » . وفي رمضان من تلك السنة (يناير ٦١١ ميلادية) كان معتزلا بنفسه في غار حراء بجبل النور على ثلاثة أميال من مكة (١) ، فنزل عليه الوحي وقرأ عليه أول سورة من سور القرآن ودعاه الى أن يرددها وراءه ، فرددها . وأصابه الروع ، وأسرع الى زوجه خديجة وانبأها بما وقع وقال : - ان الملك امره ان يقول :

(١) ابن الاثير ٢١ ج ٢

« اقرأ باسم ربك الذي خلق » - الآية ، فقراها . وانه خرج الى وسط الجبل فسمع صوتا من السماء يناديه : « يا محمد انت رسول الله وانا جبريل » فذعر واسرع الى خديجة فأخبرها . وكان لها ابن عم اسمه ورقة بن نوفل قرا الكتب ونظر فيها وخالط اهل التوراة والانجيل وسمع اقوالهم ، وكان مشهورا في مكة بسعة العلم في الدين والنبوات ، فذهبت اليه واخبرته بما كان فقال : « والذي نفس ورقة بيده ، لأن صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه نبي هذه الامة »

فرجعت خديجة اليه واخبرته بقول ورقة فاطمان باله ، ولكنه لم ير اظهار دعوته لعلمه بما سيكون لها من ثقل الوطأة على قريش لما فيها من تعيب آلهتهم وتحقير اصنامهم ، وفي ذهاب تلك الاصنام ذهاب تجارتهم واموالهم وكل آمالهم . ولم يكن من الجهة الاخرى يتوقع اذا انبأهم برسالته انهم يصدقونه فعمد الى بث دعوته سرا بين اقرب الناس اليه . قضى في ذلك ثلاث سنين فاجتمع حوله نفر قليلون في جملتهم ابن عمه على بن ابي طالب وكان لا يزال غلاما وابو بكر الصديق وكان من وجهاء قريش وابو عبيدة بن الجراح وغيرهم . فهم بدعوة الناس جهارا وبدأ بعشيرته الاقربين فكلف ابن عمه عليا أن يصنع لهم طعاما يدعو اهله اليه وفيهم عمومته بنو عبد المطلب واولادهم وهم نحو اربعين رجلا . فدعاهم الى بيت ابيه ابي طالب . فلما فرغوا من الطعام هم محمد بالكلام وكان اهله قد سمعوا بدعوته سرا واستخفوا بها ، فلما هم بالكلام علموا انه سيدعوهم الى ترك الاصنام وعبادة الله فابتدره عمه ابو لهب وكان اشداهم وطأة عليه فأسكته فسكك وتفرقوا ولم يقل شيئا

لكنه لم يفشل ولا ضعفت عزيمته فأعاد الوليمة ثانية وقد صمم على التصريح بما في ضميره فلما فرغوا من الطعام قال : « ما اعلم ان انسانا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به ، فقد جئتم بخير الدنيا والآخرة . وقد امرني الله تعالى ان ادعوكم اليه فأيكم يؤازرني في هذا الامر على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ » (٢) فظلوا ساكتين وجل سكوتهم استخفافا . فتقدم على ابن عمه وقال : « انا يا نبي الله اكون وزيرك عليهم » فأخذ النبي برقبته وقال : « هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا » فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : « قد أمرك ان تسمع لابنك وتطيعه » ثم انصرفوا

النبي وقريش

على ان استخفافهم هذا لم يقعه عن عزمه ولا ابعدته عن قومه ، فبدلا من وقوفه عند ذلك الحد تهيبا وحذرا جاهر بسب الاصنام ونسب اهله وآباءهم

(١) ابو الفداء ١١٦ ج ١

الى الكفر والضلال ، فلما علموا بمجاهرته بسب الاصنام اجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمدوا اذاه لكنهم لم يروا سبيلا الى ذلك وهو في كفالة عمه ابي طالب . . فجاءوا عمه وفيهم ابو سيفان فقالوا له : « يا ابا طالب ان ابن اخيك عاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فانه عنا او خل بيننا وبينه » فردهم ابو طالب ردا حسنا ووعدهم خيرا

ثم راوه لا يزال ماضيا في سب آلهتهم فعادوا الى ابي طالب وقد اشتد بهم الغيظ وقالوا له : « ان لم تنه ابن اخيك والا نازلناك واياه حتى يهلك احد الفريقين » فعظم ذلك على ابي طالب وادرك عاقبة الامر فلما عادوا من عنده قال لابن اخيه : « يا ابن اخي ان قومك قالوا كذا وكذا » فظن ان عمه يخذله فشق عليه ذلك وقال : « يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الامر » وبكى وهم بالانصراف فناداه عمه وقال له : « قل ما احببت ، فوالله لا اسلمك ابدا » (*)

وكانت دعوته في اثناء ذلك تذيب على مهل ، وقد اسلم جماعة من خيرة الناس كان لهم شأن عظيم في التاريخ الاسلامي منهم ابو بكر الصديق وعثمان ابن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وحمزة بن عبد المطلب (عمه) وعمر بن الخطاب . وكان لاسلام هذين الاخرين وقع حسن عند النبي لانهما كانا من اهل الوجاهة والقوة

اما سائر اعمامه واهله فلما يسوا من وساطة عمه ابي طالب ، راوا ان يحتالوا في استرضائه بالحسنى ، فبعثوا اليه وقد اجتمع كبارهم في ندوة . . فجاء فاستقبلوه بالترحاب وقالوا له : « يا محمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا والله لا نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه مثل ما ادخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما بقى امر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا . وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا . وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذي يأتيك رثيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك اموالنا في طلب الطلب ، حتى نبرئك منه او نعذر فيك »

فقال لهم : « ما بي ما تقولون وما جئت بما جئتمكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وانزل على كتابا وامرني ان اكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فان

(*) يتابع المؤلف هنا رواية ابي الفدا ، ويستطيع القارئ ان يراجع سيرة النبي لابن اسحاق برواية ابن هشام فهي اكثر تفصيلا ، انظر ج ١ ص ٢٨٠ وما بعدها ، طبعة مصطفى السقا وابراهيم الابيارى ومبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ١٩٣٦

تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه على اصبر
لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم « (*)

فلما لم يروا سبيلا اليه جعلوا يعذبون الذين اسلموا وصدقوا دعوته
والمسلمون صابرون على ذلك العذاب . حتى اذا اشتد اذى قريش لهم وضاقوا
ذرعا عن تحمل ما كانوا يسومونهم من سوء العذاب والاهانة ، اشار النبي على
الذين ليس لهم عشيرة تحميهم ان يخرجوا من مكة الى ارض الحبشة .
فهاجروا اليها تباعا فبلغ عدد المهاجرين ٨٣ رجلا ماعدا النساء والاولاد ، وهي
الهجرة الاولى . ولا يخفى ما تقتضيه الاسفار من مكة الى الحبشة من المشقة
لما في ذلك من ركوب البحر وخصوصا في تلك الازمان مع ما حملوه معهم من
النساء والاطفال . فيدل ذلك على ما كان عليه هؤلاء من الاعتقاد المتين بالاسلام
ويليق بنا الوقوف هنيهة في هذا المقام لابداء ما ارتسم في مخيلتنا من امر
هذه الدعوة على اثر مطالعتنا الطويلة في تاريخها فنقول :

هل كان يعتقد صدق رسالته ؟

زعم بعض الكتاب من غير المسلمين ان صاحب الشريعة الاسلامية انما قام
بهذه الدعوة طمعا في السيادة ورغبة في ملاذ الدنيا

واما نحن فلا نرى مسوغا لهذا القول وتاريخ الدعوة يدل دلالة صريحة
على انه انما قام بها عن صدق واخلاص . فلم يدع الناس الى الاسلام الا وهو
يعتقد اعتقادا متينا بصحة رسالته وان الله ارسله لبيث تلك الدعوة . ولولا
هذا الاعتقاد لم يصبر على ما ناله من الاضطهاد وضروب العذاب . وقد رايت
انه كان قبل ظهوره بالدعوة موضع احترام اهل مكة كافة ، واهله يحبونه
ويكرمونه وهو في عيش هنيء لما اكتسبه من اسباب اليسار بزواجه بخديجة
واتجاره بأموالها ، فأصبح بعد ظهوره بالدعوة وقد ناصبه اهل مكة العدا
وساموه انواع العذاب واهانوه . حتى تقموا على بنى هاشم لانهم اهله فتعاقدوا
ان لا يناكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة او دعواها في جوف الكعبة (***) .
فاضطر بنو هاشم ان ينفروا الى الجبال فأقاموا في الشعب ثلاث سنين
لا ينزلون مكة الا خفية - الا من جاهر منهم بعداوته للمسلمين كأبي لهب ونحوه
ولا يعترض على ما تقدم بأنه لم يثبت الا لاحتمائه بعمه ابي طالب ، لاننا
رايناه بعد وفاة عمه اكثر ثباتا منه في حياته ، مع ان الناس اصبحوا اكثر
اضطهادا له مما كانوا قبل وفاته ، وخصوصا بعد وفاة خديجة وقد ماتا قبل
الهجرة بثلاث سنين ، فتتابعت بموتهما المصائب عليه ، واستبدت به قريش

(*) ابن اسحاق : سيرة النبي ، ابن هشام ، ج ١ ص ٣١٥ - ٣١٦

(**) انظر ابن اسحاق : سيرة النبي ، برواية ابن هشام ، ج ١ ص ٣٧٥ وما بعدها

ولا سيما عمه أبو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن أبي معيط لانهم كانوا جيرانه بمنزله ، فكانوا يلقون الاقذار في طعامه ، ويرمون به وقت صلاته

حتى اذا لم يعد يستطيع صبرا على هذا الضيم لجأ الى الطائف لعله يلقى فيها من ينصره ويؤمن بدعوته . فلم يلق الا الاعراض والاذى ، فعاد وقد يئس منهم لكنه لم يرجع عن حرف من دعوته . ولم يكتف اهل الطائف باعراضهم عنه بل أغروا بعض سفهائهم وعبيدهم أن يسبوه ويصيحوا به ففعلوا حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى الحائط (*) وردوا السفهاء عنه فرجعوا ، فأحس عندئذ بما هو فيه من ضيق فشكا أمره الى الله ، وعاد الى مكة ولم يغير ذلك شيئا من عزيمته ، فلقى قومه هناك وهم أشد وطأة عليه مما كانوا من قبل

فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبتهم وبعيدهم مع علمه انه اذا رجع عن دعوته لقي منهم ترحابا واکراما كما صرحوا له جهارا ، لكنه لم يكثر لشيء من ذلك ولا أهمه أمر الدنيا

فلولا اعتقاده المتين بصدق الدعوة التي قام بها وانه منتدب لهذه الرسالة من الله سبحانه وتعالى لما صبر على ذلك كله

اهل المدينة والدعوة

ولما يئس من أهله ومواطنيه جعل يعرض نفسه على القبائل في أيام الحج لعله يلقى فيهم من يصفى اليه وأهله يعترضونه ويقفون في سبيله ، وخصوصا عمه أبو لهب فانه كان اذا رآه في جماعة يخاطبهم في شأن الاسلام اعترضه وقال للناس : « انما يدعوكم ان تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » . ولكن ذلك لم يقعه عن دعوة الناس ومازال يعرض نفسه عليهم في المواسم ، حتى بايعه نفر من أهل يثرب كانوا وسيلة لنشر الاسلام في تلك المدينة في برهة قصيرة

ولعل السبب في سرعة انتشار الاسلام هناك كثرة من في المدينة من اليهود وهم اهل كتاب يعتقدون الوحي ويدركون معنى النبوة . وليس فيهم من يخاف على تجارته اذا بطلت عبادة الاصنام . بل هم يفضلون ابطالها لتسقط مكة وتنهض مدينتهم وخصوصا اذا هاجر اليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزا للدين الجديد يحج اليها الناس بدلا من حجهم الى مكة . واليهود كما لا يخفى اهل نظر في التجارة وأصحاب فراسة في ابواب الكسب . ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة والتحاسد لتباعدهما في الانساب،

(*) البستان أو الحديقة . انظر ابن اسحاق : سيرة النبي برواية ابن هشام، ج ٢ ص ٦١

لان اهل مكة من العدنانية واهل المدينة من القحطانية عرب اليمن ، فنشطه اهل يثرب ودعوه اليهم على ان ينصروه ، فهاجر اليهم سنة ٦٢٢ للميلاد . وهاجر معه من بايعه من قبيلته وهم « المهاجرون » تميزا لهم عن الفئة الاخرى من الصحابة وهم « الانصار » اهل يثرب ، سموا بذلك لانهم نصروا النبي في مدينتهم ، وبهذه الهجرة يؤرخ المسلمون وقائعهم الى الآن، وقد سميت يثرب - عندما عم الاسلام اهلها - بمدينة النبي ، ثم اختصر الى المدينة ، ولزمها هذا الاسم الى الآن

ولقى المسلمون في المدينة ترحابا عظيما فاشتد ازهرهم وتحولوا الى محاربة اهل مكة ، فجعلوا يناوئونهم في اثناء مرورهم بتجاراتهم بين الشام ومكة وفي اماكن اخرى ، ووقعت بين الجانبين وقائع كثيرة هي الغزوات المشهورة . اعظمها غزوة بدر الكبرى التي انتصر المسلمون فيها وكانت فاتحة انتصاراتهم في الغزوات الاخرى ، حتى اخضعوا جزيرة العرب كلها وفتحوا مكة واسلم القرشيون كافة ، فوجه النبي التفاته الى العالم الخارجى وخاطب الملوك يدعوهم الى الاسلام كما سيأتى

الروم والفرس

عند ظهور الاسلام

الروم

تأسست رومية (روما) سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وقامت معها الدولة الرومانية ، وظلت رومية كرسى تلك الدولة عشرة قرون ونصف قرن ، وقد فتحت العالم المعمور يومئذ كله . وفي مايو سنة ٣٣٠ أصبح انقسام الدولة الرومانية الى قسمين ، شرقى وغربى ، حقيقة واقعة بعد ان كان مجرد تقسيم ادارى منذ سنة ٢٩٥ ميلادية . ذلك ان قسطنطين اتفق مع زميله ليسينيوس على اقتسام الدولة ، وتولى هو القسم الشرقى واتخذ بيزانطيوم عاصمة له ، وسماها القسطنطينية ، وهى لها كل مقومات العواصم الرومانية ، حتى لقد نقل اليها اعدادا من سكان روما وأعضاء مجلس الشيوخ

وبعد وفاته سنة ٣٣٧ م اختلف اولاده الثلاثة ، ثم انفرد بالامر أحدهم وهو قسطنطيوس ، ولكنه لم يستطع الاستمرار ، وصار الامر الى واحد منهم توفى سنة ٣٦٠ م ، فخلفه يوليان ثم جوفيان سنة ٣٦٤ م ، ثم توفى هذا بعد بضعة أشهر ، فانتخب الرومان امبراطورا اسمه فالنتيان . وبعد قليل نصب فالنتيان اخاه فالنس امبراطورا على رومية . وتم انفصال المملكة الرومانية على اثر ذلك الى مملكتين احدهما شرقية عاصمتها القسطنطينية والاخرى غربية عاصمتها رومية . وكانت الاولى أسعد حظا واطول عمرا فأصبحت القسطنطينية مبعث العلم ومركز السلطنة ومرجع الدين للجزء الشرقى من الدولة الرومانية القديمة

وكانت حدود الدولة الرومانية الشرقية فى القرن الخامس للميلاد غير ثابتة ، ولكننا نستطيع القول بصورة عامة أنها كانت تنتهى فى الغرب بالبحر الادرياتي وفى الشرق بصفاف دجلة . وتمتد حدودها الشمالية الى جنوبى ما يعرف اليوم بروسيا ، بما فى ذلك شبه جزيرة القرم . وتنتهى فى الجنوب الى بلاد النوبة . وأرقى عصور هذه الدولة بعد قسطنطين الكبير عصر جستنيان (من سنة ٥٢٧ - ٥٦٥ م) تولاها ٣٧ سنة ، قضى الخمس الاولى منها فى محاربة الفرس الساسانية ، وانتهت الحرب بمعاهدة سموها « معاهدة الصلح الدائم » لكنها لم تدم . ومن حسن حظ هذا الامبراطور أنه رزق بقائدين من أشهر قواد

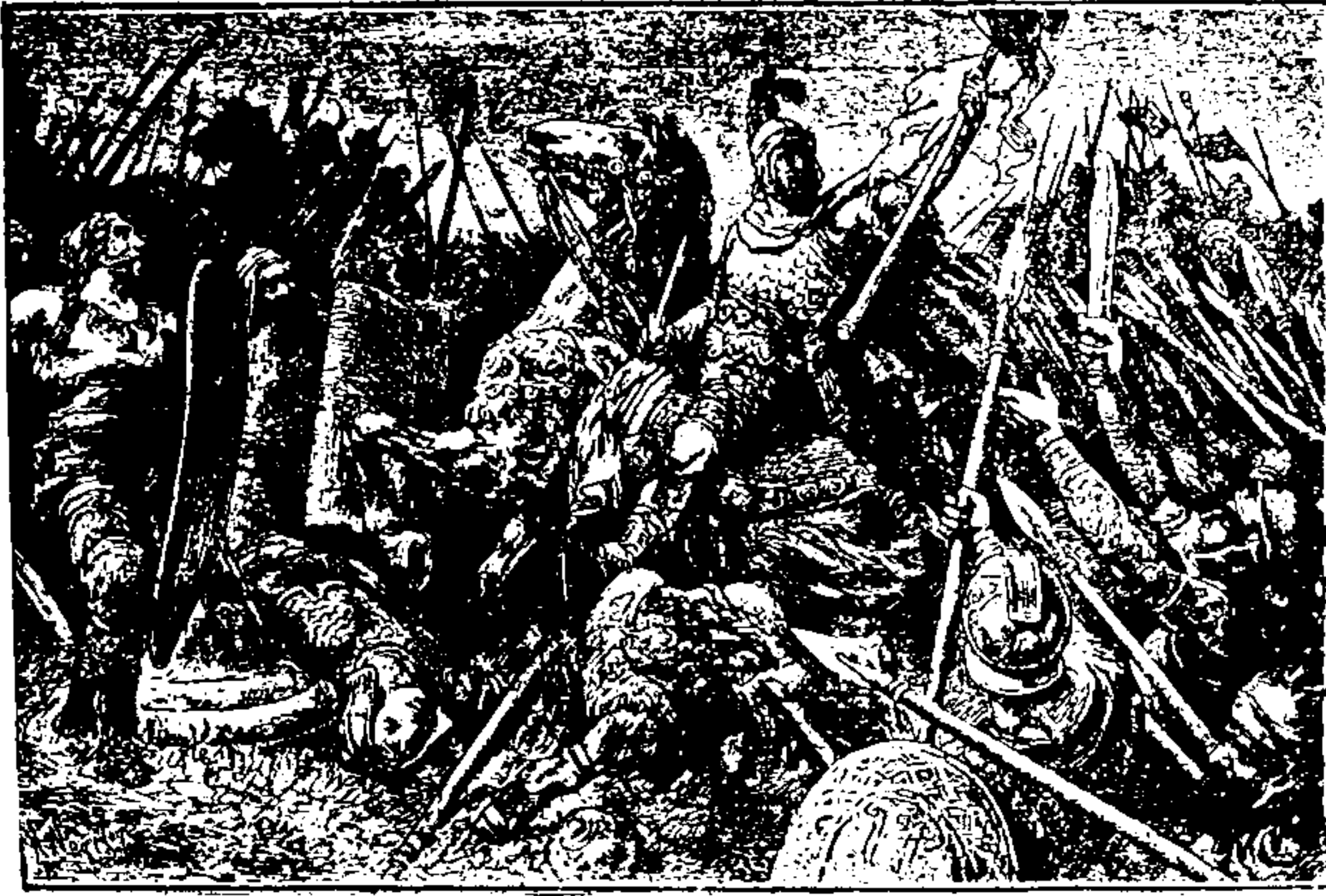
٤ - تاريخ التمدن الاسلامى

العصور الوسطى هما : بليزاريوس ونارسييس فتحا له ايطاليا ورفعوا اعلامه فوق أسوار روما شمالي افريقية وغيرها . وكانا عوناً له في سائر فتوحه وساعده الاقوى في توسيع نطاق مملكته

الفرس

والعداوة بين الفرس والروم (اليونان) قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد ، وسببها التنارع على السيادة في العالم لانهما كانتا اعظم دول الارض ، تلك العصور ، فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطان دون الاخرى ، واتصلت تلك العداوة الى زمن الاسكندر الكبير ثم اتصلت في عصور الرومان الى ايام الاسلام

وأفضى عرش الفرس في أيام جستنيان المذكور الى كسرى انوشروان المشهور بالعاقل ، فلم تعجبه مصالحة الروم فحمل عليهم بخيله ورجله ، ففتح سوريا وأحرق انطاكية ونهب آسيا الصغرى ، فبعث جستنيان اليه



القائد بليزاريوس يقود جنوده في احدى المعارك ضد الفرس

بليزاريوس فحاربه وردده على اعقابيه ، ثم عاد وعادوا وتوالت الحروب بين الدولتين نحو عشرين سنة (من سنة ٥٤١ الى ٥٦١ م) وقد مل الملكان وشاخا فتوافقا على صلح قضى فيه على جستنيان بجزية سنوية مقدارها ٢٠٠٠٠٠ دينار . وظلت حدود المملكتين كما كانت قبل الحرب

وللامبراطور جستنيان ذكر مجيد في تاريخ الدولة البيزنطية ، بسبب اتساع حدودها على ايامه واستعادتها للكثير مما كانت قبائل الجرمان قد استولت عليه من ولايات الدولة الرومانية ، وبسبب ما قام به من أعمال خلدت ذكره على مدى التاريخ ، منها اجتهاده في تكوين مجموعات القوانين الرومانية المعروفة وأشهرها المجموعة المعروفة الى اليوم بمدونة جستنيان التي كانت أساسا لما وضع بعدها من القوانين في أوروبا الى اليوم . وقد ادخل صناعة الحرير الى أوروبا وبنى الكنائس والمعاقل والقصور ، وأشهر ما يذكر به كنيسة ايا صوفيا ، التي جعلها العثمانيون عند فتح القسطنطينية جامعا لا يزال معروفا بهذا الاسم الى اليوم



كنيسة اياصوفيا التي بناها جستنيان ، وهي الآن جامع

ولكن الدولة المطلقة انما يكون حظها من السعادة أو الشقاء كما يكون ملكها . فان كان عظيما عظمت أو كان حقيرا حقرت . فلما توفي جستنيان خلفه أناس لا يليقون بالملك فلم تعد تعرف السعادة بعده - خلفه ابن اخيه جستين الثاني ثم طيباريوس ثم الامبراطور موريس (موريقوس) وقد ضعف أمر الدولة . فأراد هذا الامبراطور ان يقويها بفتح الشرق فناصر الفرس وحاربهم سبع سنين ، وقد توفي كسرى انوشروان سنة ٥٧٩ ، وخلفه ابنه هرمز الرابع ، وكان عاتيا فثار عليه رعاياه ، فاشتغل باخماد ثورتهم ، والروم يوغلون في بلاده

من العراق ، والترکمان یسطون علیها من الشمال والشرق ، حتی کادت تذهب فريسة الفاتحين لو لم یقیض لها الله قائدا شهيرا يعرف ببهرام فحارب العدوين وأنقذ البلاد منهما ، فمال الفرس اليه فانزلوا هرمز وسملوا عينيه وملكوا عليهم ابنة كسرى ابرويز ، فلم یقبل بهرام ، واذله ففر ابرويز الى القسطنطينية واستنجد الامبراطور موريس ، فأنجده بجيش تغلب به علی بهرام واستعاد الملك ، فعرف ابرويز ذلك الفضل لموريس وما زال علی ولاء الروم الى وفاة موريس

أما هذا الاخير فقد مات مقتولا سنة ٦٠٢ م وخلفه الامبراطور فوقاس ، وكان فوقاس جلفا جاهلا فأبفضته الرعية والتمسوا من ينقذهم منه . وكان من جملة ولاة الامور يومئذ وال علی افريقية اسمه هراكليوس (هرقل) فاستنجده أهل القسطنطينية ، فأنفذ اليهم عمارة بحرية تحمل جيشا يقوده ابنه ، وكان يسمى هرقل أيضا ، فقتل فوقاس وتربع في دست الامبراطورية مكانه سنة ٦١٠ وفي أيامه ظهر الاسلام

بين الروم والفرس

ورأى ابرويز بابا لناواة الروم فادعى انه يريد الانتقام من قتلة صديقه موريس فزحف بجنده علی سوريا سنة ٦١٤ م وناصره يهودها علی البيزنطيين ، ففتحها وفتح مصر واستولى علی انطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن أخرى من سوريا وفلسطين ، ثم أباح لجنده نهب اورشليم (بيت المقدس) فنهبها وأحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا خزائنها وحملوا بطيريركها والصليب الحقيقي الى بلادهم ، وواصلوا القتل والنهب في سوريا سنة ٦١٦ م فكان عدد الذين قتلوا من المسيحيين ٩٠٠٠٠ نفس ، وارسلوا جندا آخر الى آسيا الصغرى ففتحوها وكان النصر حليفهم حيثما حلوا حتى كادوا يطأون شواطئ البوسفور

كل ذلك والامبراطور هرقل معتزل في قصره وقد انغمس في اللهو والقصف والترف لا يبالي بما يهدد مملكته (*) . وكأنه لما تحقق وقوع الخطر

(*) هذه كانت الفكرة القديمة عن هرقل . ولكن الحقيقة أن أحوال الدولة حتى سنة ٦٢٢ لم تكن تسمح له بأن يقوم بأي شيء امام الفرس ، فقد كانت عندما تولى امرها سنة ٦١٠ في حالة ضعف بالغ نتيجة لحكم فوقاس ، ثم ابتليت بأوبئة اهلكت من اهلها الوفا . وقد أنفق هرقل اثنتي عشرة سنة في تكوين جيش بيزنطي جديد من عناصر قوقازية عفية ، فلما تم له ذلك خرج في حملته الكبرى علی فارس سنة ٦٢٢ وانزل بجيوش الفرس التي كان يقودها شهر باز وشاهين هزائم قاصمة ، واستمر منتصرا الى سنة ٦٢٦ ، وفي هذه السنة اضطر الى العودة الى القسطنطينية ، لان البلغار حاصروها وكادوا يتولون عليها ، وتمكن هرقل من هزيمتهم ، ثم عاد الى الميدان الشرقي ، فأوغل في فارس حتى استولى علی دستجرد من ضواحي طيشقون ، عاصمة فارس التي يسميها العرب « المدائن » وفي هذه الظروف تار سرويز ولي عهد فارس علی أبيه قباد وخلعه وتولى مكانه ، وعقد الصلح مع هرقل في سنة ٦٢٨ .

نفض غبار الخمول عن عاتقه وخرج للدفاع ، ولم يكن عنده مال ينفقه في التجنيد فاقترض اموال الكنائس على أن يعيدها بعد الحرب مع رباها ، وحشد جنده وركب البحر الى كليشيا في آسيا الصغرى واحتل ايسوس فلقية الفرس هناك فحاربهم وغلبهم سنة ٦٢٢ م ، وفي هذه السنة هاجر المسلمون من مكة الى المدينة



هرقل ملك الروم وحاشيته

قضى هرقل في محاربة الفرس ثلاث سنين متوالية حتى أوغل في بلادهم واضطر ابرويز أن يسحب جنده للدفاع عن قلب مملكته
 اما هرقل فانه حاربه مرة اخرى سنة ٦٢٧ م فأجهز على قواته وانكسر الفرس انكسارا عظيما . وبلغت جنود الروم نينوى عاصمة الاشوريين القديمة وهي اول مرة وطىء الروم فيها تلك المدينة . وكان ابرويز قد أصبح شيخا طاعنا في السن فأوصى بالملك لابنه مردز . وكان له ابن آخر اسمه شيرويه حسده اخاه وعمد الى الكيد له ولابيه ، فاستعان ببعض الناس حتى قبض على من بقى من اولاد ابرويز وهم ثمانية عشر ولدا فقتلهم جميعا بين يدي ابيه وزج اباه في السجن حتى مات

وارتد هرقل الى بلاده وقد انكسرت شوكة الفرس الى الابد ، وضعف البيزنطيون بسبب هذه الحروب ضعفا زائدا . وفي هذه الاثناء كان العرب يتأهبون لفتح الدولتين معا
 Cf: Ch. Diehl et G. Marçais: Le Monde Oriental.

وبموت كسرى أبرويز انقضى مجد الدولة الساسانية ولم يعيش ابنه شيرويه بعده الا ثمانية اشهر فأصبحت حكومة الفرس فوضى ، وادعى الملك تسعة ملوك في أربع سنوات . فساد الفساد وتمكن الاختلال فيها فجاءها المسلمون وهى فى تلك الحال

ناهيك بما كان يهدد الروم فى أوربا من هجمات برايرة القوط . وكان هؤلاء فى أوائل الاسلام قد استولوا على غربى هنجاريا (المجر) . وزد على ذلك ان الهون كانوا فى اثناء ذلك يهددون مملكة الروم من جهة الشرق

الانقسامات الدينية

ولم يكن الاختلال فى دولتى الروم والفرس مقصورا على الوجهة السياسية والادارية ، ولكنه كان يتناول الاحوال الاجتماعية والدينية بما تفاقم فيها من الانقسامات المذهبية مما هو مشهور ، فقد كان الروم حوالى القرن السادس للميلاد فى منتهى التضعع ، لتعدد الفرق وتشعب المذاهب وخصوصا فيما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشية والمشيتين . واكثر اختلافهم على الالفاظ والجوهر واحد

فكان الامبراطور واهل دولته يقولون ان للمسيح طبيعتين ومشيتين ، وأما رعيته فى مصر والشام فكان أكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشية واحدة وهم اليعاقبة . وفى زمن هرقل سعى البطريك اثناسيوس بطريك اليعاقبة فى منبج فى التوفيق بين الطائفتين ، فخاطب الامبراطور فى ذلك وذهب مذهبا متوسطا بين القولين ، وهو ان للمسيح طبيعتين ومشية واحدة . فوافق الامبراطور واستمهله ريثما يخبر بطريق القسطنطينية بيروس وهو سورى الاصل . وكان اثناسيوس قد اتفق معه على ذلك قبل مخاطبة الامبراطور ، فنشر الامبراطور بهذا المعتقد منشورا قبله اكثر الاساقفة الشرقيين الا صفرونيوس بطريق بيت المقدس وبعض الاساقفة ، وفى مقدمتهم اسقف عمان وسائر اهل الكنيسة الملكية . فشق ذلك على الامبراطور فعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا منشوره وفيهم جانب عظيم من الروم ، فأصبح الانقسام مزدوجا : الامبراطور وبطارقة القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية حزب يقول بطبيعتين ومشيتين ، واليعاقبة ومنهم الاقباط واهل حوران وسائر اهل داخلية سوريا ومصر حزب آخر ، والنساطرة وهم اهل العراق والجزيرة حزب ثالث . فضلا عن طوائف اخرى غير هذه منهم الخياليون الذين يقولون ان المسيح لم يصب حقيقة ، وانما صلب رجل آخر مكانه . والاكيفاليون القائلون بعدم الخضوع للرؤساء وهم يشبهون الخوارج . ثم ان اليعاقبة ايضا كانوا اقساما مما يطول شرحه

القرشيون يفتدون أسراهم ، فاجتمع من ذلك مال كثير . وقد عاد أهل مكة مخذولين ، فانكسرت شوكتهم وعظم أمر المسلمين . ومما زادهم تأييدا أن ابا لهب المشهور بمقاومة الاسلام ، لم يخرج يوم بدر من مكة ، لكنه أرسل من يحارب عنه على جاري عاداتهم في من يتخلف عن الحرب . فلما أخبروه بفشل القرشيين اشتد به الحزن حتى مات بعد بضعة أيام . ولواقعة بدر شأن عظيم في تاريخ الاسلام ، لانها كانت فاتحة الانتصارات الاخرى

واقعة احد

ثم ان القرشيين عادوا بعد هذه الكسرة فاجتمعوا في السنة التالية ، وقائدهم ابو سفيان وعددهم ثلاثة آلاف فيهم ٧٠٠ دارع و ٢٠٠ فرس ، وتهيأوا للاخذ بثأر قتلاهم في بدر ، وساروا المهاجمة المدينة ومعهم النساء يضربن الدفوف ويندبن قتلى بدر ويحرضن الناس على مقاتلة المسلمين ، وكان في جملة رجال الحملة خالد بن الوليد الذي اشتهر بين قواد المسلمين بعد ذلك . فلما اقبلوا على المدينة تشاور النبي وأصحابه فكان رأيه البقاء في المدينة للمدافعة ، ورأى مثل ذلك أيضا رجل من الصحابة اسمه عبد الله ابن ابي بن سلول . ولكن اكثر الصحابة اشاروا بالخروج عليهم ، فأطاع النبي الاكثرية وخرج في ألف منهم حتى توسطوا بين المدينة وجبل احد . وباسم هذا الجبل سميت هذه الواقعة « غزوة أحد » . وكان ابن ابي هذا قد غضب لان النبي خالف رأيه وأطاع الآخرين ، فلما توسطوا الطريق تفهقر هو وثلث الرجال وأشاع القرشيون في الجند أن محمدا قتل ، ففشل المسلمون ولم يظفروا في هذه الواقعة ، وقتل منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ، وكان قتله سببا في زيادة الفشل كما كان اسلامه مؤيدا للاسلام . وبلغت جملة قتلى المسلمين سبعين رجلا ، وأصيب النبي نفسه بضربة شجت رأسه ودخل بعض حلق المغفر (الدرع) في الشجة فسال الدم . ومثل القرشيون بقتلى المسلمين تمثيلا شنيعا ، فقطعوا الآذان والانوف حتى ان هند بنت عتبة امرأة ابي سفيان (وأم معاوية) شقت بطن حمزة وأخرجت كبده ولاكتها فلم تستطع أن تبتلعها فلفظتها

وكانت هذه الواقعة أشد ما أصاب المسلمين الى ذلك الحين ، لكنهم كانوا قد ذاقوا لذة النصر فنسبوا هذا الفشل الى خيانة عبد الله بن ابي المتقدم ذكره ، وعادوا الى مواصلة الغزو حتى كانت واقعة الخندق

واقعة الخندق

وذلك ان قبائل العرب لما راوا انتصار القرشيين في أحد تحزبوا لاهل مكة وانضموا اليهم ، وفيهم قريش وغطفان وسائر قبائل العرب وبنو النضير

من اليهود - وكان المسلمون قد اجلوهم عن اماكنهم كما سيأتى فحرضوا قريشا على الحرب - وحملوا على المدينة في بضعة عشر الفا ونحو اربعمائة فرس و ألف بعير ، وهم الاحزاب وبهم تعرف الواقعة ايضا . وكان المسلمون لا يزيد عددهم على ثلاثة آلاف ، فاضطربوا وخافوا ، وقد تعلموا من الواقعة الماضية أن لا يخرجوا من المدينة

وكان في جملة الصحابة يومئذ رجل من فارس له خبرة بفنون الحرب اسمه سلمان الفارسي ، فأشار على النبي بحفر الخندق - وكان العرب لا يعرفون ذلك من قبل - فقال له سلمان : « كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فان ذلك من مكاييد الحرب » فاستحسن النبي ذلك وأمر بالحفر . وكان هو نفسه يشتغل معهم بحمل التراب ، ولم يكن عندهم العدد اللازمة فاستعاروا بعضها من بنى قريظة ، فاحتفروا الخندق حول المدينة في بضعة عشر يوما (*)

وأقامت الاحزاب حول المدينة وحاصروها والخندق يمنعهم من مهاجمتها، فقضوا بضعة وعشرين يوما لا يقاتلون الا بالرماة بالنبال والحصى ، وقد هالهم أمر الخندق وعلموا أنها مكيدة جديدة ، على ان بعضهم حاول الوثوب بفرسه من فوق الخندق فسقط فيه واندقت عنقه ، فزاد الرعب في قلوب الاحزاب . فلما طال بهم الانتظار عمدوا الى البراز ، فخرج احدهم وطلب البراز فخرج اليه على بن ابي طالب فغلبه على . واتفق على اثر ذلك سقوط الامطار وهبوب الرياح ، فأثرت في حيام الاحزاب وكفأت قدورهم ، واهل المدينة في منازلهم قلما اثرت فيها الانواء ، فتشاءم اولئك وعادوا على اعقابهم، فزال عن المسلمين عار أحد بهذه الهزيمة

الفتوح

كل ما تقدم من الحروب لا شيء من الفتح فيه وانما هو غزو ومقاتلة ، وأما الفتوح الاسلامية فأولها فتح ارض بنى النضير وهم يهود ، حدث حادث دعا الى مطالبتهم بالجلء عن بلادهم (***) فطلب النبي ان يجلوا عنها فحاصرهم

(*) انظر عن سلمان والاساطير الكثيرة التي نسجت حوله :

L. Caetani, Annali dell'Islam, V 399-417

C. Huart, Selman du Fars in Mèl Derenbourg, Paris 1909

L. Massignon, Salman Pak et Prémices Spirituelles de l'Islam Iranien. Tours 1934

(**) سبب خروج النبي (سلم) الى بنى قريظة ويهود خيبر معروف ، وهو مؤازرتهم لقريش وحلفائها على المسلمين في محنة الاحزاب

انظر ابن اسحاق ، ج ٢ ص ٢٤٤ وما يليها

سنة أيام « سنة ٤ هـ » ، فطلبوا اليه أن يخلى سبيلهم على أن يحملوا معهم ما حملت الابل من أموالهم الا السلاح ، فأجابهم الى ذلك فخرجوا وظل مابقى من أموالهم فيئا للنبي خاصة يعطى منه من يشاء . وكذلك حصل في قريظة وخيبر ، وكان لخبيبر حصون كثيرة فتحوها تباعا



حصن خيبر

أما القرشيون بعد واقعة الخندق فقد هان عليهم مهادنة المسلمين ، فعدوا معهم صلحا في نحو السنة السادسة للهجرة مفاده « أن من شاء من أهل المدينة أن يقدم مكة للحج أو العمرة أو ان يجتاز بها الى اليمن أو الطائف فهو آمن . ومن قدم من أهل مكة او من معهم من أهل الشام والمشرق ومر بالمدينة فهو آمن (*)

واقعة مؤتة

فتفرغ المسلمون لنشر الدعوة الاسلامية ، وكان لفشل الاحزاب مع كثرة عددهم تأثير شديد على قبائل العرب وعظم الاسلام في نفوسهم ، فجعلوا يقدون الى المدينة لقبول الدعوة من تلقاء أنفسهم ، وفي جملة الوافدين رجلا ن لهما شأن عظيم في تاريخ الاسلام ، هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وكلاهما من أشهر القواد ، فاعتز المسلمون بهم واتسعت آمالهم ، فأرسل النبي في السنة التالية رسله الى ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام ، في جملتها

(*) هذا هو الصلح المعروف بصلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة

كتاب الى المقوقس والى مصر ، وبعث (سنة ٨ هـ) جندا لمحاربة الروم في الشام ، فحاربوهم في قرية من قرى البلقاء في حدود الشام مما يلي حوران اسمها مؤتة . وتلك اول حروبهم مع الروم ، والعرب لم يجربوا الجنود المنظمة بعد ، فلم يفلحوا فعادوا الى المدينة وقد قتل منهم بضعة من خيرة الصحابة فيهم زيد بن ثابت وعبدالله بن رواحة وجعفر بن ابى طالب اخو على



كتاب النبي الى المقوقس عشر عليه بعض الفرنسيين سنة ١٢٧٥ هـ (١)

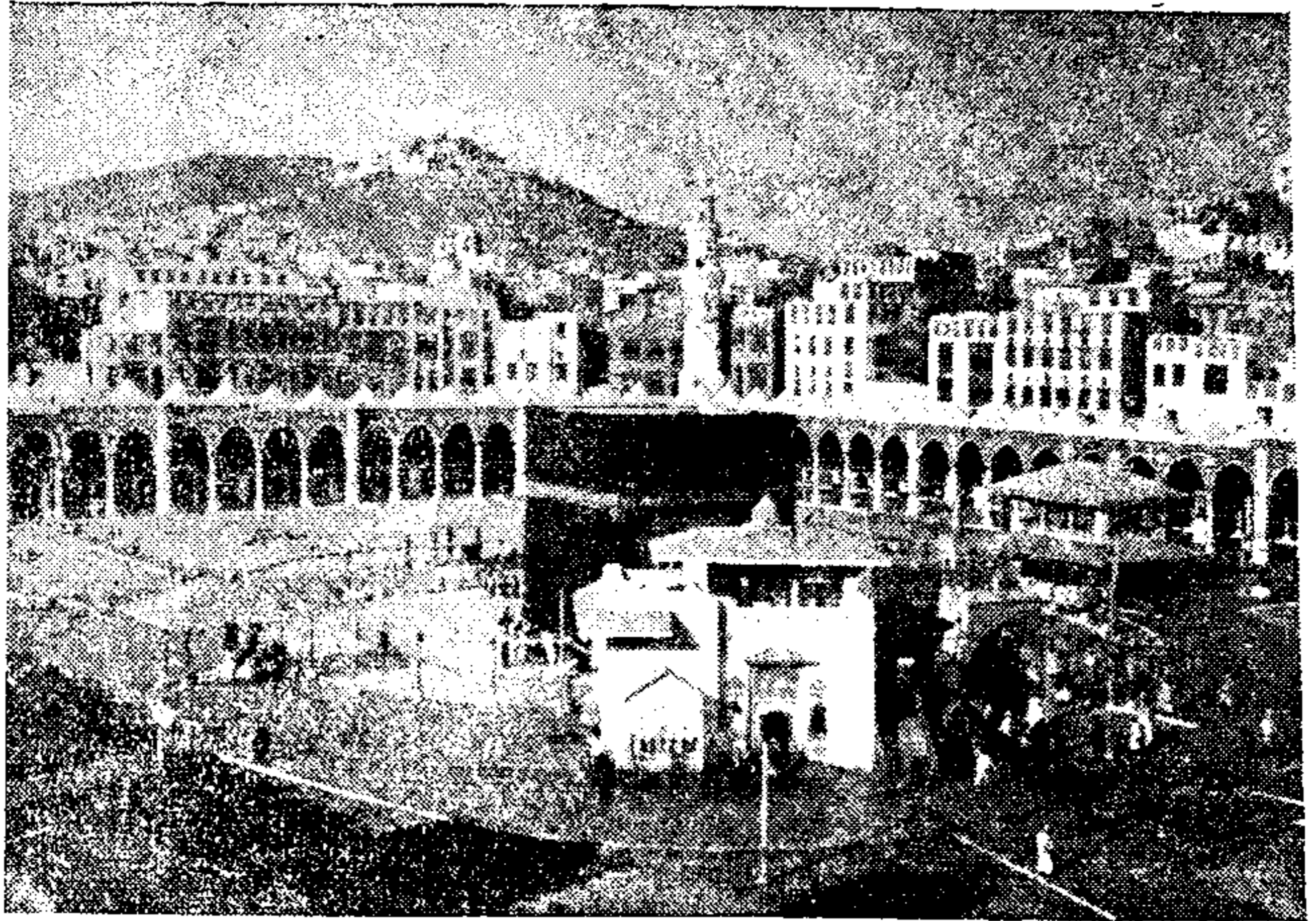
وحدثت في اثناء ذلك حادثة افضت الى نقض الصلح بين المسلمين وقريش، فرأى ابو سفيان أنهم لم يعودوا يقوون على مناوأة المسلمين ، فجاء بنفسه الى المدينة لتجديد العهد . وادرك المسلمون ضعف عدوهم فلم يفتلوا عن هذه الفرصة ، فلما سألهم عن الصلح لم يجيبوه جوابا صريحا عن قبولهم اياه (٢) (*) فلما عاد الى مكة تجهزوا على عجل لكي يباغثوها قبل ان يتأهب

(١) تفصيل ذلك في الهلال صفحة ١٠٣ و ١٦٠ سنة ١٣

(٢) ابو الفدا : ج ١ ص ١٦٨

(*) وكان القرشيون قد اعتدوا على بنى كعب احلاف المسلمين فكسروا بذلك صلح الحديبية

أهلها للدفاع . فساروا حتى أقبلوا عليها وهم عشرة آلاف وفيهم المهاجرون
والانصار وقبائل من العرب المحالفة ، وكان أبو سفيان وبعض كبراء قريش
قد خرجوا من مكة يتجسسون ، فلقبهم العباس بن عبد المطلب عم النبي ،
فسأله أبو سفيان عما هنالك ، فأخبره العباس بقوة جندهم واعتزاز أمرهم ،
فقال أبو سفيان : « لقد أصبح امر ابن اخيك عظيما » فأشار عليه العباس
أن يستأمن ، فلم ير لنفسه خيرا من ذلك ، فجاء معه الى معسكر المسلمين ،
فاكرم النبي وفادته ومنع الصحابة من ايدائه لانهم كانوا ينوون الايقاع به ،
وزاد في تعظيمه حتى جعل كل من يدخل بيته من أهل مكة يوم الفتح آمنا
مثل من يدخل المسجد



مسجد مكة وفي وسطه الكعبة

فعاد أبو سفيان وأخبر أهل مكة بما كان ، فاستضعفوه وخذلوه وشتموه،
حتى ان امرأته هند بنت عتبة اخذت بشاربه وقالت : « اقتلوا الحميت الدسم
الاحمس .. قبحه الله من طليعة قوم » فلم يبال
ثم دخل المسلمون مكة وفتحوها ، وسار النبي توا الى الكعبة فكسر

الذي كان بينهم وبين الرسول (صلعم) ، وقد ادرك ابو سفيان بن حرب ان محمدا لن
يست على ذلك العدوان ، فأسرع الى المدينة يطلب تجديد العهد ، فرفض محمد ، واستبان
من هلع ابي سفيان ان مكة لم تعد تستطيع الصمود ، وان الاوان قد آن لفتحها ، فأعد العدة
لغزوها وسار اليها سنة ٨ للهجرة

وقد تابع المؤلف هنا ابا الفدا في روايته ، وهي رواية متأخرة داخلها كثير من الاساطير ،
واصح الاخبار عن ذلك عند ابن اسحاق ، ج ٤ ص ٣٦ وما يليها

الاصنام التي كانت في المسجد حولها وفي جوفها ، ونزع ما كان على جدرانها من صور الملائكة وغيرها ، وكان ذلك آخر عهد مكة بالوثنية . وتحولت الكعبة من ذلك الحين الى مسجد يعبد فيه الله ، واسلم أهل مكة كافة وفيهم أبو سفيان وأولاده ، وفي جملتهم معاوية (١) بن أبي سفيان مؤسس دولة بني أمية

المؤلفة قلوبهم وغزو الطائف

وسمى النبي اشراف مكة الذين اسلموا بعد الفتح « المؤلفة » او « المؤلفة قلوبهم » ، اشارة الى تأليف قلوبهم لتتألف بهم قلوب اقوامهم تعزيرا للاسلام ، وفي السيرة الحلبية ان من المؤلفة قلوبهم من تألفهم النبي ليسلموا مثل صفوان ابن أمية ، ومن تألفهم لدفع شرهم . وكان يتألفهم جميعا بالعطاء فيميزهم به عن سائر الصحابة كما سترى ، وفي ذلك من حسن السياسة والحلم وسعة الصدر ما فيه

وبعد فتح مكة بعث النبي سراياه الى ما حولها يدعو الناس الى الاسلام ، ثم غزا حنين والطائف ، وشتان بين مجيئه الى الطائف الآن ومجيئه في أول دعوته ، لقد جاءهم يومئذ مستنصرا وجاءهم الآن فاتحا ، فغلبهم وغنم غنائم بلغ مقدارها ٢٤٠٠٠ من الابل و ٤٠٠٠٠ من الغنم و ٤٠٠٠ اوقية من الفضة ، فلما عمد الى تفريقها في أصحابه بدأ بالمؤلفة قلوبهم فأعطى ابا سفيان مائة بعير وأعطى ابنه معاوية مائة بعير وابنه يزيد مائة بعير واعطاهم الفضة ، فكان جملة ما اخذه أبو سفيان وأولاده ثلاثمائة بعير ومائة وعشرين اوقية من الفضة ، فقال أبو سفيان : « بأبي أنت وامي يا رسول الله لانت كريم في الحرب وفي السلم (*) »

عتب المهاجرين والانصار

وفعل النبي نحو ذلك في سائر الاشراف مثل الحارث بن هشام اخي أبي جهل المشهور وصفوان بن أمية وغيرهما ، فشق ذلك على المهاجرين والانصار وهم دعامة الاسلام وأهل السابقة ، فكيف يتركون وتفترق الغنائم في من لم يسلموا الا مكرهين بعد ان غلبوا على مدينتهم ؟ فتشاكى الصحابة في ما بينهم وقالوا : « كيف يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا لا تزال تقطر من دمائهم ؟ » فبلغ ذلك النبي فجمعهم وسألهم فاعترفوا له بما قالوا فصوب قولهم ولكنه قال لهم : « انى لاعطى رجلا حديثى عهد بالكفر اتألفهم

(١) السيرة الحلبية ٨٠ ج ٢

(*) عبارة أبي الفدا هنا مختصرة ، وقد أورد القرظي في « امتاع الاسماع » نصها : انك لكريم ، فذاك ابي وامي ، والله لقد حاربك فنعم الحارب كنت ، ثم سالتك فنعم السالم انت ، جزاك الله خيرا « - انظر : ص ٢٢٢

ليحسن اسلامهم ويسلم غيرهم تبعا لهم ، واما انتم فوكلتكم الى اسلامكم الثابت الذي لا يتزلزل . الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا انتم برسول الله الى رحالكم ؟ . . » وقال مثل ذلك للمهاجرين فارتضوا (*)

ثم عادوا الى المدينة في نحو السنة التاسعة للهجرة وقد اعتر جانبهم وذاع امر سلطانهم في كل جزيرة العرب ، فجعل الناس يفدون على المدينة يدخلون في الاسلام (**)

محاولة فتح الشام

فلما اعتر المسلمون ودانت لهم جزيرة العرب كلها تقريبا ، عادوا الى توسيع دائرة الفتح ، فأمر النبي سنة ٩ هـ بالتجهز لاعادة الكرة على الروم ، فجهزوا جندا عدده ثلاثون الفا فيهم عشرة آلاف فارس ، وتلك أكبر حملة استطاعها المسلمون الى ذلك الحين بذلوا فيها كل مافي وسعهم من المال والرجال . ولكنهم لقوا في الطريق شدة عظيمة من العطش ، فنزلوا قرية بين المدينة والشام اسمها تبوك وهم يظنون الروم يجتمعون اليها ومعهم عرب لخم وجذام ، فجاءهم صاحب ايلة (وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام في رأس خليج العقبة) فصالحهم على الجزية . وفي أثناء هذه الحملة سطا خالد بن الوليد على صاحب دومة الجندل بين المدينة ودمشق ، على سبع مراحل من هذه وهو عربي نصراني من كندة ، فأخذه خالد وقتل أخاه وأخذ منه قباء من ديباج مخصوصا بالذهب وارسله الى المسلمين ، فلما رأوه تعجبوا منه لانه أول عهدهم بمثل هذه الملابس ، ثم عادوا الى المدينة ولم يفتحوا شيئا من بلاد الروم (***)

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة توفي صاحب الشريعة الاسلامية والاسلام لا يزال حديثا ، فسعى الذين حط الاسلام من نفوذهم أو وقف في سبيل اغراضهم فارتدت معظم قبائل العرب عنه ، الا أهل المدينة ومكة والطائف . وأصبح الاسلام في خطر شديد ، لو لم يتداركه أبو بكر

(*) ورد الحديث بصور أخرى عند غير أبي الفدا من المؤرخين ، انظر : ابن اسحاق : السيرة ، ج ٤ ص ١٤٢ والطبرى (طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة) ج ٣ ص ١٢٨ والمقرئى : امتاع الاسماع ، ج ١ ص ٤٢١ وغيرهم

(**) فصل ابن سعد أمر هذه الوفود تفصيلا حافلا بالقيمة التاريخية ، انظر : الطبقات (طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية . القاهرة سنة ١٣٠٨) ج ٢ ص ٥٦ وما بعدها

(***) هذه هي غزوة تبوك التي بدأت في رجب سنة ٩ هجرية . وايله هي المعروفة اليوم بالعقبة ، وصاحبها اذ ذاك هو يحنة (يوحنا) بن روبة ، وصاحب دومة الجندل هو أكيدر انظر : ابن اسحاق ، السيرة ، ج ٤ ص ١٦٩

الخلفاء الراشدون

الخلاف بين المهاجرين والانصار

كان النبي في اثناء حياته امير المسلمين وقائدهم في الحرب ، وامامهم في الصلاة ، وقاضيهم في سائر الاحوال . فلما مات ولم يخلف ذكرا ولا اوصى بالخلافة لاحد - واما قوله لعلي المتقدم ذكره انه وصيه فالائمة مختلفون فيه - اختلفوا عند موته فيمن يخلفه ، واولى الناس بخلافته اصحابه وهم المهاجرون والانصار ، فقال المهاجرون نحن احق بالخلافة ، لاننا اهل النبي واصحابه وقد تركنا اهلنا وبلدنا وهاجرنا معه . وقال الانصار بل نحن احق بذلك لاننا آويناه ونصرناه . واشتد الجسدال بينهما حتى كاد يفضى الى النزاع ، فذكرهم ابو بكر بحديث كان النبي قد قاله على مسمع منهم وهو : « قريش ولاة هذا الامر » فاذعنوا وتراجع الانصار

ولكن الخطر مازال يهدد الاسلام من اختلاف المهاجرين على من يختارونه لذلك المنصب العظيم ، فأحس عمر بن الخطاب رجل المسلمين بذلك ، وخاف الفشل لان الاسلام قام على الاتحاد ، فبادر الى ابي بكر فبايعه والناس ينظرون . وهم انما كانوا يخافونه اذا طلب الخلافة لنفسه لشدة بطشه وقوته ، فلما راوه سبقهم الى مبايعة ابي بكر بايعوا معه وانفض المشكل (*)

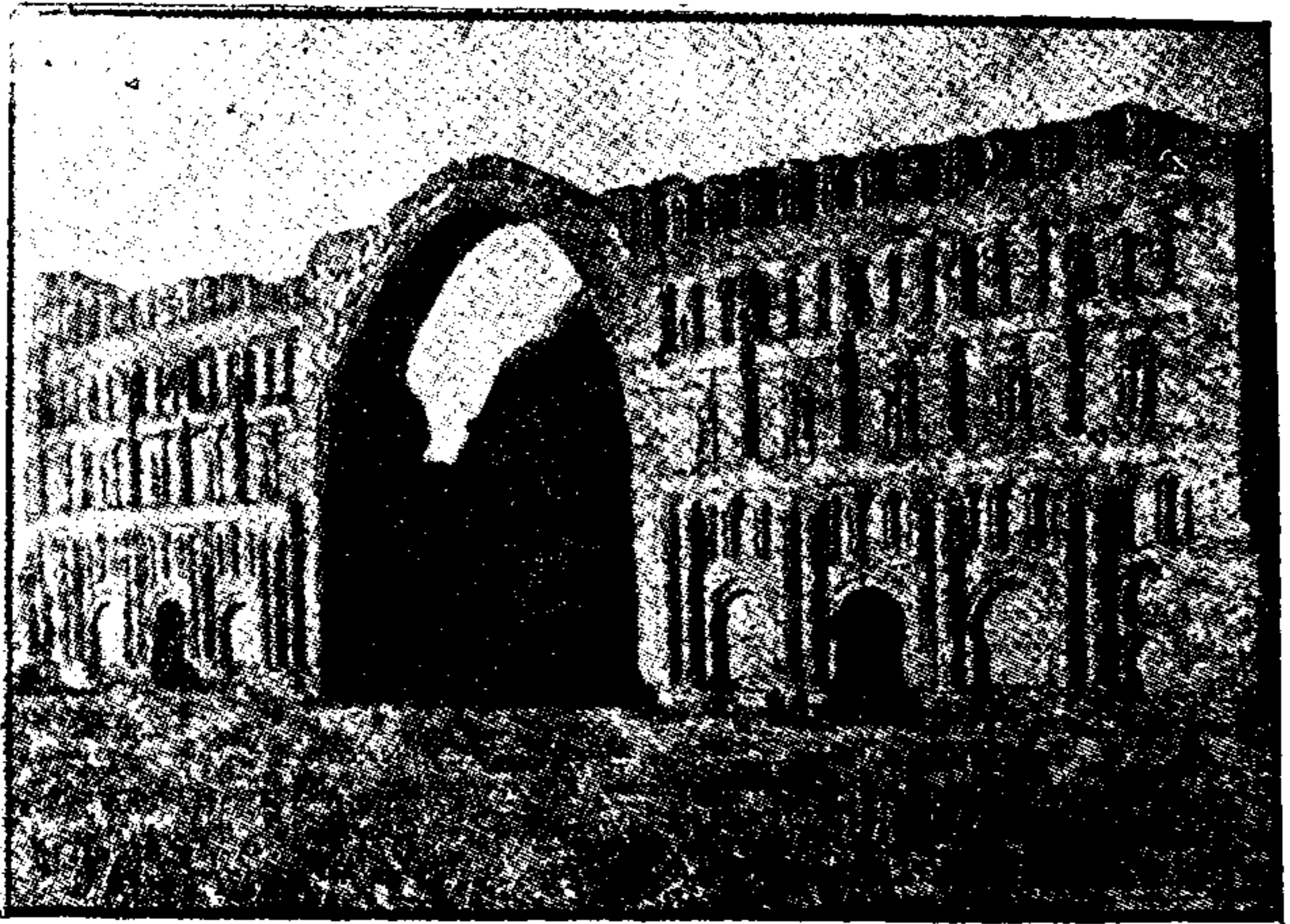
خلافة ابي بكر

اما مبايعتهم ابا بكر دون سائر المهاجرين وفيهم العباس عم النبي وعلي بن ابي طالب ابن عمه وغيرهما من بنى هاشم اهل بيته ففيه نظر ، والظاهر من اقوال عمر وغيره في مواقف مختلفة انهم راوا بنى هاشم قد اعتزوا بالنبوة لان النبي منهم فلم يستحسنوا ان يضيفوا اليها الخلافة ، ولعلمهم فعلوا ذلك اقتداء بالنبي نفسه لان عمه العباس طلب اليه مرة ان يوليه عملا فابى ، وصرح بذلك بنو هاشم انفسهم وفي مقدمتهم الحسن بن علي لما تنازل عن الخلافة لمعاوية فقال : « ابي الله ان يجمع النبوة والخلافة فينا »

ومما ساعد على اختيار ابي بكر دون سائر المهاجرين من غير بنى هاشم - مثل عمرو وعثمان وطلحة والزبير - انهم اعتبروا السابق في الاسلام لان ابا بكر اسبق رجالهم اليه جميعا . وهناك سبب آخر ذو شأن عند العرب من عهد

(*) هذه اشارة الى حديث سقيفة بنى ساعدة ذي الاهمية الكبرى في تاريخ الدولة الاسلامية انظر : الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٩٨ وما بعدها

جاهليتهم وهو السن ، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والسيادة معا ، وكانوا اذا تساوت المناقب في من يترشحون للامارة فضلوا كبيرهم سنا مع ملاحظة المقام الادبي - كذلك فعلت قريش في حرب الفجار الثاني فانها جمعت بطونها وعلى كل بطن رئيس ورأسوا عليهم جميعا حرب بن أمية . قال ابن الاثير : « وولوه عليهم جميعا لمكانه من عبد مناف سنا ومنزلة » ، وقد جمع ابو بكر الامتياز بالسن والوجاهة على سائر قريش ، وفوق كل ذلك فان النبي لما مرض انابه للصلاة في المسلمين وهي من حقوق الأمامة ، فضلا عما امتاز به من العلم وصدق العزيمة وقوة التدبير وعلو الهمة وغير ذلك من المناقب



بقايا ايوان كسرى في المدائن

وأول خطبة قالها ابو بكر بعد المبايعة تمثل حقيقة الاسلام ، وتبين السر الذي ساعد على سرعة انتشاره وتأيد سلطانه وهي : « ايها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني . الصدق امانة ، والكذب خيانة . والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ الحق له ان شاء الله تعالى . لا يدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » (*)

(*) انظر تفصيل الحديث عند الطبري ، ج ٣ ص ٢١٠ وما يليها

الردة

تسلم أبو بكر الخلافة والاسلام في غاية الاضطراب بسبب الردة التي اشرنا اليها ، ومن اسبابها ان بعض القبائل دانت للاسلام ولم يتمكن الاسلام من عقولهم وقلوبهم ، فلما مات النبي تبادر الى اذهانهم ان الدعوة الى النبوة امر هين وظنوا انفسهم يستعينون على تأييد دعواهم بقبائلهم وهي اكثر رجالا من قريش ، ، فكيف يستطيع هؤلاء السيادة على جزيرة العرب كلها وهم قليلون ؟ فادعى النبوة غير واحد ، وفيهم طليحة الاسدي من بنى اسد ، وسجاح التميمية من تميم ، ومسيلمة من بنى حنيفة في اليمامة ، وغيرهم . واستعان كل منهم بقبيلته وانصاره ، فدعا ذلك الى اضطراب الاحوال في سائر القبائل ، فمنهم من رفض الاسلام وتابع اولئك الدعاة ، ومنهم من اكتفى بالامتناع عن أداء الزكاة . والزكاة من دعائم الاسلام الاولية ، ولها شأن المال في الدولة ، والمال ضروري لقيام الدول في كل زمان ومكان ، وبعض العرب امتنعوا عن الزكاة لانهم عدوها من قبيل الاتاوة التي كانوا يدفعونها في جاهليتهم

واشتد امر الردة واستفحل المرتدون ، حتى حمل بعضهم على المدينة نفسها وهي عاصمة المسلمين ، فهاجموها وكادوا يأخذونها لو لم يدافعهم أبو بكر دفاعا جميلا ، وقد تصرف في محاربة المرتدين تصرف الرجل الحكيم الحازم ، وبين يديه نخبة القواد وأهل الحزم ، فعقد لهم الاولية للقتال ، وبلغ عدد ما عقده منها أحد عشر لواء عقدت لاحد عشر قائدا في جملتهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص (*)

فلم تمض على ذلك سنتان حتى استتب الامر لابي بكر ، وعاد الناس الى ما كانوا عليه وسكنت الاحوال ، فحول التفاته الى الشام والعراق اقتداء بما اراده النبي ، فوجه اليهما الجنود فجرت واقعة اليرموك الشهيرة سنة ١٣ هـ وكانت سببا في فتح الشام ، واشتد ازر المسلمين بها كما اشتد ازرهم بواقعة بدر الكبرى

خلافة عمر

وتوفي أبو بكر في تلك السنة وقد أوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب ، وليس هو اكبر سائر المهاجرين سنا ، لكن الصحابة لم يكونوا مخيرين في خلافته لان ابا بكر أوصى له بها ، وكان عمر رجلا حازما عادلا شديدا في الحق ، وفي أيامه تم فتح الشام والعراق وأهم وقائعها واقعة القادسية سنة ١٤ هـ وهي من اشهر الوقائع الرئيسية التي فاز فيها المسلمون . وفي أيامه فتح بيت

(*) انظر بيان هذه الاولية واصحابها عند الطبري ، ج ٢ ص ٢٢٥

المقدس واشترط أهلها أن يأتي عمر بنفسه لعقد الصلح على يديه ، وفتحت المدائن عاصمة الفرس سنة ١٦ هـ ثم أوغلت جنود المسلمين في فارس ، وفتحت الجزيرة وأرمينيا سنة ١٧ هـ ، وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص ، ثم فتحت برقة

وهو الذي دون الدواوين ووضع الاعطية كما سنفضله ، وفي أيامه بنيت الكوفة والبصرة والفسطاط ، وبنى المسجد الحرام بمكة ووسع فيه فأضاف إليه ما كان يجاوره من الأرض ، ابتاعها من أصحابها

وقتل الامام عمر سنة ٢٣ هـ وخلفه عثمان بن عفان ، ونظرا لكثرة الفتوح في أيامه نذكر الاسباب التي ساعدت عليها

الفتوح الاسلامية

في صدر الاسلام

للكتاب واهل النقد بحث طويل وجدال عنيف في الاسباب التي ساعدت العرب على فتح بلاد الروم والفرس ، وقهر القياصرة والاكاسرة برجال يكاد لا يزيد عددهم على عدد حامية مدينة من مدن اولئك ، مع ما كان عليه العرب يومئذ من سذاجة المعيشة وقلة الدربة في فنون الحرب وضيق ذات اليد وضعف العدة ، والروم والفرس اعظم دول الارض يومئذ وعندهما العدة والرجال والحصون والمعازل ، وزد على ذلك ان العرب فضلا عن قتلهم وسذاجة احوالهم جاءوا مهاجمين في بلاد لا يعرفونها ولا نصير لهم فيها ، واغرب من ذلك كله انهم فتحوا تينك المملكتين في مدة لا تتجاوز بضع عشرة سنة ، فكيف تأتي لهم ذلك ؟

اشهر اقوال اهل النقد في هذا الشأن ان العرب لم يستطيعوا فتح تينك المملكتين الا لما كان فيه الروم والفرس من التضعع والضعف ، على اثر ما كان من الحروب بينهما قبيل الاسلام مما بيناه في فصل سابق . وعندنا ان ذلك التضعع لم يكن وحده علة ذلك النصر ، والا لكانت احدى الدولتين اولى بالاستيلاء على جاريتها وعدوتها من امة صغيرة قليلة العدد ضعيفة العدد غلبت الدولتين جميعا . على اننا لا ننكر ما كان لتضعع الروم والفرس من التأثير في تسهيل الفتح ولكنه لم يكن هو علته ، وهناك اسباب اخرى سيأتي بيانها

ما الذي جراً العرب على الفتح ؟

لنبحث اولاً في الاسباب التي جرات العرب على مهاجمة تينك المملكتين . وهم اهل بادية ما برحوا من اجيال متطاولة ينظرون الى الروم والفرس نظر الاحترام والتهيب ، يضربون الامثال بضخامة ملكهما ويخافون اسميهما ، فكيف تتجراً شزيمة منهم على مناواتهما ببضعة آلاف ليس على ابدانهم الا غليظ الكساء ؟ واكثر طعامهم الشعير ، وعدتهم الرماح مشدودة بعصب والسيوف معلقة بخرق . ولماذا لم يفعلوا ذلك قبل الاسلام ؟ والجواب على ذلك ان العرب اصبحوا بعد الاسلام غير ما كانوا عليه قبله : كانوا قبائل مشتتة متباغضة فاصبحوا امة واحدة بقلب رجل واحد ، وهذا وحده لا يكفي لاقدامهم على هذا الامر العظيم ، وانما ساعدتهم على ذلك اعتقادهم صدق الدعوة التي دعوا اليها ، اعتقادهم انهم انما يفتحون الدنيا في سبيل الدين ، وان الله يدعوهم



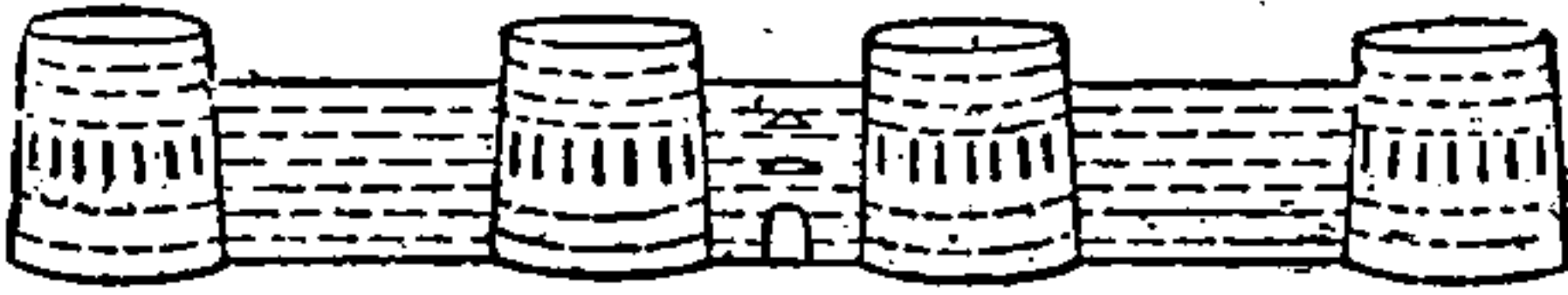
الى نشر الاسلام في الارض ، وأن من مات منهم مات شهيدا ، وأن العالم الآتى خير وأبقى . هذا الاعتقاد هو الذى جرا العرب على ركوب هذا المركب الخشن ، غير ما ذاقوه من حلاوة النصر في غزواتهم وسراياهم في أيام النبی ، والانسان اذا خدمه التوفيق في أمر هانت عليه المخاطرة بكل ماله في سبيله

١ - الاتحاد بالاسلام

اما الاتحاد بالاسلام فانه ظاهر في كل أعمالهم ، يشهد بذلك ما قدمناه من امر المعاهدة والمؤاخاة في أول سنة للهجرة ، ويؤيده أن الاسلام عنوان التوحيد كما يتضح من مراجعة القرآن والحديث . ولا تكاد تخلو خطبة من خطب الخلفاء أو الامراء في صدر الاسلام من الإشارة الى تلك الوحدة ، وتذكير المسلمين بما كان عليه آباؤهم في الجاهلية من التفرق والتشتت ، وما يدعوهم اليه الاسلام من نزع العصبية وتوحيد الكلمة ، وقد زاد متانة تلك الوحدة اجتماعهم خمس مرات في اليوم للصلاة خلف الامام أو من يقوم مقامه ، وفي ذلك من توطيد عرى الاتحاد والاجماع على الطاعة ما لا يخفى . ذكر البلاذري أن ابا سفيان لما جاء المسلمين قبل الفتح - وهو لم يسلم بعد - رأهم قائمين للصلاة اذا ركع النبي ركعوا واذا سجد سجدوا فقال : « تالله ما رأيت كاليوم طواعية قوم جاءوا من ههنا وههنا ولا فارس الكرام والروم ذات القرون و »

٢ - اعتقادهم صدق الدعوة

وأما اعتقاد العرب صدق الدعوة وانهم كانوا يعملون لاخرتهم لا لدينهم فظاهر من اقوالهم وأعمالهم في أثناء المفتح ، كقول المغيرة لما قال له رستم القائد الفارسي في أثناء واقعة القادسية : « انكم تموتون في ما تطلبون » فقال المغيرة : « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ويظهر من بقى منا



حصن بابلون الذى فتحه عمرو بن العاص

على من بقى منكم » ، وكقول عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر، لما خوفه بجموع الروم وانهم لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حصن بابل فقال عبادة :

« يا هذا لا تفرن نفسك ولا اصحابك . اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا تقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى

يكسرنا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ، لان ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ، ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك . واننا منكم حينئذ لعلى احدى الحسينيين ، اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا . ولانها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وأن الله عز وجل قال لنا في كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » . وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحا ومساءً أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وليس لاحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده ، وانما همنا ما أمانا . وأما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة ، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لانفسنا أكثر مما نحن عليه . . »

وامثال ذلك كثير في تاريخ الاسلام حتى لقد كان المسلم يقاتل أباه وأخاه اذا كانا مشركين ولا يبالي . . بل هو يعتقد أنه يفعل خيرا . ويؤيد ذلك ما جاء في تواريخ الاديان الاخرى فان الانسان لا يستهلك في أمر ويعرض حياته للخطر من أجله الا اذا كان من قبيل الدين ، وفي أحاديث الشهداء عند النصارى وسائر الاديان الاخرى ما يكفى

٢ - خصب البلاد المفتوحة

وقد زاد في رغبة العرب في فتح الشام والعراق ومصر ما علموه من خصب تلك الارضين وكثرة خيراتها ، وبلادهم قاحلة لا تفي بمطالبهم بعد تلك النهضة الدينية . وكانت بعض القبائل التي دخلت الاسلام ، تحارب لمجرد الكسب من الاسلاب والغنائم ، يستدل على ذلك مما اظهروه بعد غزوة حنين والطائف ، فقد كانت الاموال كثيرة والغنائم غزيرة كما تقدم ، فلما فرغوا من الحرب ورد السبايا « ركب (النبي) وتبعه الناس يقولون يا رسول الله قسم علينا فيأنا من الابل والغنم ، حتى الجأوه الى شجرة فاخطفت عنه رداءه فقال : ردوا على ردائي أيها الناس ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما الفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا » (*)

ما الذى ساعدهم على الفتح ؟

ذلك ما جرا العرب على الفتح ، اما ما ساعدهم عليه فهناك تفصيله :

١ - نشاطهم وخفة احمالهم

لانهم اهل بادية تعودوا خشونة العيش فأصبحوا لا يبالون بالجوع ولا العطش،

(*) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ص ١٢٤ - ١٢٥

إذا سافر أحدهم الى حرب لا يحمل معه شيئاً يثقل كاهله أو يشغل بغيره وقد لا يحملون طعاماً وإنما يقتاتون بما يكسبونه بالغزو في أثناء الطريق وللابل فضل كبير في تغلب العرب ، لأنها كانت تقوم عندهم مقام المركبات والخيول والماشية عند الروم . فالعربي يركب ناقته ويحمل عليها أثقاله ويفتدى من لبنها ويستريح في ظلها . وهي تقتات بالعشب في الصحراء ولو كان يابساً وتصبر على الجوع وتحتمل الظمأ أياماً . وأما الرومي أو الفارسي فلا يستطيع الانتقال الى الحرب الا بالاحمال والانتقال من المؤونة والذخيرة مما لا يقوى على حمله الا المركبات ، والمركبات تحتاج في جرها الى دواب ، والدواب تحتاج الى طعام ومياه . ويذكرنا ذلك بما شاهدناه في حرب الانجليز وعرب السودان في أثناء الحملة النيلية التي انفذوها سنة ١٨٨٤ لانقاذ غردون باشا من الخرطوم ، فقد كان الانجليز لا يستطيع الانتقال الا ومعه الاحمال من البقسماط واللحوم المطبوخة والسكر والشاي والبن والشمع وفناطس الماء واحمال الخيم والامتعة واطعمة الخيل ، وغير ذلك مما يحتاج الى الدواب الكثيرة . فكان رجال حملة « المتمة » ١٤٠٠ وجمالها اربعة آلاف ومعها الجمالة والخدم ، وهي عبء ثقيل على كاهل الحملة . وأما السوداني فقد كان في غنى عن كل ذلك بجراب فيه شيء من الذرة الناشفة يتأبطه ويمشي

٢ - اعتقادهم بالقضاء والقدر

وان الانسان لا يموت الا اذا جاء اجله ، فاذا امت ساعته مات ولو كان على فراشه ، واذا تأخرت فلا يصاب بسوء ولو كان تحت مرأف السيوف . وكان هذا الاعتقاد متمكناً فيهم وهو علقه معظم ما كان يبدو من بسالتهم في وقائعهم المشهورة ، وفي تاريخ الفتح شواهد كثيرة على ذلك

٣ - مهارتهم في ركوب الخيل ورمي النبال

فقد كانوا أمهر من الروم والفرس فيهما ، وخيل العرب انجب من خيول أولئك ، وكانت اكثر وقائهم بالمبارزة بين الافراد على جاري العادة في تلك العصور ، فيختارون فارساً من كل جند فيتبارزان ، فمن غلب كان أصحابه الغالبين . وكان العرب يغلبون في المبارزة على الاكثر ، وكثيراً ما كان نصرهم متوقفاً على غلب في مبارزة أو رمي بنبله صائبة اذا أصابت رئيس الجند احبطت رجاله . وسيأتى تفصيل ذلك في كلامنا عن السلاح

٤ - رجال صدر الاسلام

اختص صدر الاسلام برجال توفرت فيهم خصال النصر ، وقد امتاز ذلك العصر بنبوغ الرجال العظام كما امتاز عصر نابليون الكبير بقواد لم تلد فرنسا مثلهم ، وقد نبغ قواد نابليون على اثر الثورة الفرنسية ، كما نبغ قواد الصدر

الاول للاسلام على اثر واقعة الفيل التي سطا بها الاحباش على الكعبة ، وحركت ساكن العرب فأظهرت قواهم بالضغط والاحتكاك كما تقدم . فكان الله قدر للعرب النصر فاخصهم بقواد من نخبة رجال العالم في الحرب والسياسة والدهاء والحكمة ، كخالد بن الوليد وخالد بن سعيد وأبي عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبي وقاص ويزيد بن أبي سفيان وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب ، ممن تغلب عليهم البسالة ويحسنون قيادة الجند ، ومثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه من أهل الدهاء والسياسة وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب من أهل الحزم والتقوى وصدق العزيمة

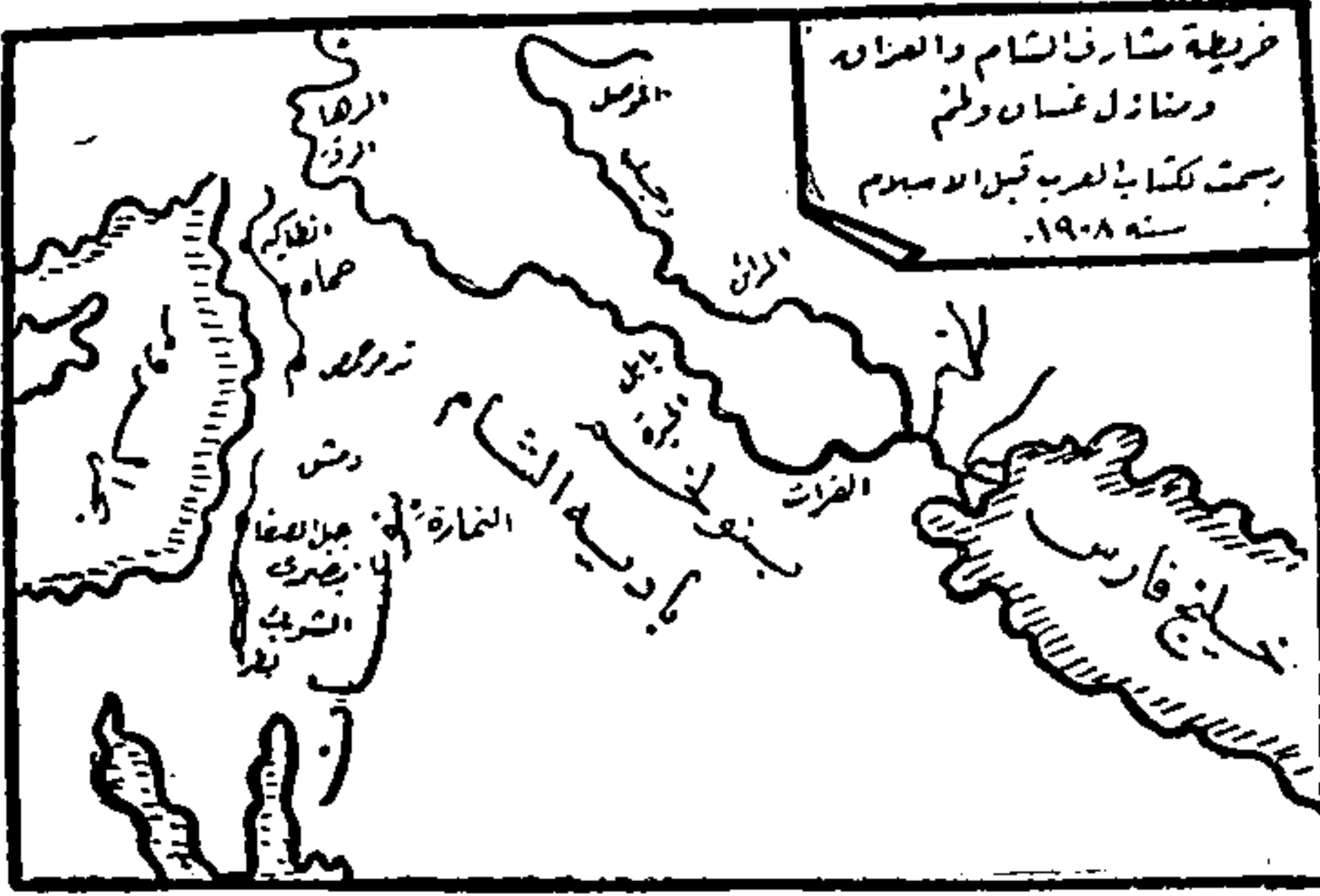
فنبوغ هؤلاء الرجال وامثالهم في اوائل الاسلام ، كان من أكبر العوامل في سرعة نجاحه ، وكان المسلمون يعلمون ذلك حتى ان النبي نفسه قال في أول ظهور الدعوة : « اللهم أيد الاسلام بأبي جهل بن هشام » ولما أسلم حمزة وعمر ابن الخطاب قال : « قد تأيد الاسلام بحمزة وعمر » . وأمثال أبي بكر وعمر وعلى وابن العاص ومعاوية وخالد لو ظهروا اليوم لكانوا من عظماء الناس الذين يتمثل العالم المتمدن بعظمتهم ، كما يتمثل الافرنج بيونابرت وكرومويل وبسمارك وغلادستون وغيرهم ، غير من ظهر من رجال الاسلام في عصر الامويين والعباسيين

٥ - الصبر والمطاولة

أصبح العرب بعد فشلهم في واقعة مؤتة وقد عرفوا قوة الروم وخبروا كثرتهم ، وعلموا أن قتالهم غير قتال أهل البادية الذين كانوا يغزونهم ببلاد العرب ، فلما تحققوا ذلك جعلوا عمدتهم في حروبهم الصبر والمطاولة . والصبر هين عليهم لاكتفائهم بالشيء اليسير من الطعام واللباس كما تقدم ، واذا قل زادهم عمدوا الى الغزو واقتاتوا بما تصل اليه أيديهم من الماشية أو الحنطة أو غيرهما

وكانت حروبهم في اول خروجهم الى الشام والعراق أشبه بالغزو منها بالفتح ، بل تلك كانت قاعدتهم في أكثر فتوحهم ، كانوا يرسلون جماعة منهم لغزو البلد الذي يريدون فتحه - وقد لا يكون قصدهم الفتح في بادئ الرأي - فيحومون حول البلد يغزون وينهبون حتى تتاح لهم فرصة للفتح فيفتنمونها . كذلك فعلوا في كثير من فتوحهم في صدر الاسلام وبعده ، فان موسى بن نصير انما أرسل طارقا الى سواحل اسبانيا سنة ٩٢ هـ غازيا لا فاتحا ، فاتفت له أسباب ساعدته على الفتح تشبه الأسباب التي ساعدت العرب على فتح الشام فدخل طارق الاندلس . فلما بلغ موسى ذلك استغربه وشق عليه ان لا يكون هو الفاتح فبعث يستوثق منه ، الى آخر ما كان بينهما . هكذا كان شأنهم قبل ذلك في فتح افريقية وما يليها

كان الاسلام في اول امره نهضة عربية ، والمسلمون هم العرب حتى اصبح اللفظان مترادفين في كثير من الاحوال . وكان العرب اقرب الامم للدخول في الاسلام لما اختصهم به دون غيرهم من الافتخار . وتمكن ذلك من الاذهان خصوصا لما امر عمر باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب



خريطة مشارف الشام والعراق

والمسلمون لم يهاجموا مدن الشام والعراق راسا ، ولكنهم قضوا زمنا طويلا يفترون ضواحيهما مما يلي البادية ، ومساكن تلك البادية عرب مثلهم وفيهم الفساسنة في بصرى وغيرها من حوران على حدود الشام ، والمناذرة بنو لخم في الحيرة على حدود العراق . وكان الفساسنة عمال الروم في الشام ، وبنو لخم عمال الفرس في العراق . ولم يكن هؤلاء العرب يحبون الروم ولا الفرس ، وانما كانوا يخضعون لهم قسرا أو طمعا في الغنائم اذا حاربوا معهم . وخصوصا بنو لخم ، فقد كان بينهم وبين الفرس ضغائن على اثر مقتل النعمان بن المنذر الملقب ابا قابوس . فان كسرى ابرويز قتله وحصلت بسبب قتله واقعة شهيرة بين الفرس والعرب في مكان يقال له « ذو قار » وبه عرف الواقعة . فيها انهزم الفرس شر هزيمة ، وهي اعظم واقعة انتصف فيها العرب من العجم . ومن غريب الاتفاق انها حدثت في السنة التي جرت فيها واقعة بدر الكبرى ، والعرب فازوا في كليهما

وظلت الضغائن بين المناذرة والفرس حتى جاءهم المسلمون ، وعرض عليهم خالد بن الوليد الاسلام او الجزية او السيف ، فاخاروا الجزية وصالحوه على مال يدفعونه كل عام . ووقع نحو ذلك في بصرى وغيرها من بلاد العرب

والنصارى في ضواحي الشام ، وفي غيرها من بلاد العرب في حدود البادية بين العراق والشام ، كعين التمر وفيها قوم من كندة وايباد ، وقرقر وهو ماء لبني كلب ، وغيرهم من القبائل التي حاربها خالد في أثناء قدومه من العراق الى الشام . فكانت العرب أقرب سائر الامم الى نجدة الاسلام للاسباب التي قدمناها ، ولأسباب أخرى تختص بكل قبيلة على حدة ، كحقد عرب اليمن على الفرس منذ فتحوا بلادهم وحكموهم قبل الاسلام ، ثم تقلص ظلهم عنهم وانحسر الى البحرين . وكانت ربيعة تقيم في الجزيرة ببلاد الفرس ، وكانوا عوناً للعرب المسلمين على الفرس نكاية في هؤلاء

وكثيراً ما كان هؤلاء العرب وغيرهم من أهل الشام الاصلين يضافرون المسلمين على الروم فراراً من أداء الجزية ، كما فعل الجراجمة في جبل اللكام . فان حبيب بن مسلمة الفهري غزاهم فبادروا بطلب الامان ، فصولحوا على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية . . ودخل من كان في مدينتهم من تاجروا جيروتابع من الانباط وغيرهم من أهل القرى في هذا الصلح فسموا الرواديف

٧ - خط الرجعة

ثم ان العرب كانت قاعدتهم في حروبهم هناك المحافظة على خط الرجوع ، فلا يقاتلون الفرس أو الروم الا وهم في حيطه . وكان حفظ ذلك الخط هيئنا عليهم لانهم كانوا يجعلون الصحراء وراءهم وهي ملجأهم ، فاذا اندحروا لا يستطيع الروم أو الفرس اللحاق بهم اليها ولا يهملهم ذلك اللحاق ، ومتى عاد الروم الى مساكنهم عاد العرب عليهم . وهكذا حتى يقلقوا راحتهم ويضعفوهم بالمطاوله والصبر ، ولو كانوا أقل عددا منهم ، وشأنهم في ذلك مثل شأن البوير مع دولة الانجليز لما حاربوها سنة ١٩٠٢ - كانوا نفراً قليلين فأقلقوا راحة الجيوش الانجليزية بضع سنوات ، وهؤلاء أكثر عددا وعدة وعندهم الحصون والمعقل . ولكن البوير انما أتعبوهم بالمطاوله والسطو حيناً بعد حين ، ثم الرجوع الى مكانهم بين الجبال حيث لا يستطيع الانجليز الذهاب اليها الا تحت الخطر الشديد (*)

وكانت هذه القاعدة مرعية عند العرب يحرضون بعضهم بعضاً عليها ، ومن هذا القبيل قول المثني بن حارثة الشيباني ، أحد قواد العرب لما علم بقدوم المسلمين لمحاربة الفرس في العراق فبعث اليهم يقول : « قاتلوا الفرس على حدود ارضهم على أدنى حجر من ارض العرب ولا تقاتلوهم بعقر دارهم ، فان يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم ، وان كانت الاخرى رجعوا الى فيئة ثم

(*) الاشارة هنا الى حرب البوير

يكونون أعلم بسبيلهم وأجرا على أرضهم الى أن يرد الله الكرة عليهم «
ويؤيد ذلك رغبة الخليفة عمر في بقاء المواصلة بين مركز الخلافة في المدينة
وبين سائر اطراف المملكة الاسلامية بحيث لا يكون بينه وبين سائر المسلمين
ماء . فقد كتب الى قواده في الاطراف بعد فتح فارس ومصر - وكان سعد
ابن ابي وقاص مقيما في مدائن كسرى وعمرو بن العاص في الاسكندرية -
« لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى اردت أن أركب اليكم واحلتي حتى أقدم
عليكم قدمت » فتحول سعد الى الكوفة وتحول عمرو الى الفسطاط واقاما
بجندهما في مضارب الخيام . ثم صارت تلك المضارب مدنا بعد ذلك

٨ - واقعة اليرموك وواقعة القادسية

تلك كانت القاعدة في حروب العرب بالشام والعراق ، ثم جرت واقعة
اليرموك الشهيرة (١٣ رجب ١٥ هـ - ٢٠ أغسطس ٦٣٦ م) التي بدأت في
حياة ابي بكر . واليرموك واد بناحية الشام بجوار بصرى يسيل فيه الماء
حتى يصب قرب بحيرة طبرية واسمه اليوناني (Hieromax) (*) عربيه العرب
« يرموك » ، وعلى ضفاف ذلك الماء حصلت تلك الواقعة الهائلة وهي ذات
شأن عظيم في فتوح الشام ، لان فوز المسلمين فيها نشطهم على مواصلة
الفتح وأضعف عزائم الروم

وإذا تأملت في تفاصيلها رأيت سبب الفوز فيها سداد رأى عمرو بن العاص
وشجاعة خالد بن الوليد ، وذلك ان الروم لما رأوا ما كان من مناواة العرب
لهم في ضواحي الشام ومطاولتهم، جمعوا قواتهم وعزموا على الفتك بهم دفعة
واحدة . وكان المسلمون متفرقين في ضواحي الشام والعراق ، فكتابوا بشأن
ذلك فقال عمرو بن العاص : « ان الرأى عندي لمثلنا الاجتماع ، فاننا اذا
اجتمعنا لا نغلب من قلة وان تفرقنا لا تقوم كل فرقة بمن استقبلها لكثرة
عدونا » فكتبوا الى ابي بكر بذلك فأجاب مثل جواب عمرو . فاجتمع جند
المسلمين من العراق والشام فلاقاهم الروم في اليرموك ، وعددهم على قول
ابن الاثير ٢٤٠ الفا والمسلمون ٥٠ الفا (***) بقيادة خالد بن الوليد ، فخطب
خالد فيهم خطبا حرضهم فيه على الثبات وجعل الجند كراديس على كل
كردوس قائد ، ولم تكن الحرب بالكراديس معروفة عند العرب كما سترى .
والظاهر ان خالدا عبأ الجند تلك التعبئة لمقاومة الروم بمثل نظامهم
وشعر خالد بتهيب المسلمين وخوفهم من كثرة الروم ، وسمع احدهم

(١) ورد الاسم بصور مختلفة : Hieromix, Hieromice

(*) اقرب الآراء الى الصحة ان عدد البيزنطيين كان خمسين الفا وعدد المسلمين خمسة
ومشرين الفا

Leone Caetani, Annali dell'Islam III/II p.24-81

انظر مناقشة المراجع في :

يقول : « ما اكثر الروم واقل المسلمين ! » فقال له : « ما اقل الروم واكثر المسلمين ! انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان » . وبينما هم في القتال جاءهم الخبر بموت ابي بكر ، فكنموه وصبروا صبر الرجال لعلمهم ان الفشل في تلك الواقعة يذهب بكل اعمالهم ، فقاتلوا قتالا شديدا حتى ان النساء كن يقاتلن بالعصي ، فانتصر المسلمون . وكان هذا النصر مقدمة سائر ما نالوه في الشام . وكذلك واقعة القادسية في العراق ، فقد كانت فاتحة نصرهم على الفرس . وقد صبروا في هذه الواقعة صبورا جميلا وطال امرها كثيرا (*)

٩ - نعمة الرعايا على حكامهم

قد علمت ما كان من انقسام الروم والفرس فيما بينهم ، وانحطاط الحالة الاجتماعية في بلادهم ، فضلا عما كان من الشحنة بين الرعية اهل البلاد الاصلين وحكامهم ، وخصوصا في مصر والشام . فان المصريين الاصلين وهم الاقباط كانوا قد عانوا سلطة الاجانب اجيالا متطاولة (الفرس فال يونان فالرومان) وهان عليهم الانتقال من سلطان الى سلطان فرارا من الظلم او الضغط . وكذلك اهل الشام ، وهم اخلاط من الآراميين والسريان والانباط واليهود وغيرهم ، وكان حظهم من ذلك مثل حظ جيرانهم المصريين وقد يسوا من الاستقلال مثلهم ، فلا يهمهم اذا كان حاكمهم روميا او عربيا وانما يهمهم ان يكون لهم راحة تحت سلطانه . وربما فضلوا العرب لانهم اقرب اليهم لغة ونسبا واخلاقا . وزد على ذلك ان المرء من طبعه يرجو النفع من البعيد اكثر من القريب . ويتوسم الخير في القادم المجهول اكثر مما يتوسمه في الحاصل المعلوم ، وعلى الخصوص اذا كان الفرق بينهما ظاهرا مثل ظهوره بين الروم والعرب . فالروم كانوا يومئذ في دور انحطاطهم وقد فسدت احكامهم وآدابهم ، والعرب في دور نموهم وفي ابان نهضتهم وقد جعلوا العدل والمساواة وجهتهم ، فضلا عما كان بين اهل هذين القطرين وبين حكامهم الروم من الانقسامات الدينية التي قدمناها ، حتى هان عليهم الرضوخ لاية دولة كانت ، ولم يروا بأسا في ان يكونوا عوننا لها على حكامهم

١٠ - اليهود

كان الروم مع انقسامهم الى طوائف واحزاب قد اجمعوا على اضطهاد

(*) هناك خلاف كبير في تحديد تاريخ موقعة القادسية ، وفيما اذا كانت قد وقعت سنة ١٤ او ١٥ او ١٦ هـ (٦٣٥ - ٦٣٦ - ٦٣٧ م .) ولكن الثابت انها وقعت في الربيع ، ويرجح فلهاوزن انها كانت سنة ٦٣٦/١٥ اما كابتاني فيرى انها كانت سنة ٦٣٧/١٦

انظر : Wellhausen, Skizzen und Vorarbeiten IV (1899) pp. 68-83

Streck, Babylonien nach den Arabisch Geographen I (Leiden 1900) p. 2, 5, 11

Streck, Babylonien nach den Arabisch Geographen I (Leiden 1900) p. 2, 5, 11

Caetani, Annali dell'Islam, III, 629-713

اليهود كما تقدم . ولما جاء المسلمون لفتح الشام كانت البغضاء قد بلغت أقصاها حتى هان على اليهود ان يخسروا اموالهم - مع رغبتهم في الاموال - في سبيل الانتقام من الروم . وفي الواقع انهم كثيرا ما كانوا عوناً للعرب عليهم وكانوا يدلونهم على عورات المدن ويدخلونهم اليها ، كذلك فعلوا بقيسارية بعد ان حاصرها المسلمون سبع سنين ولم يقووا عليها لقوة جندها ومناعة حصونها ، فكان يحرس اسوارها كل ليلة مائة الف جندي ، وكان قائد المسلمين هناك يومئذ معاوية بن ابي سفيان ، فجاء يهودي من اهلها اسمه يوسف (*) دلهم على طريق في سرب فيه الماء الى حقو الرجل على شرط ان يؤمنوه واهله ، فدخل المسلمون المدينة وفتحوها

وقس على ذلك مدنا أخرى سلمها اليهود نكاية في الروم حكاهم ، وخصوصا في الاندلس للاسباب التي قدمناها

١١ - عدل المسلمين ورفقهم وزهدهم

كان لتلك المناقب تأثير عظيم في من يدخل تحت سلطان المسلمين من رعايا الروم أو الفرس ، وتلك كانت الوصية الاولى التي يتزودون بها اذا خرجوا للفتح ، واليك وصية ابي بكر لاسامة يوم خروجه بالمسلمين الى الشام قال : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ، ولا تعقروا نخلا او تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لله . وسوف تمررون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له »

وفي حكاية بناء القسطنطين ورفق عمرو بن العاص باليمام الذي كان معششا في فسطاطه ما يدل على رغبتهم في الرفق

١٢ - التسوية بين الناس

ومن هذا القبيل التسوية بين طبقات الناس رفيعهم ووضيعهم ، ومن أوضح الأدلة على ذلك ما كان من أمر جبلة بن الايهم ملك غسان لما اسلم في زمن عمر بن الخطاب وجاء المدينة بخيله ورجله ، وقد فرح عمر باسلامه وخرج اهل المدينة للنظر الى موكبه وفيه الخيول المعقودة اذناها وفي اعناقها سلاسل الذهب ، وعلى رأس جبلة تاج مرصع بالجواهر . على ان ذلك لم يمنع عمر من اقامة الحد عليه ، لما وطىء احد بنى فزاره وهو يطوف بالكعبة فرفع جبلة يده وهشم انف الفزاري ، فاشتكاه الفزاري الى عمر فبعث الى جبلة فأتاه فقال له : « ما هذا ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، انه تعمد حل ازارى ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف » . فقال

(*) كذا ورد الاسم عند البلاذري ، دون زيادة (القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٤٧)

عمر : « قد أقررت على نفسك ، فاما ان ترضى الرجل واما أن اقيده منك فأمره بهشم أنفك كما فعلت به » فقال : « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟ » فقال : « الاسلام جمعك واياه ، فليست تفضله الا بالتقى والعافية » (*) فلم ير جبلة مخرجا من حكم عمر الا بالفرار ، فهرب الى القسطنطينية ولم يرجع الى بلاد العرب

ومثلها حكاية القبطى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص وذهب الى عمر بن الخطاب فى المدينة فاستعاذ به ، فبعث عمر الى عمرو فاستقدمه وابنه ، فلما جاء أعطى الخليفة للقبطى سوطا وأمره أن يضرب ابن عمرو فضربه ، وأراد أن يضرب اياه عمرووا فقال عمرو : « انما ابنى الذى ضربه » ، فقال له : « يا عمرو ، منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا ؟ »

ولا يخفى ما كان لهذه المناقب من التأثير فى تعجيل الفتح ، لان اهل الشام والعراق ومصر كانوا يشكون استبداد حكامهم فيهم واحتقارهم اياهم ، فلما علموا بعدل المسلمين ورفقهم مالوا اليهم

١٣ - استبقاء الناس على احوالهم

كان العرب اذا فتحوا بلدا أقروا أهله على ما كانوا عليه من قبل لا يتعرضون لهم فى شىء من دينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم المدنية أو القضائية أو سائر احوالهم . كذلك فعلوا بمصر لما فتحها عمرو بن العاص ، فانه جعل أمور الاقباط لانفسهم يحكم فى مصالحهم قضاة منهم ، وفعلوا مثل ذلك فى معظم ما فتحوه من البلاد

وكان المسلمون يفرضون على من يقبل البقاء على دينه من أهل البلاد المفتوحة ضريبة تسمى الجزية فى مقابل حمايتهم وتأمينهم ، وكان الروم قد تعودوا أداء مثل هذا المال للعرب المقيمين فى حدود الشام من الفساسنة وغيرهم ، يبتاعون به نصرتهم على الفرس ، كما كان الفرس يؤدون المال الى عرب العراق لينصروهم على الروم

واما العرب فقد اشترطوا مع دفع المال الخضوع لهم عملا بنص الآية : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ، وكانوا مع ذلك يتعهدون بحماية الذين يدفعون الجزية أى يعتبرونهم فى ذمتهم ، ولهذا فقد سموا أهل الذمة . والغالب أن يراد بها حماية أهل البلاد الاصيلين من حكامهم الروم ، لانهم كانوا يريدون الخروج من طاعتهم وهم يخافون سطوتهم

وترى ذلك واضحا فى كلام عبادة بن الصامت للمقوقس حاكم مصر ولسائر

(*) هذه رواية الطبرى ، ورواية ابى الحسن احمد بن يحيى البلاذرى تختلف من ذلك . انظر فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٢٢ ، ص ١٤٢

القبط لما دعاهم الى الاسلام فقد قال لهم : « وان أبيتم الا الجزية فأدوها الينا عن يد وانتم صاغرون . وان نعاملكم على شيء نرضى به نحن وانتم في كل عام ابدا ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وتعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم واموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا . . . الخ » (*) . ومثله كتاب خالد بن الوليد الى ابن نسطونا في العراق ، وغيره من كتب العهود لاهل الذمة وهي كثيرة . ويؤيد ذلك ان المسلمين لما دعوا الى الاجتماع في اليرموك ، وكانت حمص في ذمتهم ، ردوا الى أهلها ما كانوا اخذوه منهم من الجزية وقالوا : « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم » ، فقال أهل حمص : « لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والظيم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » وكثيرا ما كانوا يعفون غير المسلمين من الجزية اذا تعهدوا بالقتال معهم ، واكثر ما يكون ذلك مع العرب النصارى ، ولكنه وقع مع غير العرب كالجراجمة (**)

وغيرهم فلم يكن استيلاء المسلمين ثقيل على الناس ، بل كان الاهالي كثيرا ما يفضلونهم على حكامهم الاصليين ، والجزية التي كانوا يتكفلون دفعها الى المسلمين اقل كثيرا من مجموع الضرائب التي كانوا يؤدونها الى الروم أو الفرس

الخلاصة

وجملة القول أن المسلمين لم يجزئهم على الفتح ويساعدهم عليه الا الدين وشدة الاعتقاد بالنصر ، مع ما كان من مهارتهم في الفروسية ورمي النبال ، وقوة أبدانهم ونشاطهم من عيشة البداوة ، مع المطاولة في الحرب ونسوغ افراد منهم في الراى والشجاعة ، فضلا عن عدلهم ورفقهم واختلال احوال الروم والفرس . فلم تمض بضع عشرة سنة حتى فتحوا الشام وفلسطين ومصر والعراق وفارس في زمن عمر بن الخطاب ، وتواصل الفتح في ايام عثمان ابن عفان ومن بعده

(*) انظر : ابن عبد الحكم ، طبعة ماسيه ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ٦٢ ، وانظر الحديث الكامل بين عبادة والقوقس ابتداء من ص ٦٠

(**) الجراجمة قوم كانوا يعيشون على مقربة من انطاكية على جبل يسمى جبل اللكام بين قرنتى بياس وبوقا وكانت لهم مدينة تسمى الجرجومة ، ومن هنا كانت تسميتهم ، وكانوا نصارى يخضعون لوالى انطاكية وبطريقها ، وعندما وصلت جيوش المسلمين الى موضعهم اثناء فتح الشام عاهدوا حبيب بن مسلمة الفهرى على ان يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام ، والا يؤخذوا بالجزية

البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٦٢ - ١٦٤

ويذهب لامنس الى انهم هم المرادائيون

cf: H. Lammens, Etude sur le règne du Calife Umayyade Moawia I, p. 17.

عود الى الخفاء الراشدين

الفتنة

وفي زمن عثمان حدثت الفتنة ، ثم استشرى أمرها بمقتله سنة ٣٥ هـ ففرت طور التاريخ الاسلامي . وسببها أن عمر لما طعنه أبو لؤلؤة سنة ٢٣ هـ وأحس بدنو الاجل أهمله أمر المسلمين بعده ، فعمد الى طريقة لانتخاب من يتولاهم بعده بالاكثارية ، فسمى نفرا من الصحابة فيهم عثمان بن عفان وطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام وعلى بن ابي طالب وأوصاهم أن يجتمعوا في بيت عائشة زوج النبي ويختاروا واحدا منهم يتولى الخلافة بعده ، فاختاروا عثمان بن عفان وهو من بنى أمية وأكبرهم سنا

وكان بنو أمية أوفر بطون قريش عددا وقوة ، لكن اكثرهم لم يدخلوا في الاسلام الا بعد فتح مكة وبعد أن أسلم أبو سفيان زعيمهم ، فلم يكن لهم جهاد في الغزوات التي قامت عليها دعائم الدولة الاسلامية . فلما تولى أبو بكر لم يولهم الاعمال ، الا قليلا منهم ، وربما كان السبب في ذلك انه لم يكن يثق بصدق اسلامهم لحدثة عهدهم فيه ، أو لانهم أسلموا مضطرين ، فطالبوه بزيادة نصيبهم في الولايات فقال لهم : « أدركوا اخوانكم في الجهاد » وانفذهم لحروب الردة ، ثم بعثهم عمر لحروب الشام ، وهم مع ذلك يرون أنهم أولى بطون قريش بالسلطة ، لانهم أعز من بنى هاشم جانبا وأكثر عددا ، وكانت القيادة في الحروب قبل الاسلام اليهم كما رأيت في كلامنا عن مناصب الجاهلية ، وزاد نفوذهم بعد موت أبي طالب عم النبي . وكانت بين الهاشميين والامويين منافسة متصلة بزمن الجاهلية

فلما تولى عثمان بن عفان اعتزوا به ، وكان رجلا صالحا لكنه كان يؤثر اقرباءه فجعل يوليهام الاعمال في الامصار ويعهد اليهم بمصالح الدولة ، فشق ذلك على الصحابة الذين كانت الاعمال اليهم من قبل . وحدثت أسباب أخرى يطول شرحها آلت الى نقمة أهل الامصار على عثمان (*) ، فجاءوا الى المدينة وفيهم أهل مصر والكوفة وأهل البصرة وطلبوا اليه أن يخلع نفسه ، فأبى فقتلوه وهو يقرأ القرآن فتلطح قميصه بالدم

على وطلحة والزبير

فلما قتل عثمان اختلفوا في من يخلفه من كبار الصحابة ، وكان غرض أهل مصر في على بن ابي طالب ، وغرض أهل البصرة في طلحة بن عبيد الله ، وغرض أهل الكوفة في الزبير بن العوام — وهم أكثر الصحابة تطلعا الى الخلافة —

(*) انظر بيان المآخذ التي وجهها المسلمون الى عثمان وكانت سببا في الثورة عليه في : الرياض الناضرة في مآثر العشرة لمحج الدين الطبري (القاهرة ١٣٢٧) ج ٢ ص ١٢٧ - ١٥٢ ، ومناقشة الدكتور طه حسين لذلك في كتاب « الفتنة الكبرى » ج ١ : عثمان (القاهرة ١٩٥٢)

وكان أكثر مسلمي الشام مع بنى أمية ، وهم يريدونها لعثمان أو من يخلفه منهم . وأما أهل المدينة فكانوا يريدونها لعلي بن أبي طالب ، جريا على عاداتهم في نصره بيت النبي منذ هاجر النبي إليهم . وانضم إلى أهل المدينة في نصره علي ربيعة واليمن وغيرهما . فكان دعاة علي أكثر عددا من سائر الأحزاب ، لكنهم كانوا لفيما من قبائل شتى وأكثرهم من المدينة . وبين أهل مكة والمدينة منافسة قديمة تمكنت بعد الإسلام ، لما رأته من نصره أهل المدينة للمسلمين بعد الهجرة ، حتى تأيد أمرهم بهم وعادوا ففتحوا مكة . وصارت المدينة عاصمة المسلمين وتحولت إليها التجارة والنفوذ وضعف أمر مكة . فلما بايع أهل المدينة عليا بايعه أيضا طلحة والزبير مكرهين ، وخرجا إلى مكة فنصرهما أهلها نكايه في أهل المدينة . ثم شخشا إلى العراق للاعتزاز بأحزابهما هناك فتبعهما علي بجنده . فجرت بين الجيشين واقعة الجمل الشهيرة بجوار البصرة ، فقتل فيها طلحة والزبير وخلصت الخلافة لعلي . فنقل عاصمة المسلمين من المدينة إلى الكوفة ، وقد أخطأ في تخليته عن أحزابه بالمدينة واعتماده على أهل العراق

علي ومعاوية

وظن علي أن الجو قد خلا له ، وما درى أن في الشام رجلا عظيما يطلب البيعة لنفسه - نعى معاوية بن أبي سفيان - وقد رأيت أن أباسفيان وأولاده لم يدخلوا في الإسلام إلا بعد أن يئسوا من الفوز ، فلما قتل عثمان كان معاوية بالشام وحوله نخبة الرجال من قريش ، وكلهم يستهلكون في سبيل نصرته لما ذكرناه من كثرة بنى أمية وقوتهم من أيام الجاهلية . وقد شق عليهم في أول الإسلام أن تكون النبوة في بنى هاشم فنقموا عليهم . ولما خرج بنو هاشم من مكة بالهجرة خلا الجو في مكة لبنى أمية ، وصارت الرياسة إليهم في انشاء محاربتهم المسلمين في وقائعهم المشهورة في بدر وغيرها ، ورئيسهم في كل ذلك أبو سفيان والد معاوية . ولما تولى أبو بكر وأرسلهم للجهاد تولى ولاية الشام منهم يزيد بن أبي سفيان ، ثم مات فخلفه أخوه معاوية في زمن عمر ، فلما تولى عثمان أقره عليها ومعظم جنده من قريش . فاتصلت رياسة بنى أمية - وخصوصا بيت أبي سفيان - على قريش في الإسلام كما كانت قبله ، واستقل بنو هاشم بأمر النبوة ونبذوا الدنيا (*)

التحكيم

فلما قتل عثمان رأى معاوية سبيلا لالتماس الخلافة ، فعرض قميص عثمان الملطخ بالدم في مسجد دمشق ودعا الناس للمطالبة بثاره لأنه من رهطه ،

(*) انظر بيان هذه النقطة بالتفصيل في « النزاع والتخادم بين بنى أمية وبنى هاشم » لتقى الدين المقرئى طبعة لقااهرة

وأتهم عليا وأصحابه بقتله . ثم رأى الحرب منتشرة في العراق بين علي وطلحة والزبير ، فظن هذين يكفيانه مؤونة الحرب . فلما قتلوا وفاز علي عمدا معاوية للمطالبة بدم عثمان ، واستنجد رجالا من دهاة العرب فيهم عمرو بن العاص ، وكان عثمان قد عزله عن مصر ، فاستدناه معاوية ووعدته بولاية مصر اذا هو فاز . فحارب معه في واقعة صفين الشهيرة سنة ٣٧ هـ وكادت رجال علي تظفر بمعاوية وأصحابه فيها ، فاستنبط ابن العاص حيلة أخرجت الخلافة من اهل البيت الى بنى أمية (*)

وذلك انه أمر رجال معاوية برفع المصاحف على أسنة الرماح اشارة الى طلب الهدنة للمخابرة ، فانخدع أصحاب علي بذلك فألحوا عليه أن يوقف القتال ففعل . وبعد المخابرة توافقوا على التحكيم ، فاختر معاوية عمرو بن العاص ، واختر أصحاب علي ابا موسى الاشعري ، وشتان بين الرجلين في الدهاء والذكاء . ورضى الفريقان بما يحكم به هذان وعينوا يوما لسماع الحكم ، فاحتال عمرو على ابي موسى حيلة غلب بها على عقله . اظهر انه يريد خلع علي ومعاوية معا ليختار المسلمون واحدا سواهما . فقبل ابو موسى ذلك . لكن عمروا طلب اليه أن يتكلم قبله لانه أرفع منه منزلة واكبر سنا . فانخدع ابو موسى فوقف وقال : « أيها الناس ، انا قد نظرنا في أمر هذه الامة فلم نر أصلح لامرها ولا ألم لشعثها من أمر أجمع رأيت ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ويولى الناس أمرهم من أحبوا . واني قد خلعت عليا فاستقبلوا أمركم وولوا من رأيتموه أهلا »

ثم وقف عمرو وقال : « ان هذا قد قال ماسمعتموه وخلع صاحبه ، وأنا اخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبي معاوية ، فانه ولي عثمان والمطالب بدمه واحق الناس بمقامه »

فلما سمع الناس ذلك أيقنوا انها حيلة قد عملت ، ولز انها آلت الى خلافة معاوية فقط لئان أمرها ، ولكنها اوجبت انقسام رجال علي عليه ، لان بعضهم

(*) لا زال حادث التحكيم موضع خلاف شديد بين المؤرخين المحدثين . والموضوع في ذاته يثير الشكوك نظرا لتضارب الروايات فيه بصورة فريدة في بابها في تاريخ الاسلام ، ونظرا لغرابة الحيلة التي لجأ اليها عمرو بن العاص . فانه يستبعد أن يكون ابو موسى الاشعري قد وافق علي خلع علي في مقابل خلع عمرو بن العاص لمعاوية ، لان معاوية لم يكن خليفة ، بل لم يكن قد طالب بالخلافة الى ذلك الحين . ويبدو من مجموع الروايات أن ابا موسى لم يكن شديد الساس لعلي بن ابي طالب وأنه كان لا يرى بأسا بتنصيب عبد الله بن عمر خليفة . انظر التفاصيل الكثيرة عند الطبري والمسعودي في مروج الذهب والتنبيه والاشراف ، واليعقوبي في تاريخه وابن سعد في الطبقات وانظر من المؤرخين المحدثين : طه حسين : الفتنة الكبرى ، علي وبنوه عباس محمود العقاد : عبقرية علي بن ابي طالب

لاموه على قبول التحكيم وخرجوا من حكمه وهم الخوارج . فأصبح على بين عدوين ، والخوارج أشدهما خطرا عليه لانه قتل بطعنة من احدهم في السنة . ٤ للهجرة في مسجد الكوفة

فبايع أهل الكوفة ابنه الحسن ، ومعاوية لا يزال يطالب بالخلافة لنفسه (*) فرأى الحسن انه لا يقوى على حربه فتنازل له عنها حقنا للدماء . فبوع معاوية في الشام وانتقل كرسى الخلافة من الكوفة الى دمشق ، وكان ذلك آخر العهد بدولة الخلفاء الراشدين

احوال الخلفاء الراشدين

نرى مما تقدم ان دولة الخلفاء تأسست على التقوى وشيدت بالعدل ، وكان خلفاؤها في أبسط أحوال العيش . وكانت الخلافة على عهدهم أشبه بالرتب الدينية منها بمصالح الدولة ، وكان احدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ (الكرباس القطن الابيض) وفي رجليه نعلان من ليف ، وحمائل سيفه ليف ، ويمشى في الاسواق كبعض الرعية . واذا كلم ادنى الناس سمع منه اغلظ من كلامه ، وكانوا يعدون ذلك من قبيل الدين ويحكمون الناس بالتقوى والعدل والقدوة الحسنة

وكان طعامهم ادنى من اطعمة فقرائهم ، وهم لم يتقللوا منه لفقر او عجز ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة للفقراء من رعيتهم ، فقد كان لعلى بن ابي طالب ارتفاع طائل من املاكه يخرج به جميعه على الفقراء

ولم يكونوا يعبأون بالمال ، وكان ذلك شأن سائر الصحابة في أيامهم . ولعل السبب في ذلك قربهم من عهد النبوة ولا تزال رهبتها آخذة بمجامع قلوبهم ، فلما بعد عهدا زالت تلك الرهبة من قلوبهم فعكفوا على مطالب الدنيا . ويظهر ان ذلك بدأ فيهم في اواخر عهد الراشدين ، فقد ذكر المسعودى انه « في أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور . فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار والالف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة ألف دينار ، وخلف ابلا وخيلا كثيرة . وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار ، وخلف الف فرس والفاة . وكانت غلة طلحة من العراق الف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة اكثر من ذلك . وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف الف

(*) فقد مؤتمر التحكيم في أذرح ، وهي محطة للقوافل بين المدينة ودمشق ، في منتصف المسافة بين معان والبتراء في يناير ٦٥٩ ، ولم يكن معاوية اذ ذاك الا واليا على الشام ، وقد ظل كذلك دون ان يكشف من طمعه في الخلافة الا في اوائل سنة ٦٦١
انظر تحقيق الاب لامنس للموضوع في كتابه :

Etude sur le règne du Calife Omayyade Mo'awia 1er (Beirut, 1907) Ch. VII

فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين الفا . وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة ألف دينار . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والاسكندرية . وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنها بالجص والآجر والساج . وبنى سعد ابن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرافات . وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم « (*)

وكانت مدة حكمهم نحو ثلاثين سنة اتسعت فيها الفتوح الاسلامية ، حتى وطئت خيل العرب ما بين افريقية في الغرب الى اقاصى خراسان في الشرق وعبرت النهر الى سمرقند

(*) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ص ٤٣٤

دولة بنى أمية

بيننا في أواخر كلامنا عن الخلفاء الراشدين كيف انتقلت الخلافة الى بنى أمية وأولهم معاوية بن أبى سفيان . وتمتاز الخلافة في عهد بنى أمية بأنها سلطنة دنيوية يحكمها خليفتها بالدهاء والسياسة ، ويستدنى الناس بالارهاب ويؤيد سلطانه ببذل الاموال . والسبب في ذلك ان مؤسس هذه الدولة لم يستطع تأييدها لولا ما في الشام من الخير الكثير والاموال الطائلة ، فلما خلصت له الخلافة عمد الى التوسعة على الناس ببذل الاموال، وكان يبذلها خصوصا لبنى هاشم تخفيفا لما في انفسهم من النعمة عليه لانزاعه الخلافة من ايديهم . وكان اذا وفد احدهم عليه بالغ في اكرامه وارضائه وقضاء حوائجه ، وكثيرا ما كانوا وهم في حضرته يذكرون حقهم بالخلافة ويعرضون باغتصابه اياها ، وهو يفضى عن ذلك ويقطع السننهم بالمال والحلم مما هو ماثور عنه

واقتبس معاوية من الروم اسباب البذخ ودواعى الترف وقلدهم في ابهة الملك، فأقام الحرس يحملون الحراب بين يديه اذا مشى او قام للصلاة ، وبنى لنفسه قصرا نصب فيه السرير (*) وأوقف الحاجب ببابه ، وبنى مقصورة في المسجد اذا جاء للصلاة صلى فيها . ولعله اتخذ هذه الوسائل خوفا من ان يفتاله احد كما اغتالوا عليا وكادوا يفتالونه هو . وقلد الروم في لبس الخز والديباج ، وهو الذى وضع البريد على مثال ما كان عند الفرس والروم وانشأ ديوان الخاتم ، مما سيأتى تفصيله

ومما استحدثه معاوية في الاسلام انه جعل الخلافة وراثية في نسله ، بعد ان كانت انتخابية (**). وهو اول من استطاع ذلك من المسلمين ، فبايع لابنه يزيد وحمل الناس على بيعته بولاية العهد ، ولا عبرة في بيعه الحسن بعد ابيه على ، فان الناس بايعوه من عند انفسهم ولم يوص له ابوه بالخلافة

الخلافة وبنو أمية

ولا بد من النظر في الاسباب التى اعانت معاوية على اخراج الخلافة من اهل البيت وحصرها في قبيلته . وكان هو وكل الذين بايعوه يعتقدون ان اهل البيت

(*) السرير هنا هو الكرسي الكبير يجلس عليه الملك أو الامير

(**) لم تكن الخلافة أيام الخلفاء الراشدين انتخابية دائما ، فقد أوصى أبو بكر لعمر ، وحدد عمر للناس ستة يختارون خليفتهم من بينهم ، وبويج لعلى في الحجاز دون غيره من بلاد الدولة الاسلامية

أحق بها منه ، والأسباب عديدة ذكرنا بعضها في ماتقدم . ومنها أيضا أن معاوية استخدم في شد أزره رجالا هم أشهر دهاة الاسلام استدناهم اليه بالاطماع ، منهم عمرو بن العاص فقد اطعمه بمصر فساعد على مبايعته كما قد رأيت ، ومنهم زياد بن أبيه وهو رجل لا يعرف أبوه ولكنه ذو دهاء وسياسة فانتحل معاوية حكاية استلحقه بها بنسبه وزعم أنه أخوه من أبيه أبي سفيان وسماه زياد بن أبي سفيان ، فكان زياد هذا من أكبر أعوان معاوية وله فضل كبير في تأييد هذه الدولة في العراق وغيره ، وابنه عبيد الله بن زياد هو الذي قتل الحسين بن علي قتلته المشهورة على يده ، وما زال آل زياد يعدون من قريش حتى رد نسبهم الخليفة المهدي (سنة ١٩٥هـ) الى رجل اسمه عبيد الرومي من ثقيف . وممن استخدمهم معاوية في تأييد خلافته المغيرة بن شعبة ، وهو الذي شجعه على مبايعة ابنه يزيد بالخلافة وحصر الخلافة في نسله وساعده أيضا في استدناء زياد بن أبيه (*)

والمؤرخون يعدون هؤلاء الأربعة أعظم دهاة العرب ، ومن ذلك قول أحدهم : « مارايت أثقل حلما ولاطول اناة من معاوية ، ولارايت اغلب للرجال ولاأبدلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبه سرا بعلانية من زياد ، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها الا بالمر لخرج من أبوابها كلها»

ومما ساعد معاوية على الفوز ان عليا لم يكن يرى الاحتيايل في الملك ولا يعرف الدهاء في السياسة . يدلك على ذلك ما فرط منه من هذا القبيل لما بويع بعد مقتل عثمان ، فجاءه المغيرة يومئذ وأشار عليه باستبقاء معاوية وسائر العمال ، كما كانوا في زمن عثمان حتى يستتب له الامر وتجتمع على بيعته القلوب وتتفق الكلمة ، ثم يفعل بعد ذلك ما شاء وهو رأى رجل حازم . فعده على من قبيل المداهنة في الدين فلم يعمل به . ونصحه أيضا مثل هذه النصيحة ابن عمه عبد الله بن عباس فأبى ، فقال له ابن عباس : « ياأمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأى في الحرب ، أما سمعت رسول الله (ص) يقول : الحرب خدعة ؟» فلم يقتنع (١) . أما المغيرة فلما رأى ضياع نصيحته معه عمد الى مسابرتة وعاد اليه في الغداة وحسن له ما رآه ، ولو عمل على برأى المفسيرة

(*) لم تكن الاطماع وحدها هي التي قربت بين معاوية من ناحية وعمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة وزياد بن أبيه من ناحية أخرى ، بل ساعد على ذلك التقريب صلات قبيلة وعوامل سياسية ترجع الى أيام الرسول صلوات الله عليه وأبي بكر وعمر . فقد كان عمرو بن العاص من بني سهم ، وهي قبيلة حليفة لبني عبد الدار وقد اشتركت معهم في صحيفة مقاطعة بني هاشم ، أما المغيرة بن شعبة فمن ثقيف وعداؤها للدعوة الاسلامية في أول أمرها معروف ، وزياد بن أبيه تلميذ المغيرة بن شعبة ، أخذ عنه وسار على منهجه ، مثله في ذلك مثل الحجاج بن يوسف

وابن عباس لما تقم هؤلاء عليه ولا خرج المفيرة ولا غيره من احزابه ولا كانت واقعة الجمل ، وربما لم يصل الامر الى بنى أمية

بذل المال

وهناك عامل ذو تأثير عظيم استخدمه معاوية وسائر بنى أمية في تأييد سلطانهم ، نعى به «المال» . فقد كانوا يصطنعون به الاحزاب ويستندون به الاعداء ، فيبدلونه للشعراء والوافدين ، ففازوا به على بنى أمية واولاده واحفاده ، على حين أن هؤلاء كانوا يعدون استخدام المال في هذا السبيل رذيلة يجلون أنفسهم عنها ، ويعتقدون أن الحق وحده يكفي لتأييد دعوتهم . وقد صح زعمهم هذا في اوائل الاسلام والناس في دهشة النبوة قبل أن تغلب عليهم أهواؤهم ، فلا نظن أهل الكوفة نكثوا ببيعة الحسين الا بالمال . حتى آل الامر الى قتله فكأنهم قتلوه بالمال . وهم لم يقتلوا عبد الله بن الزبير الا بالمال . ولو بذل عبد الله هذا المال مثلهم لكانت الخلافة في نسله لا في بنى أمية ، ولكنه استنكف أن يعطى الناس من أموال الكعبة فأضر بنفسه ، وقد صرح بذلك خصمه عبد الملك فقال وهو على فراش الموت : «ما أعلم احدا اقوى على هذا الامر (الخلافة) منى . ان ابن الزبير طويل الصلاة كثير الصيام لكنه لبخله لا يصلح للسياسة» وكان أخوه مصعب بن الزبير مع ذلك ينفق الاموال الطائلة على نفسه واهله ، حتى أنه بذل مليون درهم في زواج سكينه بنت الحسين . وكان الجند في ضيق يطلبون مالا ولا يعطى لهم . فكتب عبد الله بن همام الى عبد الله بن الزبير يقول :

بلغ أمير المؤمنين رسالة	من ناصح لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف الف كامل	وتبيت سادات الجنود جياعا
ولو لابي حفص اقول مقاتلى	وابث ما ابثتكم لارتاعا

وقد كان عبد الملك من اكثر بنى أمية بذلا للمال في سبيل تأييد سلطانه ، فان عامله الحجاج بن يوسف لما حاصر الكعبة وفيها ابن الزبير أمر رجاله ان يرموا الكعبة بالمنجنيق فتهيبوا ، فجاء بكرسى وجلس عليه وقال : «يا أهل الشام ، قاتلوا على اعطيات عبد الملك» ففعلوا

وكثيرا ما كان عبد الملك يرد اذى الاحزاب عنه بالمال ، ينثره على الناس فيشتغلون به عنه ، ومن ذلك ما فعله مع رجال عمرو بن سعيد بن الأشدق لما طمع بالشام دونه وخاف عبد الملك على نفسه فأمنه ، واحتال في استحضاره الى ديوانه وقتله غدرا ، ثم علم أصحابه بمقتله فتجمعوا حول المجلس ، وخاف عبد الملك العاقبة فأمر رجلا أن يرمى رأس عمرو الى الناس ، واخذ ابنه عبد العزيز المال في البدر وجعل يلقيها اليهم ، فلما رأى الناس الرأس والاموال اشتغلوا بالاموال وتفرقوا

وكان للمال تأثير أعظم من ذلك في أيام العباسيين، فان سلطانهم كان يقوى أو يضعف بنسبة ما يبذله الخليفة من الاموال للجند ، وخصوصا لما استبد الاتراك في أمور الدولة فكانوا يبيعون نصرتهم بالمال ، وكانوا اذا تولى الخليفة طالبوه بحق البيعة وقد يفرضون عليه رزق سنة أو غير سنة

الدهاء والحزم

ومن الاسباب التي أيدت سلطان بنى أمية أنهم كانوا يعولون في تأييده على الدهاء والسياسة والحزم ، ولو كان فيها خرق لحرمة الدين أو اهانة لاهله ، فانهم قتلوا ابن بنت النبي ، وضربوا الكعبة بالمنجنيق ، ولعنوا ابن عم النبي وصهره على المنابر ، وقتلوا من لم يلعنه . وسنعود الى تفصيل ذلك في مكان آخر

خلفاء بنى أمية

قلنا ان معاوية جعل الخلافة وراثية في نسله ، لكنها لم تتعد اولاده ولم يخلفه منهم الا يزيد الذي بويع بولاية العهد في حياته . ولم يحكم الا بضعة سنين ارتكب في أثنائها أمورا كبارا في جعلتها مقتل الحسين بن علي . ولما مات يزيد اختلف الناس على البيعة . وكان له ابن اسمه معاوية (الثاني) ولوه وهو لا يرى الخلافة حقا لهم (*) . ومات بعد قليل، فبايع بنو أمية شيخا أمويا من غريبت معاوية اسمه مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، تولى الخلافة بضعة أشهر ومات ، ثم انحصرت الخلافة في نسله وكل خلفاء بنى أمية بعده من ولده أشهرهم عبد الملك بن مروان المتقدم ذكره تولاهما من سنة ٦٥ - ٨٦ هـ

عبد الملك بن مروان وابنه الوليد

- ولعبد الملك ذكر حسن في تاريخ التمدن الاسلامي ، لانه عمم اللغة العربية في دواوين الممالك الاسلامية ، وكانت لا تزال الى ايامه تكتب بلغات أهلها ويتولاها أناس من الوطنيين : فالديوان المصري كان يكتب بالقبطية ويتولى أعماله جماعة من قبط مصر ، والشامى يكتب باليونانية وأموره بأيدي أناس من نصارى الشام ، والعراق بالفارسية ويكتبه بعض أهل العراق . فأمر عبد الملك أن تكون كلها بالعربية وسلم مقاليدها الى المسلمين ، ولا يخفى ما كان لهذا العمل من التأثير العظيم في تأييد الدولة الاسلامية ، لانه جعل اللسان العربى لسانا عاما في سائر أنحاء المملكة ، فأصبح أهلها يتوالى الاجيال وقد نسوا جنسياتهم وصاروا يعدون أنفسهم عربا ، وساعد على ذلك أن العربية هى لغة الدين أيضا (١)

(*) انظر ابن طباطبا : الفخرى (القاهرة ١٩٢٣) ص ١٠٩ وأبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب المصرية) ج ١ ص ١٦٤
(١) ابن خلدون ٢٠٣ ج ١ والمقريزى ٩٨ ج ١

ومن أعمال عبد الملك أنه ضرب النقود الذهبية بالعربية ، ونقل الطراز من الرومية الى العربية ، وسيأتى تفصيل ذلك . وكان عامل عبد الملك على العراق الحجاج بن يوسف المشهور بدهائه وغلظته ، وكان نصيرا له على تأييد دولته فحارب عبد الله بن الزبير ، وكان هذا يدعو الناس الى بيعته دون بنى أمية فحاصره الحجاج في مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق ، ثم قتله وأستخلص الخلافة لعبد الملك

قال ابن الاثير : « وهو (عبد الملك) أول من غدر في الاسلام ، وأول من نهى عن الامر بالمعروف ، فانه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير : ولا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا الا ضربت عنقه » (١)

ومنهم الوليد بن عبد الملك (سنة ٨٦-٩٦) وفي أيامه فتحت الاندلس وامتدت فتوحاته من جهة تركستان وبعض جزائر البحر المتوسط ، واتسعت حال بنى أمية في بناء القصور واتخاذ المصانع والضياع

عمر بن عبد العزيز

ومن أشهر خلفاء بنى أمية عمر بن عبد العزيز بن مروان (حكم سنة ٩٩ - ١٠١ هـ) وكان أقربهم جميعا الى سيرة الخلفاء الراشدين ، ولعله كان كذلك لقربته من عمر بن الخطاب لانه ابن حفيدته ، فلما تولى الخلافة جعل جده عمر قدوته بالزهد والعدل . وكان بنو أمية منذ جاهرُوا بطلب الخلافة فرضوا لعن على المنبر فرأى عمر أن ذلك لا يوافق روح الاسلام فأمر بإبطاله (٢) فلم تقع أعماله هذه موقعا حسنا لدى بنى أمية ، وخصوصا لانه منعهم من اقتناء الاملاك ، وكان عمر بن الخطاب قد نهاهم عن ذلك فلم يسمعوا فأعاده هو ، فخافوا اذا طال حكمه أن يخرج الخلافة منهم فعجلوا به (*)

يزيد بن عبد الملك

وخلفه ابن عمه يزيد بن عبد الملك ، وكان من أهل اللهو والطرب فشغل عن مصالح الدولة بجاريتين اسم احدهما سلامة والاخرى حبابة . وتسلمت حبابة على عقله وقلبه فأصبحت المملكة طوع ارادتها ، تولى من شاءت وتعزل من شاءت، وهو لا يعرف من أمور الدنيا شيئا ، فلامه أخوه مسلمة وقال له : «توليت هذا الامر بعد عمر بن عبد العزيز وعدله ، فتشاغلت بهذه الجارية عن

(١) ابن الاثير ٢٥١ ج ٤ والفخرى ١١٠

(٢) ابن الاثير ٢٠ ج ٥ وابو الفداء ٢١٢ ج ١ والسعودى ١٢٠ ج ١

(*) لم أجد في المراجع ما يؤيد القول بأن بنى أمية عجلوا بموت عمر بن عبد العزيز. وأقرب

الاراء الى الصحة انه مات ميتة طبيعية من مرض الزمه الفراش عشرين يوما بدير سمعان في أواخر رجب سنة ١٠١ هـ

انظر الطبرى : تاريخ (طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة) ج ٨ ص ١٢٧

النظر في الامور ، والوفود ببابك وأصحاب الظلمات يصيحون وانت غافل عنهم» فتأثر لقوله وقال : « صدقت » وهم بترك الشراب ولم يجتمع بحبابة أياما ، فاشتاقت هي له فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواربيها : « ان خرج أمير المؤمنين للصلاة فاعلميني » فلما أراد الخروج أعلمتها فتلقته والعود في يدها وغنت :

الا لاتلمه اليوم ان يتبلدا فقد غلب المحزون ان يتجلدا

فقطى يزيد وجهه وقال : « مه . لا تفعلی ! » . ثم غنت :

فما العيش الا ما تلذ وتشتهى وان لام فيه ذو الشنان وفندا

فلم يتمالك ان عدل اليها وقال : « صدقت والله . . قبح الله من لامنى فيك ! . يا غلام ، مر مسلمة ان يصلى بالناس » . واقام معها يشرب وتغنيه وعاد الى ما كان عليه (١)

وما زال يزيد في ذلك حتى مات بعد موتها حزنا عليها . وخبر موتها أنه نزل بيت رأس بالشام ومعه حباة وقال في نفسه : « زعموا انه لاتصفو عيشة لاحد يوما الى الليل الا كدرها شيء عليه ، وسأجرب ذلك » . ثم قال لمن معه : « اذا كان غد فلا تخبروني بشيء ولا تأتونى بكتاب » ، وخلا هو وحباة وأتيا بما يأكلان ويشربان ، فأكلت حباة رمانة فشرقت بحبة منها فماتت !

فأقام يزيد ثلاثة أيام لا يدفنها حتى تغيرت وانتنت ، وهو يشمها ويرشفها ، ولم يتركها حتى عابه أهله وعاتبوه فأذن بدفنها . ولم يعش بعدها الا خمسة عشر يوما ثم مات ودفن بجوارها سنة ١٠٥ هـ

هشام وبقية خلفاء بنى أمية

وتولى الخلافة بعده أخوه هشام (من سنة ١٠٥ - ١٢٥ هـ) وكان غزير العقل لكنه كان بخيلا . والبخل مضر في دولة تأسست بالكرم وخلفه الوليد بن يزيد ، وكان قبل الخلافة منهما في اللهو والشراب والفناء مثل أبيه وله اشعار في ذم . فلما أفضت الخلافة اليه زاد انهماكا في اللذات واستهتارا بالمعاصي ، وزاد على ذلك انه أغضب أهله وأساء اليهم فهجموا عليه مع اعيان رعيته فقتلوه وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان يزيد هذا عاقدا النية على اصلاح الاحوال ، ولكن الامر كان قد استفحل وبدأت الدعوة العباسية واضطرب جبل بنى أمية

وفي أيام خلفه مروان بن محمد بن مروان خرجت الخلافة من أيديهم سنة ١٣٢ هـ رغم ما كان عليه مروان هذا من الرغبة في استبقائها والهمة في سبيل الدفاع عنها ، لكنه جاء متأخرا وقد قضى عليها بالزوال

(١) ابن الاثير ٥٧ ج وأبو الفداء ٢١٤ ج والمسعودى ١٢٥ ج ٢

بنو العباس

الدعوة العباسية

قلنا في عرض كلامنا عن خلافة ابي بكر ان المسلمين لم يشاءوا ان يجمعوا في بنى هاشم النبوة والخلافة فبايعوا غيرهم من قريش . واما بنو هاشم فكانوا يعدون ذلك عدولا عن الحق وانهم اولى الناس بذلك الامر وجعلوا يسعون في سبيله . والهاشميون المطالبون بالخلافة اصناف : منهم العلويون من اعقاب على بن ابي طالب ، وهم فئتان : احدهما تدعو لنسل فاطمة الزهراء ، والاخرى تدعو لمحمد بن الحنفية (ابن على من غير فاطمة) . ومنهم العباسيون سلالة العباس عم النبي . وكان كل من هؤلاء يدعو الناس الى نفسه فيبايعونه سرا ويظل صاحب الدعوة مستترا لا يظهر . فلما ظهر ضعف بنى امية واضطرابهم هان على الناس الخروج من طاعتهم ، وخصوصا لانهم لم يخضعوا للأمويين الا طمعا او خوفا وأكثرهم يعتقدون ان بنى هاشم اولى بالخلافة منهم

ووفق العباسيون يومئذ الى رجل فارسي من اهل خراسان ذى بطش وبسالة اسمه ابو مسلم الخراساني ، فانفذوه في طلب البيعة لهم في خراسان لبعدها عن مركز الخلافة الاموية فوفق الى ذلك توفيقا عجيبا ، فحارب وجاهد حتى ادنى الخلافة من بنى العباس وسلم ازمتهما الى ابي العباس السفاح اول خلفائهم سنة ١٣٢ هـ . ولابي مسلم فضل في تأسيس الدولة العباسية اعظم من فضل عمرو بن العاص في خلافة معاوية ، لان عمروا نصر معاوية برايه واما ابو مسلم فانه نصر العباسيين بسيفه وقومه

الدولة العباسية

مهما قيل في دولة بنى امية فهي تمتاز عن دولة بنى العباس بأنها عربية حقيقية ، لان عمالها وقضاتها وسائر رجالها كانوا عربا ، الابعض الكتبة والاطباء ونحوهم . واما بنو العباس فقد غلب في العصر الاول من دولتهم العنصر الفارسي لان الفرس هم الذين سلموا اليهم مقاليد الاحكام كما رايت فاتخذوا منهم الوزراء ، وهم اول من اتخذ الوزراء ، اقتبسوا هذا المنصب من الفرس كما سيأتي

اول خلفائهم ابو العباس السفاح ، وكان له عدة اخوة واعمام استخدمهم في تأييد سلطانه . وكان مقر السفاح في الانبار على الفرات غربى بغداد ، وما زال فيها حتى مات ولم يحكم الا بضع سنين

المنصور وخلفاؤه

فخلفه أخوه أبو جعفر المنصور سنة ١٣٦ - ١٥٧ هـ وهو من أعظم رجال الاسلام دهاء وسياسة وشجاعة ، بنى مدينة قرب الكوفة سماها الهاشمية ثم اتفق له فيها حرب مع جماعة يقال لهم الراوندية فكرهها لذلك ولقربها من الكوفة ، وكان يخاف أهل الكوفة لانهم قتلوا عليا والحسين ، فخرج منها وبني مدينة بغداد وهي أشهر عواصم المسلمين ، ثم رأى أن بقاء أبي مسلم يجعل مركزه في خطر لانه أقدر الناس على اخراج الملك من أيدي العباسيين كما سلمه اليهم فقتله غيلة . وعذره في ذلك انه كان عقبه في سبيله فأزالها ، كما فعل محمد علي بالامراء المماليك وكما فعل السلطان محمود الثاني بالانكشارية بعد ذلك باحد عشر قرنا . وأيام المنصور كلها حروب وفتوح

وخلفه ابنه محمد الهادي فهارون الرشيد ثم ابنا الرشيد الامين فالمأمون ، وفي أيام الرشيد والمأمون بلغت الدولة العباسية أوج مجدها ومعظم سلطانها ، وزهت فيها العلوم والمعارف وترجمت الكتب وتفجرت ينابيع الثروة مما سنأتى على تفصيله في أماكنه

قتل المنصور أبا مسلم الخراساني خوفا من طمعه في السلطة وهو فارسي ، لكنه استخدم في بلاطه رجالا من الفرس ، وفعل خلفاؤه مثله وقدموهم في مناصب الدولة ومنها الوزارة وهي أرفع هذه المناصب عندهم ، فال ذلك الى استفحال أمرهم في أيام الرشيد وزاد سلطان البرامكة ، فلما رأهم الرشيد يستبدون بمصالح الدولة دونه نكب بهم كما هو مشهور

المعتصم والأتراك

وخلف المأمون المعتصم بالله سنة ٢١٨ هـ فأكثر من استخدام الأتراك، وكان صبيان الأتراك يحملون الى بلاط الخلفاء في أوائل الدولة العباسية هدايا من عمال الامصار في تركستان ، وكان الخلفاء ينتقون أحسنهم خلقا وأقواهم بنية لاستخدامهم في قصورهم وكانوا يسمونهم المماليك ، وكانوا يدخلون في الاسلام ويتعلمون ويتثقفون فظهرت مواهبهم فولاهم الخلفاء كثيرا من مناصب الدولة ، وأخذوا يرتقون بحسب اقتدارهم حتى وصلوا الى أعلى مناصب الامارة والجند ، فأصبحت مقاليد السلطة تتنازعها قوتان متوازنتان الترك والفرس وسنعود الى تفصيل ذلك

واصطنع المعتصم قوما من أهل الحوف بمصر (الشرقية والدقهلية) واستخدمهم في جنده وسماهم المغاربة ، وجمع خلقا من سمرقند وأشروسنة وفرغانة سماهم الفراغنة فكانوا من أصحابه وحاشيته ، فضلا عما كان عنده من الجند العربي ، واصطنع غيره بعده أناسا آخرين من أمم أخرى ، فتعددت

العناصر وكثرت الايدي الاجنبية المتعارضة ، فال ذلك الى ضعف الخلفاء واستبداد العمال في الولايات واستقلالهم

تفرع الدولة العباسية

وجعلت سلطة الخلفاء تتقلص حتى اقتصرت على السواد بين الفرات ودجلة ، ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الراضى بالله (٩٣٤/٣٢٢ - ٩٤٠/٣٢٩)

حكامها

الولايات

في يد محمد ابن رائق بالاضافة الى امرة الامراء	البصرة
« ابي عبد الله البريدي	خوزستان ، الاهواز
« عماد الدين ابي الحسن على بن بويه	فارس
« ابي على محمد بن الياس (*)	كرمان
« ركن الدولة ابو على حسن بن بويه وغيره (**)	الري واصفهان والجبل
« بنى حمدان	الموصل وديار بكر ومصر وربيعة
« محمد بن طفج الاخشيدي	مصر والشام
« السامانية	خراسان وما وراء النهر
« الديلم	طبرستان وجرجان
« القرامطة (***)	البحرين واليمامة

استبداد الجند والخدم

ومما زاد الامر استفحالا ان الخدم والاجناد أصبحوا مطلقى الايدي في قصور الخلفاء ، يستبدون في أعمالها ويسومون الخلفاء اصناف الاهانة وانواع العذاب ، كما فعل جند المغاربة والاتراك في المعتز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعوه لانه قصر في عطائهم ، فانهم دخلوا حجرته وجروه برجله الى باب الحجره وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه في الشمس ، فكان يرفع رجلا ويضع الاخرى لشدة الحر ، وبقي بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، وادخلوه حجره واحضروا ابن ابي الشوارب القاضى وجماعة فأشهدوهم على خلعه ثم سلموه الى من يعذبه

(*) لفترة قصيرة انتهت سنة ٢٢٨ ثم صارت بعد ذلك الى نصر بن احمد الساماني
 (***) لفترة طويلة امتدت من ٩٢٢/٢٢٠ - ٨٧٥/٣٦٥ ، ثم تولاها بعد ذلك على التعاقب رجال من بيت بنى بويه ، وكان بعضهم ينفرد بهمدان وبعضهم بأصفهان
 (***) هذا هو الموجز الذى أورده ابن الاثير عن حالة ولايات الدولة العباسية ايام الراضى (ج ٨ ص ١١٢ - ١١٣) وهذا الموجز غير دقيق

ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم أدخلوه سرادبا وجصصوه عليه فمات (١)
ومع كل ما لحق الخلفاء من الذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للاتراك ولا لغيرهم
من عرب قريش أن ينزعوا الخلافة من أعناق بني العباس

فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين
فافتحوها وقتلوا خليفتها سنة ٦٥٦ هـ ففر من بقى من أهله الى مصر والتجأوا
الى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة الى أن فتح السلطان سليم
العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ فأخذ الخلافة منهم . وبلغ عدد الخلفاء العباسيين
جميعا نيفا وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق أولهم السفاح وآخرهم المستعصم
والباقون في مصر

(١) ابن الاثير ج ٧ ، ص ٦٨ - ٦٩ (وابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٢٠ - ٢٢١)

الدولة الاموية في الأندلس

أول من دخل بلاد الأندلس من المسلمين طريف بن زرعة ثم أعقبه طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢ هـ في عهد الدولة الاموية بالشام ، فافتتحاها وتولاها الامراء باسم الخلفاء الامويين . فلما افضت الخلافة الى بنى العباس واعمل ابو العباس السفاح السيف في بنى امية قتلهم جميعا الا نفرا قليلا منهم فيهم شاب اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك نجا وفر الى بلاد المغرب واجتاز البحر الى الأندلس . وكان عليها أمير اسمه عبد الرحمن بن يوسف الفهري ، فامتلكها منه وخطب فيها للسفاح زمنا قصيرا (١) ثم قطع الدعوة عن العباسيين ودعا لنفسه سنة ١٣٨ هـ واقام في قرطبة عاصمة الأندلس في ذلك الحين . وخلفه حكام من بيته كانوا يلقبون انفسهم بالامراء الى آخر القرن الثالث . حتى صار الامر الى عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر فسمى نفسه خليفة سنة ٣١٧ هـ وهو اعظم خلفاء بنى امية في الأندلس : حارب الافرنج مرارا وردهم على اعقابهم ، فلما مات خلفه بضعة عشر خليفة ليس فيهم من يعدل به

حكم الناصر خمسين سنة تعد العصر الذهبي للسلطان السياسي للإسلام في الأندلس ، وقد ساد عبد الرحمن شبه الجزيرة الايبيرية كله ودانت له بالطاعة الممالك والامارات التي قامت في شمال شبه الجزيرة وشمالها الشرقي، ونشر سلطانه على شمالي مراكش الحالية وراسله اباطرة الدولتين البيزنطية والاتونية في المانيا

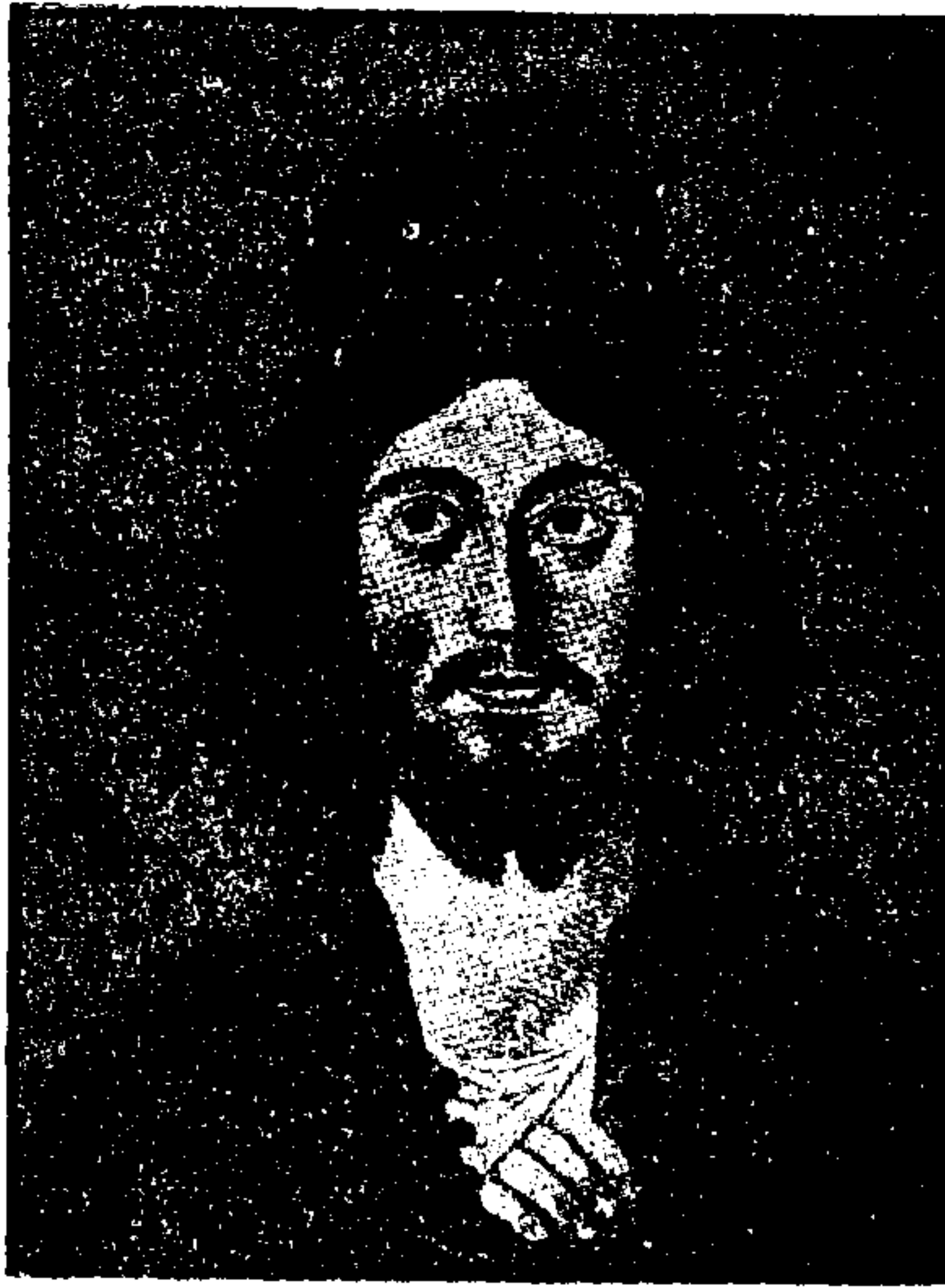
وخلفه في الحكم المستنصر ، وهو اعلم خلفاء بنى امية الأندلسيين : عنى بالعلوم والآداب ، وانشأ مكتبة القصر التي تعد اعظم مكتبة عامة انشئت في العصور الوسطى

وبعد الحكم المستنصر صار الامر الى ابنه هشام الثاني الملقب بالمويد ، وكان شابا ضعيفا حامل الذهن محدود الذكاء ، فسيطر عليه الحاجب ابو محمد ابن ابي عامر الملقب بالمنصور واصبح صاحب السلطان الاعلى في البلاد ، ويعتبر المنصور من اعظم السياسيين ورجال الحكم الذين انجبههم الاسلام في شتى عصوره ، وقد ارتقى من صفوف الشعب الى اعلى المناصب بالذكاء وسعة الحيلة وبعد النظر والمثابرة والداب على العمل ، وجمع زمام الامور كلها في يده

(١) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٥

وحرص على ان يواصل نشاط الحملات على الممالك والامارات الاسبانية الشمالية حتى كاد يقضى عليها . وقد تمتع الاندلس في عهده برخاء لم يعهده في اى عهد مضى

وعندما مات خلفه ابنه عبد الملك المعروف بالمظفر ، فسار على سيرة ابيه دون ان تكون له كفايته ، ولكنه استطاع ان يحتفظ بما خلفه له ابوه سبع سنوات ، وعاجلته المنية سنة ١٠٠٨ ف خلفه اخوه عبد الرحمن ولقب نفسه المأمون ، وكان شابا مضطرب العقل مستغرقا في هواه ، لم يكتف بأن يحكم باسم الخليفة هشام المؤيد ، واراد ان يجعل نفسه وليا للعهد ، فبدأت سحب الثورة تتجمع في سماء الاندلس ، ثم انفجرت دفعة واحدة فأطاحت بملك بنى عامر ، وبدأت الفتنة العامة التى تسمى فى تاريخ الاندلس بالفتنة الكبرى



أبو عبد الله آخر ملوك الاندلس كما صورده الاسبان

بدأت هذه الفتنة التى قصمت ظهر الاندلس من اوائل القرن الخامس الهجرى ، فانقسمت الاندلس الى امارات يتولاها رؤساء او امراء اشهرهم بنو حمود فى مالقة والجزيرة الخضراء (١٠١٧/٤٠٨ - ١٠٥٧/٤٤٩) وبنو عباد فى اشبيلية (١٠٢٣/٤١٤ - ١٠٩١/٤٨٤) وبنو زيرى فى غرناطة (١٠١٢/٤٠٣ - ١٠٩٠/٤٨٣) وبنو جهور فى قرطبة (١٠٣٠/٤٢٢ - ١٠٦٨/٤٦١) وبنو ذى النون فى طليطلة (١٠٣٥/٤٢٧ - ١٠٨٥/٤٧٨)

والصقالبة العامريون في بلنسية (١٠٢١/٤١٢ - ١٠٨٥/٤٧٨) وبنو هود في سرقسطة (١٠١٩/٤١٠ - ١١٤١/٥٣٦) وبنو مجاهد العامريون في دانية (١٠١٧/٤٠٨ - ١٠٧٥/٤٦٨) ، ويعرف هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف . وتنازعوا وتغالبا فيما بينهم وحاربهم الافرنج لانهم طمعوا فيهم على اثر ذلك الانقسام

وضاق بنو عباد ذرعا في حرب الفونس السادس ملك ليون ، فاستنجدوا ملك المرابطين من المغرب ، فأقبلوا بقيادة يوسف بن تاشفين اللمتوني ، وانضم اليهم عدد كبير من ملوك الطوائف وجنودهم وتمكنوا من الانتصار على الفونس السادس في موقعة الزلاقة عام ١٠٨٦/٤٧٨ انتصارا حاسما انقذ دولة الاسلام في الاندلس الى حين . ثم عاد يوسف بن تاشفين الى المغرب حاسبا ان امراء الطوائف سيصلحون من احوالهم ، ولكنه تبين انهم عادوا الى ما كانوا فيه ، فرجع الى الاندلس مرة اخرى واستنزل ملوك الطوائف جميعا عن عروشهم . عدا بنو هود اصحاب سرقسطة ، وجعل ما بقي بيد المسلمين من الاندلس جزءا من دولة المرابطين . وظل الامر على ذلك حتى سنة ١١٤٥/٥٤٠ عندما تغلب الموحدون على المرابطين في المغرب وازالوا ملكهم وحلوا محلهم ، وأنشأوا امبراطورية واسعة شملت المغرب الاسلامي كله وما بقي بأيدي المسلمين من البلاد الاندلسية

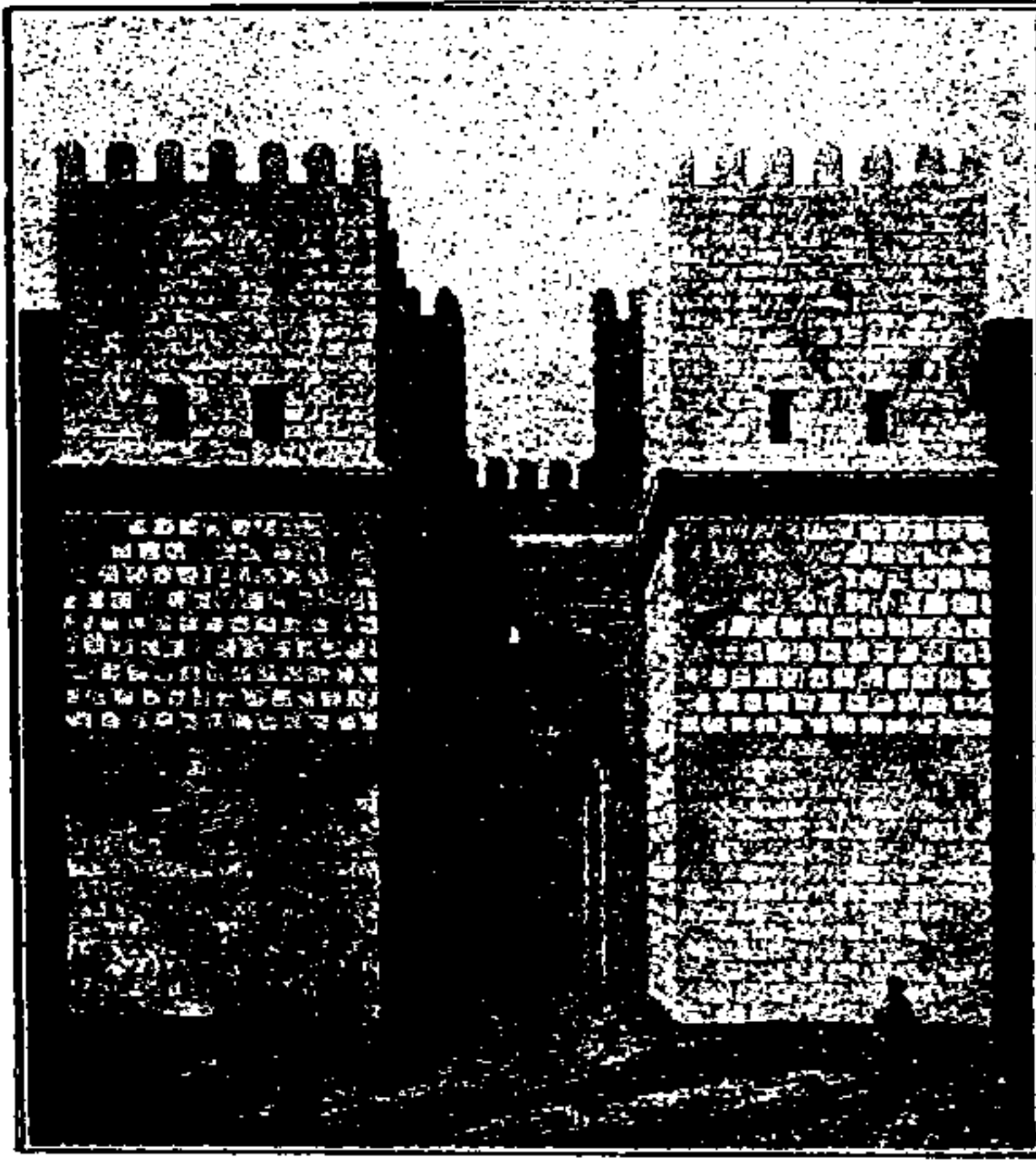
ونشأت في نهاية العصر الموحدى امارات صغيرة في بلنسية ومرسية وغيرهما من قواعد الاندلس ، اهمها في غرناطة الدولة النصرية او دولة بنو الاحمر ، نسبة الى مؤسسها ابي عبد الله محمد بن نصر الملقب بابن الاحمر . وكان في اول امره فارسا يعمل في خدمة بنو هود اصحاب شرق الاندلس ، ثم ضبط قاعدة ارجونة وحصنها وانتهز فرصة ضعف بنو هود فاستقل عنهم ، واخذ يوسع حدود مملكته ، فاستولى على جيان واطاعته بياسة ووادي آش ومالقة وغرناطة ، ثم نقل مركز دولته الى ذلك البلد الاخير ، واختار ضاحية من ضواحي غرناطة تقوم على تلال حمراء على ضفة نهر حداره احد نهيرات نهر شنيل المتفرع من الوادي الكبير ، وهناك انشأ حصونا وقصورا وزودها بكل ما يلزم المدن ، وتلك هي المعروفة بالحمراء . ونقل الى الحمراء مركز الحكم ، وادار عليها وعلى غرناطة سورا ، وتكشف عن كفاية ادارية وعسكرية مكنت له من تدعيم اسس الدولة التي انشأها وقدر لها ان تكون آخر معاقل الاسلام في اسبانيا ، واستمرت تقاوم عناصر الفناء المحيطة بها والمتأصلة في كيانها ٢٥٤ سنة ابتداء من سنة ١٢٣٨ وانتهت في يناير سنة ١٤٩٢ ، وانتهى معها سلطان الاسلام في شبه الجزيرة الايبيرية بعد ان دام ٧٨١ سنة

وقد زهت الاندلس في ايام بنى نصر وظهر فيها الشعراء والادباء على نحو ماكانت عليه في ايام عبد الرحمن الناصر . لكن الاسبان ما زالوا يهاجمون المسلمين ويناوئونهم وهم يدافعونهم الى اواخر القرن التاسع للهجرة فهاجم غرناطة فرديناند وايزابلا سنة ١٤٩٢/٨٩٧ ففر ملكها ابو عبد الله وهو محمد الحادى عشر من تلك الدولة ، فانقضت بفراره دولة المسلمين في الاندلس وللاندلس شأن عظيم في التاريخ الاسلامى ، فقد نبغ فيها العلماء والشعراء وانشئت فيها المدارس والمكاتب وشيدت الابنية والقصور ، وسنأتى على كل شىء في مواضعه (*)

(*) ادخلنا على كلام المؤلف في هذا الفصل بعض التعديل بما يناسب معلوماتنا عن الاندلس اليوم

الدولة الفاطمية

نشأت هذه الدولة في بلاد المغرب ، وهي تنتسب الى السيدة فاطمة بنت الرسول (صلعم) عن طريق جعفر الصادق . واول من ظهر بالدعوة منهم عبيد الله المهدي في اواخر القرن الثالث للهجرة ، ولذلك فهي تسمى ايضا العبيدية . وقد اعانهم على نيل الخلافة رجل اسمه ابو عبد الله الشيعي نحو ما فعل ابو مسلم مع العباسيين ، فلما استتب لهم الامر قتلوه كما

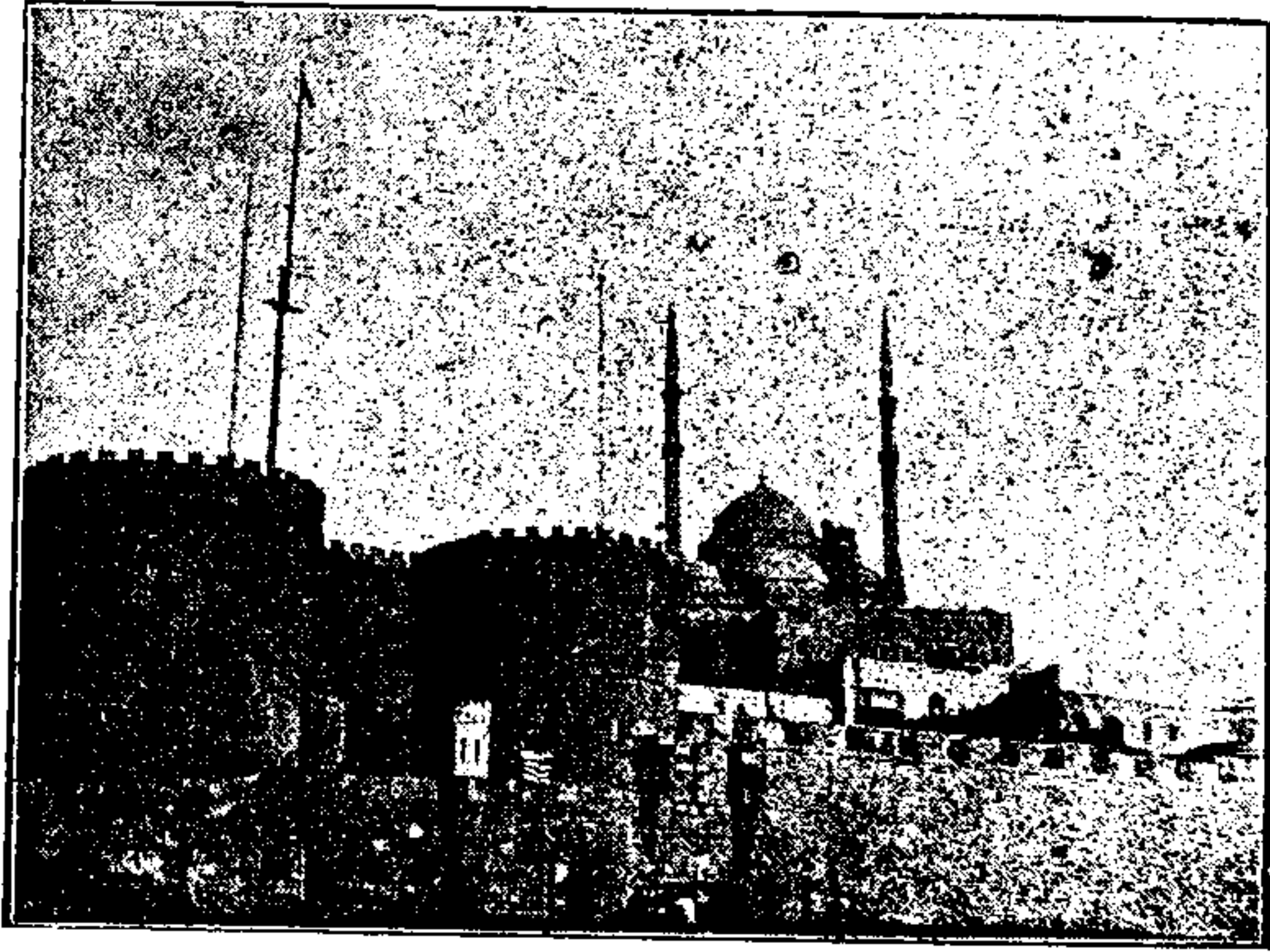


باب النصر من ابواب القاهرة

فعل المنصور بابي مسلم ، وامتد سلطانهم في اواسط القرن الرابع الى مصر على يد القائد جوهر الصقلي ، وكانت مصر في حوزة العباسيين ففتحها جوهر وبنى فيها مدينة القاهرة نحو سنة ٣٦٠ هـ وسميت القاهرة المعزية نسبة الى المعز لدين الله اول من جاء مصر من الخلفاء الفاطميين . وتناوبها خلفاؤه بعده حتى اصابهم ما اصاب الدولة العباسية في بغداد من الاستكثار من جند الاتراك والمغاربة والسودان ومن اليهم

وقد بدأ الفاطميون حكمهم في مصر بدءا طيبا وعرفت في ايام المعز

لدين الله (٩٥٢/٣٤١ - ٩٧٥/٣٦٥) والعزیز بالله (٩٧٥/٣٦٥ - ٩٩٦/٣٨٦) والحاكم بأمر الله (٩٩٦/٣٨٦ - ١٠٢٠/٤١١) رخاء عظیما واستقرارا لم تعرفه منذ سنوات طويلة ، واتسعت حدودها حتى شملت الشام والحجاز واليمن وبرقة ، بالإضافة الى افريقية (تونس) التي كانت تدين بالولاء للفاطميين . وقد استمر هذا الازدهار حتى منتصف خلافة المستنصر بالله (١٠٣٥/٤٢٧ - ١٠٩٤/٤٨٧) ، ثم توالى عليها الازمات والمتاعب بسبب سوء السياسة الاقتصادية التي جرى عليها الفاطميون من ناحية ثم اسرافهم في استخدام جنود الاتراك والمغاربة والسودان ، وتنازع طوائفهم فيما بينهم ، حتى انتهت البلاد الى حال من الضعف والاضطراب لم تعرفه فيما سلف من عصورها الاسلامية ، واضيفت الى ذلك كوارث طبيعية كانخفاض مستوى الفيضان سنين متوالية ، مما ذهب بالرخاء جملة ، فتوالى الفلاء والمجاعات ، وعجز الناس عن دفع الضرائب وازدادت مطالب الجنود وفتك بعضهم ببعض ، مما هوى بالبلاد الى درك سحيق من الفوضى والفقر البالغ



قلعة القاهرة

واحتاجت الدولة الى من يضبط الامر ، فاستعان الخليفة المستنصر ببدر الجمالي والى عكا ، وكان من اصل ارمنى ، فأقبل وتولى الامور ، واطهر كفاية عظيمة ، وضرب على ايدي الجند ، وساعفته المقادير ، فتحسنت حالة الفيضان ، وبدأت البلاد تخرج بفضل حزمه وادارته الرشيدة من الهاوية التي تردت فيها

بيد ان الخلافة الفاطمية اخذت تتلاشى شيئا فشيئا ، فقد انتقل السلطان

بصورة نهائية الى الوزير ومن يستعين بهم في ضبط الامور ، وتعاقب الوزراء على السلطان واتخذوا لقب الوزراء العظام ، واولهم الافضل بن بدر الجمالى وآخرهم صلاح الدين يوسف بن ايوب

وكان معظم اولئك الوزراء على جانب كبير من المهارة والقدرة ، ولكن اكبر جانب من اهتمامهم كان منصرفا الى المحافظة على مراكزهم بالاستكثار من الجند المرتزقة ، وارهاق الاهالى بالضرائب حتى يستطيعوا دفع رواتب الجنود ، ووجد خلفاء الفاطميين بعد المستنصر ان سلطانهم قد تلاشى تماما ، فمضوا يكيّدون للوزراء ويدبرون المؤامرات للقضاء عليهم كما فعل الخليفة الأمر ، اذ دبر اغتيال الافضل بن بدر الجمالى ، واستعان بنفر من الباطنية على ذلك ، وتم اغتياله عام ١١٢١/٥١٥ وتولى الوزارة بعده كبير المتأمرين المأمون البطائحي ، واستمر النزاع بين الخلفاء والوزراء الى آخر ايام الدولة الفاطمية ، وقد خسر الخلفاء المعركة وفقدوا كل سلطان ابتداء من عهد الخليفة الظافر ١١٤٩/٥٤٤ - ١١٥٤/٥٤٩ ، بل ان احدهم وهو طلائع ابن رزيك اتخذ لنفسه لقب الملك الصالح ، وهو امر له دلالة

وآخر خلفاء الفاطميين هو العاضد الذى بدأ حكمه باغتيال طلائع بن رزيك سنة ١١٦١/٥٥٦ وأقام مقامه ابا شجاع العادل ، وفي سنة ١١٦٣/٥٥٨ نازعه فى الوزارة شاور والى الوجه القبلى وغلبه وقتله وتولى الامر مكانه ، ولم يدم له الامر اذ نافسه فيه ضرغام ، وكان أميرا لفرقة من فرق الجند تسمى البرقية ، وطال النزاع بين الرجلين ، فاستنجد شاور بنور الدين محمود واستنجد ضرغام بعمورى ملك بيت المقدس ، وانتهى الامر باستيلاء نور الدين على مصر وتعيينه أسد الدين شيركوه وزيرا ، فلما مات خلفه ابن اخيه صلاح الدين ، فوزر لنور الدين السنى وللعاضد الشيعى فى وقت واحد ، ولكنه تمكن بحسن سياسته من التخلص من العاضد ، واستخلص مصر لنفسه بعدموت نورالدين المبكر ، وقد مات العاضد فى سنة ١١٧١/٥٦٧ وبذلك انتهت الدولة الفاطمية وبدأت الدولة الايوبية

وتعتبر الدولة الايوبية من اقصر الدول التى حكمت مصر عمرا ، فلم تتعد مدة حكمها واحدا وثمانين عاما (١٦٧١/٥٦٧ - ١٢٥٠/٦٤٨) ولكنها تعد من اخطرها شأنا ، لان الذى أنشأها كان صلاح الدين الايوبى اعظم شخصية سياسية وعسكرية فى تاريخ مصر الاسلامية ، ولانها نجحت فى الخلاص بمصر والدولة الاسلامية عموما من اكبر خطر تهددها خلال هذه العصور وهو خطر الصليبيين

كانت الدولة الايوبية دولة عسكرية في طبيعتها ووظيفتها ، وقد قامت للغرض الواحد الكبير الذي ذكرناه وانتهت بتلاشي الخطر . وقد دفعتها الظروف التي عايشت في ظلها الى طلب الجند بأى ثمن والاستكثار من المماليك ، وخاصة في أيام سابع سلاطينها الصالح نجم الدين أيوب ، فقد اشترى منهم آلافاً أسكنهم بجزيرة الروضة فسموا لذلك بالبحريين ، وكان من الطبيعي أن يحوزوا الدولة عندما ضعف أمر السلاطين ، وهذا هو الذي حدث بعد موت الصالح نجم الدين أيوب ومقتل ابنه توران شاه ، اذ عجزت عصمة الدين أم خليل شجرة الدر عن مدافعة المماليك ، فغلبها أيبك التركمانى وتولى السلطنة سنة ١٢٥٠/٦٤٨ ، وبدأت بذلك دولة المماليك الاولى المعروفين بالمماليك البحرية وقد حكموا مصر ١٣٦ سنة (١٢٥٠/٦٤٨ - ١٣٨٢/٧٨٤) وأعظمهم عز الدين أيبك وسيف الدين قطز وركن الدين بيبرس والمنصور سيف الدين قلاوون . وكان البحريون على الجملة قوادا عسكريين ممتازين واداريين قادرين ، وقد علا اسم مصر في أيامهم واتسعت امبراطوريتها وزاد رخاؤها واصبحت مركز العلوم والآداب في العالم الاسلامى كله

واعقب المماليك البحرية على ملك مصر مماليكهم المعروفون بالبرجية ، وأولهم الملك الظاهر أبو سعيد برقوق وآخرهم طومان باى الثانى ، وقد حكموا مصر ١٢٩ سنة من ١٣٨٢/٧٨٤ الى ١٥١٧/٩٢٣ وكانوا قادة عسكريين ممتازين ، ولكنهم لم يظهروا اى كفاية ادارية او مالية ، وقد ضعفت مصر في أيامهم شيئاً فشيئاً ، واضطربت ماليتها بعد تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح، وأظهروا قصر نظر مخجل فيما يتعلق بموقفهم من الخطر العثمانى ، مما انتهى بسقوط مصر فى أيدي الاتراك العثمانيين سنة ١٥١٧/٩٢٣

سائر الدول الإسلامية

في أنحاء العالم

ولو أردنا ذكر الدول الإسلامية التي نشأت في العالم لطلال بنا الكلام ، فنكتفي بجدول نبين فيه أسماء الدول الإسلامية وعواصمها وعدد ملوك كل منها وسنى ولا يتهم ، واليك هو :

جدول الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام الى سنة ١٩١٤

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
الخلفاء الراشدون	المدينة	٤	١١	٤٠
الدولة الأموية بالشام	دمشق	١٤	٤١	١٣٢
العباسية (في بغداد)	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
العباسية (في مصر)	القاهرة	١٧	٦٥٩	٩٢٣
الأموية بالأندلس	قرطبة (الأندلس)	١٦	١٣٨	٤٢٢
بنو حمود العلويون	مالقة	٩	٤٠٧	٤٤٩
»	الجزيرة	٢	٤٣١	٤٥٠
بنو عباد	إشبيلية	٣	٤١٤	٤٨٤
بنو زيري	غرناطة	٥	٤٠٣	٤٨٣
بنو جهور	قرطبة	٣	٤٢٢	٤٦١
بنو ذى النون	طليطلة	٣	٤٢٧	٤٧٨
الصقالبة العامريون	بلنسية	٥	٤١٢	٤٨٣
بنو تميم وبنو هود	سرقسطة ولاردة وتطيلة	٩	٤١٠	٥٣٦
بجاهد العامري وأولاده	دانية والجزائر الشرقية	٢	٤٠٨	٤٦٨
بنو نصر (بنو الأحمر)	غرناطة	٢١	٦٢٩	٨٩٧
بنو صمادح	المرية	٢	٤٣٣	٤٨٠
الأدارسة	وليلي ثم فاس (بمراكش الحالية)	١٢	١٧٢	٣٧٥
الأغالبة	القيروان والمهدية ورقادة	١١	١٨٤	٢٩٦

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاءها هـ
بنو زيري الصنهاجيين	القيروان	٨	٣٦٢	٥٤٣
بنو حماد بالمغرب الأوسط	قلعة بني حماد	٩	٣٩٨	٥٤٧
المرايطون	مراكش	٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمالى افريقية	١٣	٥٢٤	٦٦٨
بنو حفص	تونس	٢٤	٦٢٥	٩٨١
بنو زيان	تلمسان بالمغرب الأوسط (الجزائر الحالية)	٢٥	٦٣٣	٩٦٢
بنو مرين	فاس	٢٧	٥٩٢	٨٣١
الشرفاء ثم السعديون	مراكش	٢٥	٩٥٥	لا تزال
الطولونيون	القطائع (مصر)	٥	٢٥٤	٢٩٢
الإخشيدية	الفسطاط (مصر)	٥	٣٢٣	٣٥٨
الفاطمية	القيروان والقاهرة	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الأيوبيون (*) في مصر	القاهرة	٩	٥٦٤	٦٤٨
» في دمشق	دمشق	١٢	٥٨٢	٦٥٨
» » حلب	حلب	٥	٥٧٩	٦٣٤
المماليك البحرية	القاهرة	٢٥	٦٤٨	٧٩٢
» البرجية	»	٢٤	٧٨٤	٩٢٢
أسرة محمد على	»	١٠	١٢٢٠	١٣٧١
بنو زياد	زيد (اليمن)	٩	٢٠٤	٤١٢
بنو يعفور	صنعاء	١٠	٢٤٧	٣٨٧
بنو نجاح	زيد وجند	٧	٤١٢	٥٥٤/٥٥٣
الصليحية	صنعاء وغيرها	٣	٤٢٩	٤٩٢
الهمدانيون	» »	٨	٤٩٢	٥٦٩
بنو مهدي	زيد	٣	٥٥٤	٥٦٩
الزريعية	عدن	٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	ربيد وغيرها (اليمن)	١٣	٦٢٦	٨٥٨
بنو طاهر	عدن وزبيد (اليمن)	٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة من بني رسي	صعدة وصنعاء	١٧	٢٨٠	٧٠٠
الحمدانيون في الموصل	الموصل (سوريا)	٩	٢٩٣	٣٢٣

(*) لهذه الدولة فروع كثيرة حكمت مددا متفاوتة في دمشق وحلب وبين النهرين وحماه وحمص وبلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطانا

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
المرداسيون في حاب	حاب (سوريا)	٧	٣٣٢	٤٠٦
العقبليون	الموصل وغيرها *	٥	٣٨٦	٤٤٨
المروانية	ديار بكر *	٥	٣٨٠	٤٨٩
الزيدية	الحلة *	٨	٤٠٣	٥٤٥
بنو دلف	کردستان (فارس)	٦	٢١٠	٢٨٥
بنو الساج	الري *	٢	٣٠٦	٣١٤
العلوية (الزيدية)	آمل وسادية في طبرستان (فارس)	٢	٢٥٠	٢٧٠
بنو طاهر	خراسان	٦	٢٠٥	٢٦١
الصفارية	نيسابور (فارس)	٥	٢٦١	٣٩٥
السامانية	الري وشيراز بخراسان	١٢	٢٠٤	٣٠٨
خانات ايلك (آل أفرازياب)	تركستان	٢٧	٣١٥	٦٠٧
الزيارية	جرحان وغيرها	١٠	٣١٥	٤٧١
بنو حسنويه	کردستان	٣	٣٤٨	٤٠٦
بنو بويه (*)	بغداد	١١	٣٣٤	٥١٣
بنو كويه	أصبهان وهما ان	٥	٣٩٨	٤٤٣
السلاجقة وفروعهم	أصبهان بايران والعراق والشام وكرمان	٣١	٤٢٩	٦١٩
الدانשמندية	سبواس ومطية	١٢	٤٥٥	٥٦٧
الأتاكة من بني بوري	دمشق	٦	٤٩٧	٥٦٤
» الزنجيون	الموصل ودمشق وحب	٢٠	٥١٦	٦٦٠
بنو بكتكين	إربل	٣	٥٣٩	٦٣٠
بنو ارتق	حصن كيفا وآمد وخرتيرت ومردين	٣٠	٤٩٥	٨١١
شاهات أرمن	خلاط بأرمينية	٨	٤٩٣	٦٠٤
أتاكة أذربيجان	أردبيل	٥	٥٣١	٦٢٢
بنو سلغر	فارس	١١	٥٤٣	٦٨٦

(*) أصل هذه الاسرة من شيراز ، وقد أقامت دولا في نواح مختلفة من العراق وما يليها شرقا وخاصة في فارس وخوزستان وكرمان والجيل وعمان . وقد اقتصرنا هنا على من غلب منهم على بغداد وتسمى بأمير الامراء ، وهم الذين يكونون في تاريخ الاسلام ما يعرف بالدولة البويهية

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضاءها هـ .
بنو هزراسب	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٢٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٨	٦١٩	٧٠٣
آل عثمان	الآستانة وغيرها	٣٥	٦٩٩	١٩٢٢
خانات المغول (*)	زنقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٩٢
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٤
خانات العشائر الذهبية	قاراخيتاي	٤٠	٦٢١	٩٠٧
القرم	القرم	٤٥	٨٢٣	١١٩٧
جاغتاي	تركستان	٤٤	٦٢٤	٩٧٨
آل جلانر	العراق وغيره	٩	٧٣٦	٨٢٧
المظفريون	فارس وكرديستان وكرمان	٧	٧١٣	٧٩٥
السربديريون	خرسان ودامغان	١٣	٧٣٧	٧٨٣
آل كرت عمال دنيسابور	هراة وبلخ وسمرخس	٨	٦٤٣	٧٩١
أمراء القراقيونلو	أذربيجان (تبريز)	٦	٧٨٠	٨٧٣
أمراء آق قيونلو	الموصل وبنغداد ثم أذربيجان	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات العجم (**)	إيران وغيرها	٣١	٩٠٧	لا تزال
التيموريون	سمرقند	١٣	٧٧١	٩٠٦
الشيبانيون	سمرقند	١٣	٨٣٢	١٠٠٧
المنغيتيون	بخارى	١٠	١١٧٠	١٣٢٩
خانات خيوه (***)	خوارزم	٣٥	٩٢١	١٢٩٠
خوقند	»	١٧	١١١٢	١٢٩٣

(*) خانات المغول أسر ودول كثيرة ، أولهم الخاقانات العظام (بنو جنكيزخان) ثم بيت أوجتاي وتولوي ثم ايلخانات فارس (بنو هولوكو) وخانات القبيل الازرق (بالقبجاق الغربي) وخانات القبيل الابيض (بالقبجاق الشرقي) وخانات القرم (بنو حاجي كيراي) وخانات وما رواء النهر (بنو جغتاي) وخانات قازان وخانات قاسموف . ولا يمكن تحديد بداية ونهاية لكل هذه الدول مجتمعة ، وكل ما نستطيع قوله أن أول دول الخانات أو الخاقانات بدأت سنة ٦٠٣ وآخرهم انتهى حكمه سنة ١٠٩٢

(**) شاهات العجم أو شاهات ايران دول كثيرة هم الصفويون والافغانيون والافشاريون والبختاريون والزنديون والقاجاريون بنو شغتاي ثم آل بهلوي وكانت لهم عواصم كثيرة آخرها طهران ولا زال الشاهات يحكمون ايران الى اليوم

(***) خانات خوارزم بيتان هما: بنو عرب شاه وبنو ايناق ، وقد اثبت تاريخ بدء أقدمهما وتاريخ نهاية آخر حكاهما

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
الجانيون	بخارى (استراخان)	١١	١٠٠٩	١٢٠٠
الغزنويون (*)	أفغانستان وبنجاب	٢١	٣٥١	٥٨٢
الغوريون (*) (٢)	» و هندستان	١٤	٤٩٣	٦٥٨
سلاطين دهلي (*) (٣)	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٧٥
حكام البنغال وسلاطينها (*) (٤)	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
ملوك الشرق بجونبور	بيهار ، أودوقنوج ، براج ، جونبور (الهند)	٦	٧٩٦	٨٨١
» مالوا	» مالوا	١٠	٨٠٤	٩٦٨
» كجرات	» كجرات	١٤	٧٩٣	٩٩١
الفاروقيون ملوك خاندش	برهان بور (خاندش)	١٣	٨٠١	١٠٠٨
البهمنيون	الدكن (الهند)	١٨	٧٤٨	٩٣٣
بنو عماد شاه	» برار	٥	٨٩٠	٩٨٠
بنو نظام شاه	» أحمد نجر	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
بنو بريد شاه	» بيدر	٧	٨٩٥	١٠٩٧
بنو العادل شاه	» بيجابور	٨	٨٩٥	١٠٩٧
بنو قطب شاه	» كولاكندا	٧	٩١٨	١٠٩٨
أباطرة المغول	» هندستان	١٧	٩٣٢	١٢٧٤
ولاية المغول العظام (*) (٥)	» بنغالة	٢٣	٩٨٤	١٠٨٨
أمراء وملوك أفغانستان (*) (٦)	أفغانستان	١٥	١١٦٠	لا يزالون

(*) الغزنويون بيتان كيران : بنو الب تكين وبنو سبكتكين ، وقد جمعنا تواريخهما معا
(*) الغوريون فرعان : فرع رئيسي بفيروزكوه وغزنة ، وفرع بياميان وطخارستان ، وقد جمعنا تواريخهما معا

(*) سلاطين دهلي ستة بيوت كبيرة : هي الاتراك والخلجيون (الافغانيون) وبنو تغلق شاه وبنو خضر وبنو لودي والافغانيون (بنو سور) ، وقد جمعنا تواريخهم معا

(*) حكام بنغالة كثيرون ، بدأوا ولاية من قبل سلاطين دهلي وأولهم محمد تختيار خلجي ، ثم أصبح سلالة سلاطين وأولهم فخر الدين مبارك شاه (٧٣٠ - ٧٥٠) . وكان الولاية من قبل سلاطين دهلي أول الامر مجرد ولاية يختارهم السلطان كيف شاء ، ثم أصبحت الولاية منحصرة في بيت واحد هو بيت بني بلبان . أما السلاطين فمن أسر كثيرة أهمها بنو الياس شاه وبنو راجه كانس وبنو حبشي وبنو حسين شاه وبنو محمد سور وبنو سليمان قراراني

(*) هم تنمة سلاطين بنغالة

(*) أمراء أفغانستان أسر كثيرة هم بنو دران أو عيبدلي ثم بيت يارك زئي (وآخره أمان الله خان) ثم المقتصب باشي سقا ، ثم بيت نادر شاه ، وقد حكم منهم اثنان : محمد منادر شاه ثم ابنه جلالة محمد ظاهر شاه ملك أفغانستان الحالي

وخلاصة ذلك ان الدول الاسلامية التي ظهرت من اول الاسلام الى الان
 نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس ، فيهم الخلفاء والسلاطين
 والملوك والامراء والاتابكة والابخشيديية والخدويون والشرفاء والبايات
 والدايات وغيرهم ، من العرب والفرس والاتراك والشراكسة والاكراذ والهنود
 والتر والمغول والافغان وغيرهم ، ومن عواصمهم المدينة والكوفة ودمشق وبغداد
 والقاهرة والقيروان وقرطبة والآستانة وصنعاء وعمان ودهلى وغيرها

هذه مقدمات تاريخية في كيفية تأسيس الدولة الاسلامية وانشاء التمدن
 الاسلامى تمهيدا لما سيأتى من تاريخ ذلك التمدن

وقد رأيت أنهم انشأوا دولا كثيرة تمدنت في عصور مختلفة ، ولما كانت
 الدولة العباسية أشهرها جميعا واسبقها الى المدينة فسنجعل ما يأتى من وصف
 التمدن خاصا بها على الأكثر

الدولة الإسلامية

سعتها واعمالها

تأسست الدولة الإسلامية في المدينة في السنة الأولى للهجرة والمسلمون قليلون وكل أرض خارج حدود المدينة لا تدخل في زمامهم وكل رجل من غير الصحابة والمهاجرين والانصار عدو لهم . وحدود تلك الدولة محصورة بيثرب وبعض ضواحيها . وكانت دار الحكومة والقضاء يومئذ المسجد أو بيت النبي أو بيوت الصحابة ، وما زال ذلك شأنها الى السنة الرابعة للهجرة فأضافوا اليها أرض بني النضير ، وفي السنة التالية أرض خيبر ثم فدك، فوادي القرى فتيما ، ثم فتحوا مكة فالطائف فتبالة فجرش ، ثم مدوا حدودهم شمالا الى تبوك وأيله وجنوبا الى نجران فاليمن فعمان فالبحرين فاليمامة ولما توفي النبي سنة ١٠ للهجرة كانت سطوة الاسلام قد اظلت كل جزيرة العرب . وشاهد النبي دولة الاسلام تمتد من تبوك وأيلة شمالا الى شواطئ اليمن جنوبا ومن خليج العجم شرقا الى بحر القلزم غربا

سعتها في زمن الخلفاء الراشدين

فلما تولى أبو بكر وفرغ من الردة بعث الجند لفتح الشام والعراق ، واتم فتحهما عمر بن الخطاب وفتح مصر ، وكانت أكثر الفتوح في عصره . وخلفه عثمان ففتح بلادا أخرى ، وشغل المسلمون عن الفتوح بعد مقتله بالفتنة التي شبت بينهم . حتى اذا انقضى عصر الخلفاء الراشدين وضع معاوية يده على أزمة الخلافة ورايات المسلمين تخفق على الشام ومصر والنوبة وافريقية والعراق وفارس وارمينية واذربيجان وجرجان وطبرستان والاهواز وغيرها وكان الخليفة يقيم في المدينة (أو الكوفة) ويرسل عماله الى الاعمال (الولايات) ، وأكبر أعمال المملكة الإسلامية يومئذ الشام وتحتها اجناد حمص وقنسرين والاردن وفلسطين والثغور ، ثم العراق واعظم أعماله السواد وهو ما بين دجلة والفرات وعاصمته الكوفة على الفرات ، وما عدا السواد البصرة وقرقيسية والرى واصفهان ونهاوند واذربيجان وحلوان وهمدان وغيرها ، وفي بلاد العرب مكة والطائف والبحرين وعمان وصنعاء ، وفي قارة افريقيا مصر وما يتبعها من افريقية في بلاد المغرب والنوبة في أعالي وادي النيل . وكان الخلفاء يرسلون عمالهم الى هذه الاعمال راسا من المدينة (أو الكوفة) ، الا الشام فقد كن عاملها يقيم في دمشق وهو يولى عمالا على ما تحتها من الاجناد . وكذلك مصر ، كان عاملها في الغالب يرسل العمال من تحت امرته الى افريقية والنوبة

وكان عامل الشام في أيام عمر بن الخطاب الى آخر عصر الخلفاء الراشدين معاوية بن ابي سفيان ، ثم صار خليفة ونقل مركز الخلافة الى دمشق كما تقدم ، وتخلفت جزيرة العرب كلها عن بيعته وظلت على بيعة علي ثم اولاده . وبعد مقتل الحسين ظلت الجزيرة على بيعة ابن الزبير ، حتى قتله الحجاج في أيام عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ فانضمت الى دولة بني أمية

سعتها في أيام بني أمية

وفي أيام بني أمية زادت الدولة الاسلامية اتساعا ففتحت الاندلس وسائر المغرب غربا ، واوغل بنو أمية في أوروبا من وراء أسبانيا فقطعوا جبال البرت



شارل مارتل يحارب العرب بين تورس وبواتيه بفرنسا

— وهي المعروفة بالبرانس — ودخلوا فرنسا واوغلوا فيها الى نهر الرون سنة ١١٤ هـ ، فارتعد الافرنج لذلك وخافوا أن يصيبهم ما أصاب أسبانيا ، فتكاتفوا لدفعهم بكل جهدهم ، فحصلت بين الفريقين وقائع دموية دامت بضعة أيام والحرب سجال ، وانتهت بهزيمة العرب في مكان يسمى بلاط الشهداء بين بلدتي تور وبواتيه في وسط فرنسا الحالية . ولم يذكر العرب من اخبار هذه الوقائع الا اشارات مختصرة ، وأما الافرنج فانهم فصلوها مع ما يقتضيه المقام من اعجابهم بالعرب وبسالتهم ، وان كانت الوقائع كما سجلها مؤرخوهم مضطربة اسطورية الطابع . وكان يقود الفرنجة في معركة بلاط الشهداء ملكهم شارل مارتل جد الامبراطور شارلمان . ولم ينسحب العرب

من غالة (وهي فرنسا الحالية) بعد موقعة بلاط الشهداء ، وانما ظلوا مسيطرين على جزء كبير من الجنوب نحو ٣٠ سنة بعد هذه الموقعة (سنة ٧٣٢) وكانت عاصمتهم في هذه الناحية مدينة أربونة (نربون) حتى تخلوا عنها سنة ٧٥١/١٣٣

وقد ورد في تاريخ ابن الاثير ذكر هذه الحروب فقال : ان عبد الرحمن بن عبد الله الفافقى امير الاندلس خرج غازيا سنة ١١٤ هـ (وهي تقابل سنة ٧٣٢ تقريبا) ببلاد الافرنج فقتل هو ومن معه شهداء . وهذه هي الحملة التي حاربها شارل مارتل المذكور

ومما يستدعى الاعتبار والتأمل ان العرب لو فازوا في هذه الواقعة لانتشر الاسلام في فرنسا ثم سائر أوروبا ، لان الفرنجة ، سكان غالة اذ ذاك وهي فرنسا الحالية ، كانوا اقوى أمم أوروبا النصرانية على مدافعة العرب يومئذ ، ولانتشرت اللغة العربية في تلك القارة كما انتشرت في قارتي آسيا وافريقيا وسائر العالم الاسلامى

وامتدت فتوح الامويين في بلاد فارس فخراسان وما وراءها الى حدود الهند ، وهاك أقسام المملكة الاسلامية في زمن بنى أمية :

أعمال المملكة الاسلامية في زمن بنى أمية (*)

١	الشام وتقسم الى اربعة اجناد	٦	المدينة
٢	الكوفة	٧	افريقية
٣	البصرة وتشمل فارسى وسجستان والبحرين وعمان	٨	مصر
٤	أرمينية	٩	اليمن
٥	مكة	١٠	خراسان

(*) هذا التقسيم الادارى للدولة الاسلامية على عهد الامويين صحيح في جملته ، ولكننا نزيدة بيانا فنقول : ان الدولة الاسلامية كانت مقسمة اداريا الى خمس ولايات كبرى ، وهي :

- ١ - الحجاز واليمن ووسط الجزيرة (بما في ذلك نجد)
- ٢ - مصر ، وتنقسم قسمين : أسفل الارض (مصر السفلى) وأعلى الارض (مصر العليا)
- ٣ - العراقان : العربى والعجمى ، وكانا يعتبران ولاية كبيرة يحكمها والى العراق وحاضرته الكوفة ، ويتبعه أيضا خراسان وما وراء النهر وكان يلى أحدهما عامل من قبل والى العراق ومركزه مرو
- وكانت البصرة معتبرة ولاية يعين عاملها والى العراق ويتبع عامل البصرة ولاية البحرين وعمان ، وكان يعين عليها عامل من قبله
- وكانت السند ولاية تابعة لوالى العراق أيضا
- ٤ - الجزيرة (شمالى العراق) ويتبعها أرمينية وأذربيجان وما يدخل في الدولة الاسلامية من أراضي آسيا الصغرى
- ٥ - افريقية وحاضرتها القيروان ويتبعها المغرب الاوسط والمغرب الاقصى والاندلس وكان والى افريقية يعين من قبله ولاية على هذه الاقسام بما في ذلك الاندلس

أعمالها في زمن العباسيين

ولما أفضت الخلافة الى بنى العباس ترتبت الولايات على هذه الصورة :

٧ خراسان	١ الكوفة والسواد
٨ الموصل	٢ البصرة ومهرجان قباد الى كور
٩ الجزيرة (بين النهرين وارمينية واذربيجان)	دجلة وما وراءها جنوبا الى البحرين فعمان
١٠ الشام	٣ الحجاز واليمامة
١١ مصر وافريقية	٤ اليمن
١٢ السند في حدود الهند	٥ الاهواز (خوزستان)
١٣ الاندلس	٦ فارس

ثم اتسع نطاق المملكة الاسلامية على عهد العباسيين حتى صارت الى اوسع ما بلغت اليه في زمن الاسلام حتى الآن . ولا عبرة بخروج بعض الاعمال من سيطرة العباسيين كالاندلس ، لما تولها بنو امية ، واستقلال بعض الدول الثانوية كالطاهرية والسامانية والاغلبية والطولونية ونحوها ، فقد كان امراء هذه الدول كلهم يخطبون للخليفة العباسي (الا الاندلس) ومهما اختلفت الدول فالمملكة اسلامية وحكامها مسلمون

وقد بلغت حدود هذه المملكة شمالا الى اعالي تركستان في آسيا وجبال البرت (وهي المعروفة اليوم بالبرانس) في شمالي اسبانيا ، وجنوبا الى بحر العرب والمحيط الهندي وقاصية الصحراء الافريقية الكبرى ، وشرقا الى بلاد السند والبنجاب من بلاد الهند ، وغربا المحيط الاطلنطي ، وزادت مساحتها بذلك على ضعفى مساحة أوروبا

ولبيان عظمة تلك المملكة الواسعة نأتى بأسماء أعمالها ثم نبين مقدارها :

الموصل	مهرجان قذق	السواد
ديار ربيعة	الايغارين	الاهواز
أرزن وميافارقين	قم وقاشان	فارس
طوران	اذربيجان	كرمان
طريق الفرات	الرى	مكران
قنسرين والعواصم	قزوين	اصبهان
حمص	طبرستان	سجستان
دمشق	تكريت	خراسان
الأردن	شهر زور	همدان
فلسطين	الدامغان	ماسبدان

ارمينية	حلوان	مصر
آمد	الكوفة	جبلان
ديار مضر	البصرة	برقة
اليمن	زنجان	افريقية
اليمامة والبحرين	قومس	مكة والمدينة
عمان	جرجان	الجزيرة والديارات والفرات وموقان وكرخ

هذه أعمال الدولة الاسلامية العباسية ما عدا مملكة بنى أمية في الاندلس ، وكانت معاصرة لها وقد فتحت صقلية ومالطة وغيرهما من جزر البحر المتوسط . وكان على كل عمل من هذه الاعمال وال او عامل يوليه الخليفة او وزيره او نائبه كما سترى . فبلغ عدد هذه الاعمال - او الولايات في اصطلاح هذه الايام - ٤٨ ولاية ، لكل منها بيت مال وديوان خراج وقاض او أكثر . وسكانها هم معظم أمم العالم المتمدن في ذلك الحين ، وفيهم العرب والفرس والأتراك والاكراد والمغول والتتر والافغان والهنود والارمن والسريان والكلدان والروم والقوط والقبط والنوبة والبربر وغيرهم . وكانوا يتكلمون العربية والفارسية والبهلوية والهندية والرومية والسريانية والتركية والكردية والارمنية والقبطية والبربرية وغيرها . فمنهم من أصبحت اللغة العربية لغتهم وضاعت لغاتهم الاصلية كأهل الشام ومصر والمغرب والعراق . ومنهم من اختلطت العربية بلغاتهم الاصلية كأهل فارس وتركستان والهند والافغان وغيرها . ولا تزال كثير من أمم آسيا وافريقيا تكتب لغاتها بالحروف العربية الى الآن اثرًا لذلك التمدن العظيم

احصاؤها

وكان يحسن بنا في هذا المقام النظر في احصاء هذه البلاد في تلك الايام ، ولكن ذلك غير مستطاع لان العرب قلما اهتموا بتعداد سكان ممالكهم . وانما ننظر في احصاء سكان هذه البلاد اليوم فنأتى بما يقابلها واسم الدولة التي هي تابعة لها وعدد سكانها ثم نقابل بين احوالها سنة ١٩١٤ و احوالها في تلك الايام ، وهذا هو احصاؤها :

عدد سكانها	الدولة التابعة لها	أسماء البلاد
٦٥٠٠ . . .	مستقلة	ايران كلها
٤٥٠٠ . . .	مستقلة	افغانستان

عدد سكانها	الدولة التابعة لها	اسماء البلاد
٣٥٠٠	انجلترا	السند وبلو خستان
٦٠٠٠	روسيا	تركستان
١١٠٠٠	روسيا	القوقاز
٢٥٠٠	تركيا	ارمينية وكرديستان
٢٥٠٠	تركيا	العراق والجزيرة
٣٧٦٥	تركيا	سوريا وفلسطين
٥٠٠٠	تركيا	جزيرة العرب
١٢٠٠٠	تركيا	القطر المصري
٢٠٠٠	السودان	النوبة وبعض السودان
١٠٠٠	ايطاليا	طرابلس الغرب
٥٢٣١	فرنسا	جزائر الغرب
١٥٠٠	فرنسا	تونس
٥٠٠٠	مستقلة	مراكش
٢٠٠٠٠	مستقلة	اسبانيا
٢٦٠	انجلترا	قبرص
٣١٠	تركيا	كريد
٩٥٢٧٦		

مقدار العمارة

هذا هو تعداد سكان تلك البلاد لغاية سنة ١٩١٤ (*) ولكن كثيرا من المدن الاسلامية اصبح خرابا بعد ذلك ، في اواخر العصور الوسطى بالقياس الى ما كان عليه في عهد الدولة الاسلامية ، وخصوصا العراق او السودان ، وعلى

(*) اما تعدادهم سنة ١٩٥٥ فقد كان كالآتي : الباكستان ٦٨٢٠٠٠٠٠ ، اندونيسيا ٦٦٢٠٠٠٠٠٠ ، الهند ٣٥٠٠٠٠٠٠٠ ، الصين ٢٣١٠٠٠٠٠٠ ، روسيا ٢٢٢٥٠٠٠٠٠ ، مصر ٢٠٤٠٠٠٠٠٠ ، تركيا ١٩٨٠٠٠٠٠٠ ، ايران ١٨٥٠٠٠٠٠٠ ، أفغانستان ١٢٠٠٠٠٠٠٠ ، نيجيريا ٨٠٠٠٠٠٠٠٠ ، مراكش ٨٠٠٠٠٠٠٠٠ ، الجزائر ٧٨٠٠٠٠٠٠٠ ، السودان ٦٧٠٠٠٠٠٠٠ ، المملكة السعودية ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ، افريقيا الفرنسية ٥٦٠٠٠٠٠٠٠ ، العراق ٤٧٠٠٠٠٠٠٠ ، الحبشة ٤٥٠٠٠٠٠٠٠ ، اليمن ٤٥٠٠٠٠٠٠٠ ، تونس ٣١٠٠٠٠٠٠٠ ، الملايو ٢٦٠٠٠٠٠٠٠ ، يوغوسلافيا ١٧٠٠٠٠٠٠٠ ، الاردن ١٦٠٠٠٠٠٠٠ ، تنجانيقا ١٥٠٠٠٠٠٠٠ ، الصومال ١٢٠٠٠٠٠٠٠ ، ليبيا ١١٠٠٠٠٠٠٠ ، مدغشقر ٨٠٠٠٠٠٠٠٠ ، البانيا ٨٠٠٠٠٠٠٠٠ ، بورما ٧٠٠٠٠٠٠٠٠ ، الفيليبين ٧٠٠٠٠٠٠٠٠ ، لبنان ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ، عدن ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ، سيام ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ، بلغاريا ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ، سيلان ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ، مسقط ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ ، الكامرون ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ ، الصومال البريطاني ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ ، ارتيريا ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ ، سنغافورة ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ ، ليبيريا ٣٥٠٠٠٠٠٠٠ ، زنجبار ٢٦٠٠٠٠٠٠٠ ، الهند الصينية ٢٦٠٠٠٠٠٠٠ ، غمبيا غرب افريقيا ٢٣٠٠٠٠٠٠٠ ، سيراليون ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ ، كينيا ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ ، نياسلاند ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ ، أوغندا ١٧٠٠٠٠٠٠٠ ، الكويت ١٧٠٠٠٠٠٠٠

وجملة ذلك حوالي ٣٥٠ مليوناً

الاخص بغداد والبصرة والكوفة وسائر مدن العراق . وقد وصف الاصطخري مدينة البصرة وصفا يمثل ما كانت عليه ارض العراق من العمارة في عصره قال :

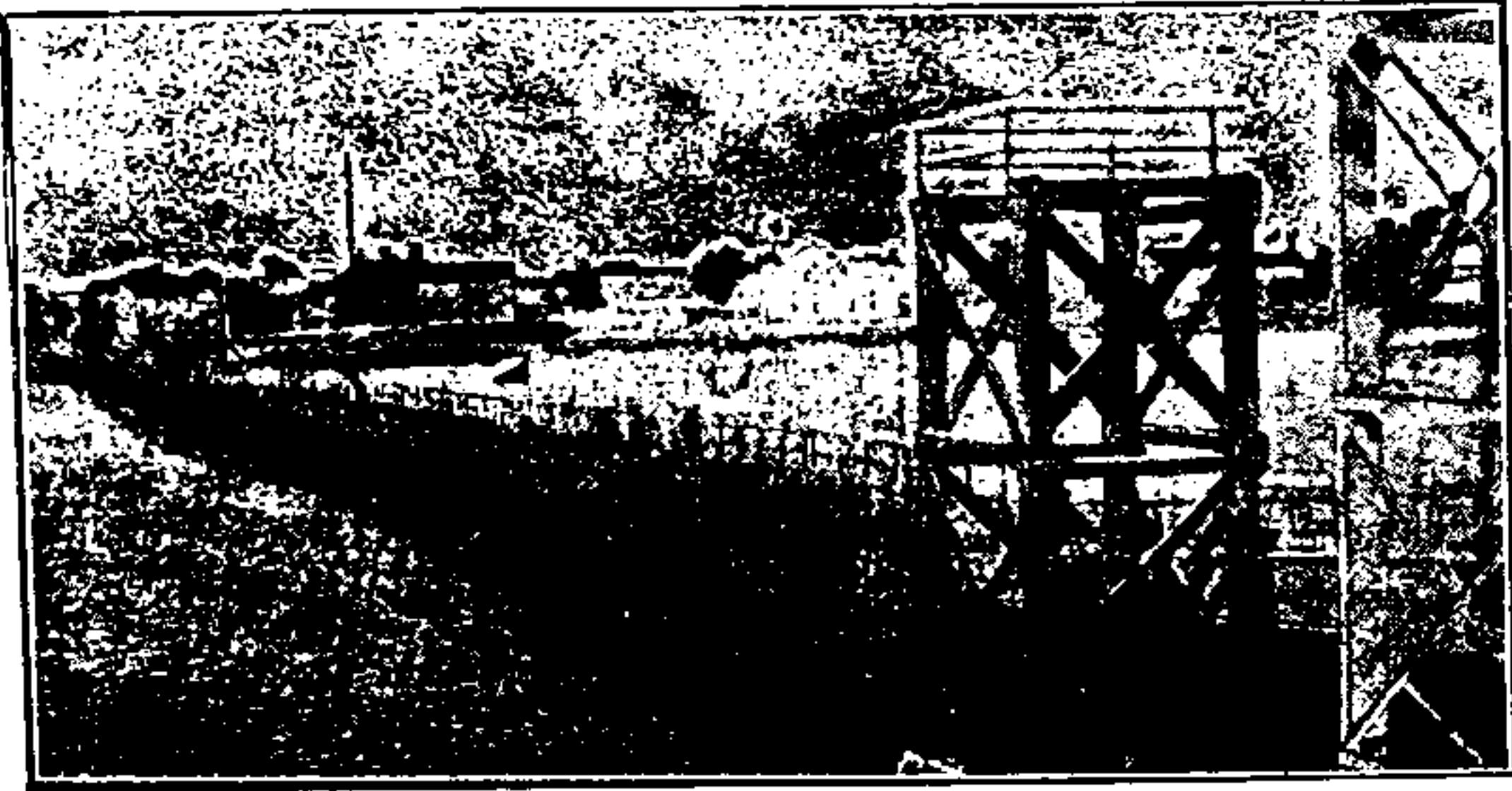
البصرة

« البصرة مدينة عظيمة لم تكن في ايام العجم وانما مصرها العرب ... وليس فيها مياه الانهارا. وذكر بعض اهل الاخبار ان انهارا(*) البصرة عدت ايام بلال بن ابي بردة فزادت على مائة الف نهر وعشرين الف نهر يجرى فيها الزوارق . وقد كنت انكر ما ذكر من عدد هذه الانهار في ايام بلال ، حتى رأيت كثيرا من تلك البقاع ، فربما رأيت في مقدار رمية سهم عددا من الانهار صفارا تجرى في كلها زوارق صفار ، ولكل نهر اسم ينسب به الى صاحبه الذي احتفره او الى الناحية التي يصب فيها . فجوزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها »

فاعتبر المسافة التي تحفر فيها ١٢٠.٠٠٠ نهر او ترعة كم يمكن ان يكون سكانها ؟ وهذا مستغرب عند اهل هذا الزمان لكنه يدل على كل حال على عمران تلك الارض

بغداد

وناهيك ببغداد مدينة الخليفة ودار السلام ، فقد ذكر الاصطخري ايضا



بغداد وجسرها ممتد فوق دجلة

في وصفها كما شاهدها في ايامه في القرن الرابع للهجرة ، قال : « وتفترش

(*) يريد بالانهار هنا القنوات والترع

قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد ، حتى تتصل من نهر بين الى شط دجلة ، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعا على دجلة الى الشماسية نحو خمسة أميال ، وتحاذي الشماسية في الجانب الغربى الحربية فيمتد نازلا على دجلة الى آخر الكرخ « الخ

ثم قال : « وبين بغداد والكوفة (أو بين دجلة والفرات) سواد مشتبك غير مميز تخترق اليه أنهار من الفرات « ثم عدد الأنهر التي تمتد من الفرات الى دجلة

فأين هذه العمارة مما صارت اليه بغداد عند اضمحلالها ابان العصر التركي؟ فان احصاء ولاية البصرة كلها قبيل الحرب العالمية الاولى . . . ٢٠٠ نفس ، وتعداد ولاية بغداد ٨٥٠٠٠٠ ، ونظن احصاء الولايتين جميعا كان اذ ذلك اقل كثيرا مما كانت تحويه مدينة بغداد وحدها

وقس على ذلك مدينة دمشق وغيرها من المدن التي ضعف أمرها اليوم (*). وهناك مدن أخرى كانت يومئذ في ابان مجدها فأصبحت الآن اسما بلا مسمى ، مثل الفسطاط في مصر ، والكوفة في العراق ، والقيروان (***) في أفريقية، وبصرى في حوران ، وغيرها مما لا محل للكلام فيه هنا

مصر

وأما مصر فيؤخذ من كلام مؤرخى العرب أنها لما فتحها المسلمون كان عدد الذكور فيها ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك « ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ » ثمانية آلاف الف (. . . ٨٠٠٠) منهم في الاسكندرية وحدها . . . ٣٠٠ ، فاذا أضفنا الى ذلك عدد الإناث والأطفال والشيخوخ زادت جملة على . . . ٣٠٠٠٠ ، وهو نحو ثلاثة أمثال سكانها اليوم (***)

وقد يطعن في صحة هذه الرواية ، ولكن يستدل من مجمل أقوالهم في مصر أنها كانت في رغد ورخاء ، وكان عمرانها بالغا حد النهاية وذكرت ياقوت في معجم البلدان « أن المقوقس قد تضمن مصر من هرقل

(*) يريد بذلك قبل الحرب العالمية الاولى ، وقد تغيرت أحوال دمشق وبغداد والبصرة وغيرها من العواصم العربية بصورة لا تحتاج الى اشارة
(**) يصدق هذا على الكوفة ولكنه لا ينطبق على الفسطاط، فلا زالت عامرة الى اليوم كجزء من القاهرة ، أما القيروان فهي اليوم مدينة زاهرة ، وهي في نهوض وتحسن يوما بعد يوم
(***) هذا التقدير مبالغ فيه ولم أعرف مصدره ، ولكن ابن عبد الحكم (فتوح مصر طبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩١٤) ص ٦٣ - ٦٤ يقدر عدد من وجبت عليه الجزية في العهد الذى صالح العرب اقباط مصر عليه بستة ملايين ليس فيهم شيخ ولا امرأة ولا طفل . ويؤكد ذلك المقرئى فى الخطط (بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ١ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ والسيوطى : حسن المحاضرة (القاهرة ١٢٩٩ هـ) ج ١ ص ٨٧ ، وعلى هذا الاساس يمكن تقدير سكان مصر عند الفتح العربى بين ١٨ و ٢٠ مليوناً

بتسعة عشر ألف ألف دينار، وكان يجبيها عشرين ألف الف دينار، وجعلها عمرو بن العاص عشرة آلاف ألف دينار أول عام، وفي العام الثاني اثني عشر ألف الف دينار، ولما وليها في أيام معاوية جباها تسعة آلاف الف دينار، وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أربعة عشر ألف الف دينار (١). وقد أجمع المؤرخون المحدثون تقريبا على تقدير سكانها في تلك الايام بنحو ٢٠٠٠٠٠ نفس

قال المقرئى : « ان هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٧ هـ) امر عبيد الله بن الحبحاب عامله على خراج مصر ان يمسحها ، فمسحها بنفسه فوجد مساحة أرضها الزراعية مما يركبه النيل ٣٠٠٠٠٠ فدان (٢) مع أن مساحة الارض الزراعية في وادى النيل (١٩١٤) مع ماتبدله الحكومة في العناية في اخصابها وتعميرها لم تتجاوز ستة ملايين فدان كثيرا . ومساحة وادى النيل كلها أى الوجه البحرى والصعيد على جانبى النيل لاتزيد على هذا القدر الا قليلا . فيستحيل أن تكون مساحتها في أوائل الاسلام خمسة اضعاف ذلك (*)»

ولكن يظهر أن العرب زرعوا ما يجاور هذا الوادى من الشرق نحو البحر ومن الغرب الى وادى النطرون ، لان مساحة مصر بما فيها من الواحات في صحراء ليبيا والارض بين النيل والبحر الاحمر وبينه وبين بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) الى العريش تزيد على ٤٠٠٠٠٠ ميل مربع وذلك يساوى نحو ١٨٧ مليون فدان . فلا غرابة ان يكون العامر منها ٣٠ مليون فدان ، وأن يكون سكانها ٢٠ مليون نفس (***)»

ويؤيد ذلك أن مؤرخى العرب كانوا يقدرون مساحة مصر نحو ماتقدم تقريبا . قال المقرئى : « وآخر ما اعتبر حال أرض مصر فوجد مدة حرثها ستين يوما ومساحة أرضها ١٨٠٠٠٠٠ فدان ، يزرع منها في مباشرة ابن المدبر (في أواسط القرن الثالث للهجرة) ٢٤٠٠٠٠٠ فدان ، وانه لا يتم خراجها حتى يكون فيها ٤٨٠٠٠٠٠ حراث يلزمون العمل بها دائما . الخ (***)»

(١) معجم البلدان ٢٥٢ ج ٤ (٢) المقرئى الخطط ، ج ١ ص ٩٩

(*) يريد بوادى النيل هنا الاراضى الخصبة الصالحة للزراعة في مصر (***) لم يثبت أن العرب أو من قبلهم زرعوا هذه النواحي ، ولكن الذى استفاد من النصوص انها كانت على أيام البطالسة والرومان والبيزنطيين مناطق مراعى تعيش فيها جماعات من الرعاة وتقوم فيها القرى عند الآبار الكبيرة وكانت تسكنها جماعات كبيرة من الرهبان والديارين في العصر البيزنطى ، أما في أوائل العصور الاسلامية فقد قلت فيها الحشائش ونضب معظم الآبار بسبب التطور العام في جو مصر وميله الى الجفاف شيئا فشيئا

(٣) المقرئى : الخطط ، ج ١ ص ١٠٠

(***) وعبارة المقرئى هنا غير متناسقة ، وفيها تضارب ولا يمكن قبولها على علانها

واعتبر نحو هذا العمران أيضا في مدن الاسلام الكبرى في الاندلس ، مثل قرطبة وغرناطة وطيطة ، وفي العراق والشام بلاد لا تحصى كانت في تلك الايام مدنا كبرى واصبحت الآن قرى صغيرة

فاذا اعتبرنا كل ماتقدم لانستبعد ان يكون احصاء المملكة الاسلامية في ابان عمراتها نحو ٢٥٠ نفس الى ٣٠٠ مليون وهو نحو تعداد سكان اوربا كلها الآن (*) . وسنعود الى ذلك في كلامنا عن ثروة المملكة

(*) اي سنة ١٩١٤ ، اما تعداد سكان اوربا اليوم فهو ٣٩٥٤٠٠٠٠٠٠ (ما عدا روسيا) وتقدير سكان الدولة الاسلامية في عصرها الذهبي بمائتين وخمسين مليونا من الانفس تقدير واسع جدا

مناصب الدولة الإسلامية

انتهينا من الكلام في نشوء الدولة الإسلامية وتكونها فننتقل الى الكلام في تنظيمها الادارى ودواوينها وادارات حكوماتها وتاريخ كل منها . وخصوصا الكلام في كيفية نموها وتفرعها الى تلك المناصب

نمو الدولة الإسلامية

نشأت الدولة الإسلامية في المدينة في السنة الاولى للهجرة ، والمسلمون يومئذ من الصحابة لايزيد عددهم على بضع عشرات ، بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الانصار ، فجعلوا أساسها المساواة والمؤاخاة والتعاون . فقد ذكرنا أن النبي آخى بين المسلمين ومكن المؤاخاة بأن جعل أموالهم واحدة ومصالحهم واحدة كما يستدل من قوله : « من ترك كلا (١) فالينا ومن ترك مالا فلورثته » . وقد كان ذلك الاشتراك في المصالح داعيا الى زيادة الاتحاد ، وأعمال الدولة يومئذ محصورة في النبي وتشمل السياسة والادارة والدين ، ففرضت الصلاة والزكاة وغيرهما من الفروض التي تعد من قبيل الدين ، ولا نبحت فيها الا من حيث دخلها في تأسيس الدولة

أما صلاة الجماعة فكانت تبعث على الاتحاد والنظام والطاعة للنظام العام من الناحية الاجتماعية . وأما الزكاة فقد كانت من أول الامر مظهرا من مظاهر التساند الاجتماعى بين طبقات الأمة ، ولم تعتمد عليها الدول الإسلامية كمصدر رئيسى من مصادر الدخل ، فقد تركت الدول أمرها للناس ولم تجمعها للخزانة ، الا في حالات قليلة

ولا يخفى أن للدول نظما مختلفة ، ففيها الملكى والجمهورى والمطلق والمقيد ، ولكل دولة قوانين تختلف عما للآخرى مما لا يحصره وصف . ولكنها ترجع كلها الى أمرين أساسيين تشترك فيهما جميعها ، وهما المال والجند . وما من دولة مهما كان نوع نظامها الا وفيها الجندية والمالية ، اذ لا قوام لها بدونهما ، وربما كانت الحاجة اليهما في أوائل الدولة أشد مما بعدها . والمسلمون هم الجند والزكاة والضرائب المختلفة التي تقررت شيئا فشيئا هي الموارد المالية التي تقوم بتكاليف الدولة ، فكان أساس الدولة الإسلامية هذه الآية : « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين »

(١) الكل (بفتح الكاف) اليتيم .. والعيال والثقل والذى لا ولد له ولا والد والضعيف

الزكاة توطد عرى الاتحاد بين افراد المجتمع الاسلامى ، والاتحاد هو أساس الاسلام . ذلك لانها تؤخذ من اغنياء المسلمين مما يزيد من أموالهم وتعطى الفقراء منهم . وتسمى الزكاة في كثير من الاحيان صدقة ، وقد بدأ المصطلحان بمعنى واحد ، ثم اختلف استعمالهما بعض الشيء فيما بعد ، وللأئمة والفقهاء في ذلك آراء تعنى من يدرسون الاصول ، ولكن المؤرخ يهتم بناحية الزكاة الاجتماعية وبأهميتها كمورد من موارد الدخل الاجتماعى للدول الاسلامية . وقد اشار الى معناها الاجتماعى رسول الله عندما قال لمعاذ حين بعثه الى اليمن اذ قال له : « انك تأتى قوما أهل كتاب فادعهم الى شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، فان هم اطاعوا لذلك فأعلمهم ان الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، فان هم اطاعوا فأعلمهم ان الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم اطاعوا لذلك فاياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب »

وفي فرض الزكاة على الاغنياء واعطائها للفقراء حكمة عالية ، لانها تسترضى الفقراء وهم الجمهور الاكبر وخصوصا في عصور الجاهلية أيام الاستبداد والاستئثار . وقد جاء الاسلام لنصرة الضعيف والمساواة بينه وبين القوى ، ولذلك كان خصوم الدعوة المحمدية من كبار القوم الذين ساءهم ان يشاركوا فقراءهم بأموالهم وأن يكونوا اخوة لهم (*)

وبعد واقعة بدر الكبرى سنة ٢ هـ حدثت الغنائم والجزية كما سيأتى ، فأصبحت موارد الدولة في العهد النبوى وعهد أبى بكر منحصرة في الزكاة التى تجمع من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، والغنائم المكتسبة بالغزو وتقسم في المحاربين ، وما فرضوه على من دخل في ذمتهم من اليهود والنصارى في بلاد العرب من الجزية ونحوها . ويتولى ذلك كله النبى أو خليفته . وكانت الاموال التى ترد من الغنائم تفرق فيهم على السواء ، الصغير والكبير ، الحر والعبد ، الذكر والانثى . فاذا جاء المدينة مال من بعض البلاد احضر الى المسجد وفرق على ما يراه النبى أو الخليفة بلا قيد ولا ضبط ولا يبقى منه باق

(*) « الزكاة مأخوذة من زكا الشيء اذا نما وزاد، يقال: زكا الزرع والمال يزكو اذا كثر وزاد، ورجل زكى أى زائد الخير، وسمى الاخراج من المال زكاة ، وهو نقص منه، من حيث ينمو بالبركة أو بالاجر الذى يثاب به الزكى .. » - القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ، طبعة دار الكتب ، ج ١ ص ٢٤٢

وتؤخذ الزكاة على أموال معينة حددها الائمة ، اما وجوه انفاقها فقد حددتها الآية الكريمة : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم » - سورة التوبة ، الآية ٦٠

الديوان

ولما فتحت البلاد في زمن عمر بن الخطاب ، واختلط العرب بالروم والفرس ، واتسع سلطان المسلمين وكثرت وارداتهم وتعددت مصادر الدخل ، اضطروا الى ضبط ذلك وتقييده وتعيين ما يدخل وما يخرج منه . فرأى عمر ان يضبط الوارد في الدفاتر ، فيدفع منه رواتب معينة في العام الى كل على قدر استحقاقه ، والذي يبقى من الاموال يحفظ للانتفاع به عند الحاجة . فشرع في ذلك في السنة العشرين للهجرة (وقالوا في السنة الخامسة عشرة) وهو ما يعبر عنه بالديوان اقتداء بما كان عند الفرس والروم

ونظر عمر فيمن حوله من المسلمين فاذا هم طبقات ودرجات ، باعتبار ادوارهم في انشاء هذه الدولة وتوسيع سلطاتها ، فرأى ان يجعل عطاء كل واحد منهم على قدر خدمته ، ولكنه اعتبر ايضا القرابة من النبي فميز اهله بشيء خاص كما سنفصله ، واستناب عنه في تدوين ذلك كاتباً يتولى ضبطه

ولما تكاثرت موارد المال الى المدينة انشأ عمر خزانة او داراً سماها « بيت المال » ، وهو اول من فعل ذلك من الخلفاء ، وان كنا نرى ذكر بيت المال في عهد ابي بكر فما هو الا من قبيل القياس ، لان ابا بكر لم يكن يفضل عنده مال يحفظه في خزانة او بيت

فانقضت دولة الخلفاء الراشدين (سنة ٤٠ هـ) واصحاب المناصب فيها :

- (١) الخليفة (٢) عماله في الامصار (٣) كاتب يكتب له الكتب ويتولى امر الديوان
- (٤) خادم خاص كانوا يسمونه الحاحب (١) (٥) خازن يتولى بيت المال
- (٦) قاض يقضى في الخصومات

فلما افضت الخلافة الى بني امية واصبح الامر ملكاً سياسياً وكثرت مخالطة المسلمين للاعاجم ، جعلت تلك الادارات تتفرع وتتوسع عملاً بناموس الارتقاء العام ، وازدادوا اليها مناصب اقتبسوها من الروم والفرس . وقضى عليهم الترف وابهة الملك ان يتخذوا الخدم والحشم والحجاب والحراس ، فحدث في عهد بني امية الحرس وديوان الخاتم والبريد وديوان الخراج مما سيأتى بيانه

ولما آل الامر الى بني العباس زادت عوامل الاختلاط وزاد ميل الخلفاء الى الترف والرشاء ، فاستنابوا من يقوم مقامهم في مباشرة الاعمال ، فاستحدثوا

(١) الديمري ٢١٠ ج ٢ (نقل من المهذب)

منصبى الوزارة والحسبة وغيرهما ، وتفرعت المناصب الاولى وتشعبت على مقتضيات الاحوال ، ثم احدثت كل دولة من دول الاسلام مناصب اقتضتها احوالها ، فاختلقت في بغداد عما في قرطبة ، وفيهما عما في القاهرة مما لامحل لتفصيله

تشعب المناصب

كان الخليفة في عهد سذاجة الدولة هو الذى يراقب أعمال الدواوين بنفسه، وكان عماله لا يزالون من أهل الزهد والتقوى لا يحتاجون الى من يراقب أعمالهم أو يستطلع خفاياهم . ولم يكن للخليفة أموال خاصة ولا ضياع تحتاج الى كتاب أو حساب ، وكان اذا كتب الى أحد عماله كتابا ختمه بخاتمه بيده ، وربما كتب الكتاب بيده . فلما اتسع سلطانهم ، وتبدلت وجهة الخلافة من الدين الى السياسة ، ومال الخلفاء الى التقاعد وتقليد القياصرة والاكاسرة ، استخدموا من يقوم بتلك الاعمال ، فأقاموا من يباشرون أمور الدولة عنهم وهم الوزراء ، ومن يراقب تصرف العمال فى الامصار وهو صاحب ديوان البريد ، ومن يتولى ختم الرسائل وتقييدها وهم أصحاب ديوان التوقيع أو الخاتم ، ومن يتولى النظر فى ضياعهم وأملاكهم وهم عمال ديوان الضياع ، ومن ينظر فى حسابات حاشيتهم وخدامهم وهم عمال ديوان الخاص . واقتضت حضارتهم ان يضربوا النقود ويتخذوا الطراز ، فأنشأوا دار الضرب وديوان الطراز ، ودواوين اخرى بعضها لعرض الرسائل وبعضها لغير ذلك ، مثل ديوان الترتيب وديوان العزيز ، وهذا كان يشبه الباب العالى

وكان الكاتب فى عهد الخلفاء الراشدين هو الذى يتولى الديوان على ما وضعه عمر ، فيدون ما يرد من أموال الخراج والجزية وغيرهما ، وما ينفق على الجند والعمال والقضاة وغيرهم ، ويتولى مكاتبة العمال . فلما اتسعت أعمال الدولة تشعب ذلك الديوان الى ما يختص بحسابات الخراج والجزية وهو ديوان الخراج ، والى ما يختص بالنفقة على الجند وغيرهم وهو ديوان الزمام والنفقة ، والى ما يتعلق بغير ذلك مثل ديوان الاقطاع وديوان المعادن ، والى ما يختص بتدوين أسماء الجند وطبقاتهم ورواتبهم وهو ديوان الجند . وتفرع من ديوان الجند ديوان الاساطيل وديوان الثغور وغيرهما . وأفردوا لمراسلات العمال وغيرهم ديوانا خاصا هو ديوان الرسائل أو الانشاء

وكان بيت المال مخزنا عاما لكل أموال المسلمين ، فتفرع فى أيام الامويين والعباسيين الى عدة فروع ، بعضها لاموال الصدقات ، وبعضها لاموال المظالم،

وبعضها لاموال الورثة ، وبعضها لغير ذلك . وعلى هذا النمط تشعبت المناصب الاخرى ، فتفرع من القضاء ديوان المظالم والحسبة والشرطة ونحو ذلك مما لا يمكن حصره

وشأننا في هذا المقام النظر في نشأة الدواوين الاساسية وتاريخها وسائر احوالها . ولا ينجلي ذلك الا اذا نظرنا في اصولها وكيف تكونت وتفرعت ، والاحوال التي دعت الى ذلك . فنبدأ بالخلافة وتوابعها وملحقاتها ، فولاية الاقليم ، فالوزارة ، ثم نفرد لكل من الجند والمال وغيرهما بابا خاصا

الخلافة

ماهيتها وشروطها وحقوقها

ماهيتها

الخلافة ضرب من الملك خاص بالاسلام لم يكن في سواه من قبل ، وهى من قبيل السلطة الملكية المطلقة ، ولكنها تمتاز عن سلطة القياصرة والامبراطورين والاكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدينية ، فتحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخرى والدينية الراجعة اليها ، واما تلك فتتخصص فى حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدينية (*)

وقد يظهر الفرق بين السلطتين كبيرا ومرجعهما الى مبدأ واحد ، لان الذى يتأتى له أن يتولى أمور الناس ويحكم فيهم حكما مطلقا ، اما أن يسير بهم على قانون مفروض ، أو على مقتضى ميوله وأغراضه . واكثر حكام العالم المتمدين يحكمون بقوانين سياسية وضعها عقلاء الامة وأكابر الدولة ، يطيعها الناس ويجرون على احكامها ، كذلك كان الفرس والروم قبل الاسلام ، وكان هذا شأن الملوك المطلقين فى اوربا الى عهد قريب ، بل كذلك شأن الديمقراطيات التى يتولى الحكم فيها ملك يرث العرش عن آباءه ، أو رئيس جمهورية ينتخبه الشعب وفق قواعد مقررة فى الدستور ، ويقوم بالحكم فى حدود يعينها الدستور أيضا

وأما الخلافة فانها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمته ويحمل الناس على احكامها بالنيابة عن النبى صاحب تلك الشريعة ، ومن هذا القبيل اشتمال الخلافة على الامامة ، وقد سموا الخليفة اماما تشبيها بامام الصلاة فى اتباعه والاقتران به (**)

(*) استخدام المؤلف هنا تعبير ابن خلدون والفاظه (***) نهى أبو بكر الناس عن أن يلقبوه بخليفة الله بل خليفة رسول الله ، وظل هذا هو المفهوم للفظ خليفة حتى نهاية الدولة الاموية على الاقل ، وذلك لا يمنع من القول من أن الناس اجازوا ان يلقب الخليفة بلقب خليفة الله حتى فى عصر الراشدين ، فقد وصف حسان ابن ثابت عثمان بخليفة الله فى إحدى مرثيه اياه . وقد ساد هذا المعنى ابتداء من العصر العباسى ، فأصبح الخلفاء خلفاء الله فى أرضه وما أشار اليه المؤلف من القاب الخليفة - كأمير المؤمنين والامام - كلها خصائص داخلية فى معنى الخليفة ، فالخليفة أمير المؤمنين لانه القائد الاعلى للجيش الاسلامى ، والامير هو القائد وهو

شروط الخلافة

للخلافة أربعة شروط يشترط توفرها في الخليفة ، وهى العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس (*) ، واختلفوا في شرط خامس هو النسب القرشى أى ان لايقوم خليفة الا من قبيلة قريش ، فامتنع حينئذ ان يتولى امور المسلمين أعجمى باسم الخليفة . واصل هذا الشرط حديث ، احتجت به قريش لما طلب الانصار الخلافة لهم كما تقدم في الكلام على بيعة أبى بكر ، وكان هذا الشرط مرعيا كل الرعاية في سائر احوال الدولة الاسلامية ، والخلافة لم يتطلبها غير القرشيين قط . ومع كل ما انتاب الخلفاء في اواخر الدولة العباسية من الضعف واستبداد الامراء فيهم حتى جردوهم من كل قوة دنيوية وانشأوا الدول دونهم ولقبوا انفسهم بالسلاطين ، رغم ذلك كله لم يخطر لاحد منهم ان يدعى الخلافة أو ان ينصب نفسه خليفة

هذه دول بنى بويه والسلاجقة والفرزنوية والظاهرية والايوبية وغيرهم ، قد استقلوا في الاحكام ، وفيهم من غلب على الخلفاء ، ولكنهم لم يسموا انفسهم الا سلاطين ، بل كانوا يتزلفون الى الخلفاء ليثبتوهم في الحكم . وكذلك فعل صلاح الدين الايوبى في مصر ، فانه تناول أزمة الملك في مصر من آخر خليفة فاطمى - وليس من يطالبه أو ينافس على السلطة وييده مقاليد البلاد - فلما أراد الاستقلال بالملك دعا على المنابر للخليفة العباسى ، ولم يسم نفسه خليفة بل اكتفى بلقب السلطان (***) . وأول من تولى الخلافة الاسلامية من غير قريش السلطان سليم الفاتح العثمانى سنة ٩٢٢ هـ ، وحجة الأئمة الحنفية في صحة خلافة بنى عثمان أن الخليفة يتولى الخلافة بخمسة حقوق وهى :

حقوق الخليفة عند الحنفية

١ - حق السيف . ومعنى ذلك أن طالب الخلافة يجب أن يقوم بدعوته

الامام لانه يؤم الصلاة ويرعى الدين ، أى ان كل خاصة من هذه لها معناها في تكوين قوة الخليفة ، فلقب الخلافة يعطيه السند القانونى ، فهو يحكم نيابة عن الرسول ، وأمره المؤمنون تعطيه السلطة التنفيذية ، والامامة تعطيه السلطة الشرعية أو التشريعية
انظر : الماوردى : الاحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨) ص ٤ وما بعدها
ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، القاهرة ١٢١٧ ج ٤ ص ١٦٢ - ١٧١
ابن خلدون : المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ٢٤٢ - ٢٥٢ ، وكذلك كتب التاريخ المعروفة كتواريخ الطبرى وابن الاثير والسلوك للمقريزى وما الى ذلك . أما المراجع غير العربية فانظر :
A.J.Wensinck und J.H. Kramers: Handwoerterbuch des Islam (Leiden 1941)

مادة « خليفة » فهناك أوفى ثبت لها

(*) الماوردى : الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨ ، ص ٤

(**) لم يسم صلاح الدين نفسه سلطانا ، ولكنه استصدر من الخليفة العباسى هذا القرب ، ولم يفعل ذلك الا بعد أن يئس من الاحزاب المتنافرة التى تقاسمت دولة نور الدين محمود بعد موته

انظر ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ص ١٧٦ وما يليها

انصار لا يقوى عليهم مناظر آخر على وجه الارض ، وقد كان ذلك شأن
السلطان سليم يوم التمس الخلافة بعد فتح مصر

٢ - حق الانتخاب : أى مصادقة أهل العقد ، وهو مجلس من الأئمة
والعلماء ، وحجتهم فى ذلك أن هذا المجلس كان فى أول عهد الاسلام بالمدينة ،
ثم نقل الى دمشق ، ثم الى بغداد ، ونقل من بغداد الى القاهرة ، فيجوز
ايضا نقله من القاهرة الى القسطنطينية . فلما فتح السلطان سليم مصر حمل
معه جماعة من علماء الازهر ، وأضاف اليهم عدة من علماء الاتراك ، وألف
من الفئتين مجلسا صادق على انتخابه وسلموه السيف . وكانت هذه هى
العادة الجارية فى تقليد الخلفاء العثمانيين السيف من أيدي العلماء وكانوا
يفعلون ذلك فى جامع أيوب بضواحي الآستانة

٣ - الوصاية : وهى وصاية الخليفة لمن يخلفه بعد موته . وقد أوصى المتوكل
آخر الخلفاء العباسيين بمصر يوم فتحها الاتراك للسلطان سليم بالخلافة

٤ - حماية الحرمين : فقد كان السلاطين العثمانيون حماة الحرمين - الا
سبع سنوات تولاهما فيها أئمة صنعاء فى القرن العاشر ، وسبع سنوات
أخرى تولاهما فيها الوهابيون

٥ - الاحتفاظ بالامانات : وهى المخلفات النبوية المحفوظة فى الآستانة ،
وهم يقولون أن الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر فى بغداد ، فحملها
الخلفاء العباسيون معهم الى القاهرة ، وما زالت فيها حتى نقلها السلطان سليم
الى القسطنطينية ، وهى محفوظة الى الآن فى صندوق من الفضة فى غرفة
بالسراى القديمة « طوبقبيو » سيأتى ذكرها (*)

(*) المراجع الاسلامية القديمة عن نظام الخلافة معروفة، أهمها الاحكام السلطانية للماوردى.
والفصل لابن حزم ، والملل والنحل للشهرستانى ، ومقدمة ابن خلدون . ونكتفى هنا بذكر
بعض الابحاث والدراسات الحديثة فى هذا الموضوع :

عبد العزيز شاويش : الخلافة الاسلامية (لم نجد فى الطبعة التى بين أيدينا سنة الطبع أو
مكانه)

على عبد الرازق : الاسلام وأصول الحكم ، القاهرة ١٩٢٥

محمد رشيد رضا : الخلافة ، القاهرة ١٩٢٣

T.W. Arnold, The Califate (London, 1924)

C.A. Nallino, Appunti sulla Califfato Ottomano' (Roma 1917)

L. Massignon, Introduction à l'étude des revendications musulmanes (ds Revue
du Monde Musulman) XXXIX, 1 sq.

C. Snouk Hurgronje, Islam and Turkish nationalism (in Foreign Affairs), Vol. III.
New-York, 1924 No. 1 p. 61 sqq.

Henri Laoust, Le Califat dans la doctrine de Rashid Rida. Beyrout 1938.

R. Hartmann, Wesen und Ende des Osmanischen Chalifats. Leipzig, 1924.

H. Ritter, Die Abschaffung des Kalifats (in Archiv für Politik und Geschichte) II,
343 ff.

مبايعة الخلفاء

نوع المبايعة

لم تجر ولاية الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين على نظام واحد ، فقد كان المفروض أن تكون انتخابية ، ولهذا لم يوص رسول الله (صلعم) بمن يخلفه ، بل ترك الامر في ذلك للمسلمين ، فاختاروا ابا بكر . ولم يشأ ابو بكر أن يدع الامر للناس ليختاروا من يشاءون ، فأوصى لعمر بن الخطاب ، وعندما حضرت عمر الوفاة لم يدعها شورى خالصة ، ولا انتخابية خالصة ، بل اوصى لستة نفر من كبار الصحابة ليجتمعوا ويختاروا الخليفة من بينهم ، وسمى ابنه عبد الله في جملتهم ولكنه نهى عن انتخابه ، فاختاروا عثمان بن عفان ، فلما قتل دون أن يوصى اختار الناس عليا بلا شورى ، فشق ذلك على كثيرين من كبار الصحابة لانهم كانوا وقت مقتل عثمان متفرقين في الامصار لم يشهدوا بيعة على ، فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس . ثم كان ما كان من امر الفتنة المشهورة

فلما قتل على أرادت شيعة حصر الخلافة في نسله ، باعتبار انهم بضعة من النبي ، فسألوه وهو على فراش الموت : « انبايع الحسن ؟ » فقال : « لا آمركم ولا انهاكم ، انتم أبصر » ، أما هم فبايعوا ابنه الحسن ، وهذا تنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان ، فصارت في بنى أمية

فطريقة الخلفاء الراشدين في انتخاب الخلفاء من أفضل ما بلغ اليه جهد المتمدنين حتى الآن ، وهي جامعة بين الجمهورية والملكية والشورى ، أما الجمهورية فلأن الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين ، وهي شورى لان الانتخاب يكون بالشورى ، وهي مطلقة لان الخليفة اذا قبض على ازمة الملك كان مطلق التصرف . فاذا اضفت الى ذلك شروطها الاربعة التي ذكرناها كانت أفضل انواع الحكومات على الاطلاق ، لان الحاكم المطلق اذا كان عادلا مع علم وكفاية وسلامة الحواس لم يكن أقدر منه على النهوض بأعباء المملكة وتوسيع نطاقها والتوفيق بين رعاياه ، هذا الى جانب ما في طريقتهم هذه من أدلة التقوى والزهد في الدنيا ، كما يتضح ذلك من مراجعة سير الخلفاء الراشدين

فلما افضى الامر الى بنى أمية واختلطوا بالروم في الشام ، واطلعوا على

طرق الحكومات عندهم ، وفي جملتها توالى الملك فى الاعقاب ، رأى معاوية ان يجعله كذلك فى نسله ، ولكنه تهب لعلمه بما فيه من مخالفة سنة الراشدين ، فاستشار بعض خاصته ، فشجعه المغيرة بن شعبة

وقد زاده اقداما ما خافه من افتراق الكلمة اذا ترك الامر بعده فوضى فيتطلبه بنو هاشم ، ولا يرضى بنو أمية تسليمه الى سواهم ، فيؤول ذلك الى الفتنة بعد ذهاب دهشة النبوة ، وتغلب طبيعة الملك ورجوع الناس الى العصبية . فتجنبنا للفتنة بايع ابنه يزيد ، وخوفا من الافتتان عليه بعد موت معاوية طلب له البيعة فى حياته ، وتربص ليرى ما يبدو من الناس فلم ير شرا . وجرى على ذلك خلفاؤه بعده - الا عمر بن عبدالعزیز - فانه أراد الرجوع الى طريقة الخلفاء الراشدين ، ولكنه لم يوفق الى ذلك لتغلب العامة عليه ، فلم تطل مدته ، فعادوا الى طريقة معاوية (*)

وأراد مثل ذلك أيضا المأمون فى الدولة العباسية ، فعهد الى على بن موسى ابن جعفر الصادق من نسل الامام على وسماه « الرضى » ، فعظم ذلك على بنى العباس وتقصوا بيعة المأمون وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي . ولو لم يبادر المأمون الى ملافاة الامر لخرجت الخلافة من يده ، فصاد الى الخلافة بالارث ، وجرى عليها العباسيون والفاطميون وغيرهم من خلفاء المسلمين

البيعة

البيعة هى العهد على الطاعة ، فاذا بايع الرجل أميرا كأنه عاهده وسلم اليه النظر فى امر نفسه لا ينازعه فى شىء من ذلك ، وأنه يطيعه فيما كلفه به من الامر على المنشط والمكره . وكان العرب اذا بايعوا أميرا جعلوا أيديهم فى يده ، تأكيدا للعهد بما يشبه فعل البائع والمشتري ، فسمى « بيعة » مصدر « باع » . وصارت البيعة مصافحة الايدى ، وهو مدلولها بعرف اللغة أيضا . وأقدم بيعة فى الاسلام بيعة العقبة ، ومنها ايمان البيعة التى كان الخلفاء يستحلفونها على العهد ويستوعبون الايمان كلها (***)

(*) انظر كلام ابن خلدون فى ذلك وتأنيده لنظام الوراثة فى الخلافة فى المقدمة (طبعة دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٥٦ ج ٢ ص ٣٧٦ وما يليها)
 (***) المؤلف يتابع هنا ابن خلدون فى المقدمة حرفيا تقريبا، ولكنه افترق عنه افتراقا ظاهرا ابتداء من « فصارت البيعة مصافحة الايدى . . . » ، وعبارة ابن خلدون أوضح وأكثر فائدة ، وما هى بنصها : « وصارت البيعة مصافحة بالايدي ، هذا مدلولها فى عرف اللغة ومعهود الشرع ، وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وعند الشجرة ، وحيثما ورد هذا اللفظ ، ومنه بيعة الخلفاء ، ومنه ايمان البيعة ، كان الخلفاء يستحلفون على العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك ، فسمى هذا الاستيعاب ايمان البيعة ، وكان الاكراه فيها أكثر وأغلب ، ولهذا ، لما أفتى مالك ، رضى الله عنه بسقوط يعين الاكراه أنكرها الولاة عليه ، وراوها قاذحة فى ايمان البيعة ، ووقع ما وقع من محنة الامام رضى الله عنه » - نفس الطبعة ، ج ٢ ص ٣٧٤ - ٣٧٥

وكانت العادة اذا هموا بمبايعة خليفة بايعه اولاً كبار الدولة ، ثم من يليهم من أصحاب المناصب . وفي الدولة العباسية كان اول من يبايع الخليفة الجند والقواد وقضاة بغداد . وكان كاتب الجيش هو الذى يتولى استحلافهم على الغالب ، ويدعوهم بأسمائهم ، ويقف الوزير او من يقوم مقامه فيعمم الخليفة بيده ويلبسه البردة . ومتى تمت المبايعة يعرضون على الخليفة القابا فيختار لقباً منها . وهذه الالقاب حادثة في الاسلام ، وكانت في اوائل الدولة العباسية بسيطة ، كالامين والمأمون والرشيد . فلما كانت أيام المعتصم اضاف اسم الجلالة الى لقبه فسموه « المعتصم بالله » ، وصارت تلك عادة في من خلفه من بنى العباس

فاذا بويع في داره جاءوه بموكب الخلافة ، وهى افراس مسرجة ولكل دابة سائس باللبسة الفاخرة ، فيركب الخليفة وحوله الفرسان من كبار الدولة ، ويمشى بين يديه رجل بالحربة ، ويصف الجنود في الطريق صفين يسير الموكب بينهما الى دار الخليفة ، وهى دار العامة في بغداد . ثم ترد عليه وفود المهنيين من الامصار على مقتضى الاحوال

يمين البيعة

يختلف نص يمين البيعة باختلاف الدول والاحوال ، وان كان مرجعها واحداً . فلما بايع الانصار النبى بالعقبة قالوا : « يا رسول الله ، انا براء من ذمامك حتى تصير الى دارنا . فاذا وصلت فانك في ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبنائنا ونساءنا » (*) وهناك نص آخر تمت به البيعة بالعقبة يعرف ببيعة النساء ، وهى : « بايعنا على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل اولادنا ولا نأتى بهتان نفترية من بين أيدينا وارجلنا ولا نعصيه في معروف فان وفيتم فلكم الجنة ، وان خشيتم من ذلك شيئاً ، فامرکم الى الله عز وجل ، ان شاء عذب وان شاء غفر » (**)

ويمين بيعة بنى العباس منذ طلبها لهم ابو مسلم الخراسانى هى : « ابايعكم

(*) هذه هى بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة مباشرة ، ونصها في المراجع الاولى يختلف عن ذلك بعض الشيء ، فان الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لم يبايعوه بصيغة معينة ، وانما قال رسول الله : « ابايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم » فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أئزونا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر « - سيرة ابن هشام ، ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥ . وانظر أيضاً : طبقات ابن سعد (طبعة سخاو ١/١ : ١٤٨) وتاريخ الطبرى ، ج ٢ ص ٢٣٥

(**) هذه هى بيعة العقبة الاولى قبل الهجرة بعامين ، وقد اكملت نصها من سيرة ابن اسحاق برواية ابن هشام ، طبعة مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة ١٩٣٦ ، ج ٢ ص ٧٥ . وقد عرفت ببيعة النساء لان الحرب لم تفترض فيها

على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من
اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . عليكم بذلك عهد الله وميثاقه
والطلاق والعتاق والمشى الى بيت الله الحرام على أن لا تسألوا رزقا ولا طعاما
حتى يتدئكم به ولا تكلم «

وقد اختلفوا في نص يمين البيعة وفي كيفية الاحتفال بالمبايعة باختلاف
الدول ، ولكن الجوهر واحد ، وهو تبادل العهود بين الخليفة ورعيته بالسير
على ما يقتضيه الكتاب والسنة ونحو ذلك . وكان شأنهم في المبايعة الاختصار
كما تكون الدول في أبسط احوالها . وكانت البيعة تتلى شفاهها ثم صارت
تكتب وتحفظ . وكانت كلمات قليلة فصارت سطورا عديدة بما أدخلوه
فيها من الحشو والاطناب ، لما اقتضاه استغراق القوم في الترف من الميل
الى التفخيم والتبجيل والتطويل ، شأن الدول في أيام بدورها

وقد تغيرت صورتها ، فبعد أن كان الرجل يخاطب الخليفة بالبيعة ،
أصبح أحد الوزراء ممن يأخذون البيعة للخلفاء يخاطبون المبايع ويشترطون
عليه الشروط ، كما فعل أبو مسلم . وهذا نص بيعة الخلفاء العباسيين في
أواسط دولتهم ، وفي نشرها ما يفنى عن الاسهاب :

« تباع عبد الله الامام أمير المؤمنين بيعة طوع وايتار ، ورضى واختيار ،
واعتماد واضمار ، واعلان واسرار ، واخلاص من طويتك ، وصدق من نيتك ،
وانشراح من صدرك ، وصحة من عزيمتك ، طائعا غير مكره ، ومنقادا غير
مجبور ، مقرا بفضلها ، مدعنا بحقها ، ومعترفا ببركتها ، ومعتادا بحسن
عائدها ، وعالما بما فيها ، وفي توكيدها من صلاح الكافة ، واجتماع كلمة
العامة والخاصة ، ولم الشعث وأمن العواقب ، وسكون الدهماء ، وعز
الاولياء ، وقمع الاعداء - على أن فلانا عبد الله وخليفته ، المفترض عليك
طاعته ، الواجب على الامة امامته وولايته ، اللازم لهم القيام بحقه ، والوفاء
بعهده ، لا تشك فيه ، ولا ترتاب به ، ولا تداهن بأمره ولا تميل . وانك ولى
اوليائه ، وعدو أعدائه ، من خاص وعام ، وقريب وبعيد ، وحاضر وغائب ،
متمسك في بيعته بوفاء العهود وذمة العقد ، سريرتك مثل علانيتك ،
وضميرك فيه وفق ظاهره ، على أن اعطاءك هذه البيعة من نفسك ، وتوكيدك
اياها في عنقك لفلان أمير المؤمنين عن سلامة من قلبك ، واستقامة من عزمك ،
واستمرار من هواك ورايك ، في أن لا تتأول عليه فيها ، ولا تسعى في نقض
شئ منها ، ولا تقعد عن نصره في الرخاء والشدة ، ولا تدع النصيح له في كل
حال راهنة او حادثة ، حتى تلقى الله موفيا بها ، مؤديا للامانة فيها ، اذ كان
الدين يبايعون ولاة الامر خلفاء الله في الارض انما يبايعون الله ، ويد الله فوق

أيديهم . فمن نكث فانما ينكث على نفسه . عليك بهذه البيعة التي طوقت بها عنقك ، وبسطت لها يدك ، وأعطيت فيها صفقتك ، وما شرط عليك فيها من وفاء وموالاتة ونصح ومشايعة وطاعة وموافقة واجتهاد ومبالغة ، عهد الله ان عهده كان مستثولا ، وما اخذ الله على انبيائه ورسله عليهم السلام ، وعلى من اخذ من عباده من مؤكدات موثيقه ومحكمات عهوده ، وعلى ان تتمسك بها فلا تبدل ، وتستقيم فلا تميل . وان نكثت هذه البيعة ، ومتى بدلت شرطا من شروطها ، أو عفيت رسما من رسومها ، أو غيرت حكما من احكامها ، معلنا أو مسرا أو محتالا أو متأولا ، أو زغت عن السبيل التي يسلكها من لا يحقر الامامة ، ويستحل الغدر والخيانة ، ولا يستجيز حل العقود وختل العهود ، فكل ماتملكه من عين أو ورق أو آنية أو عقار أو سائمة أو زرع ، أو غير ذلك من صنوف الاملاك والاموال المدخرة ، صدقة على المساكين يحرم عليك ان ترجع شيئا من ذلك الى مالك بحيلة من الحيل ، على وجه من الوجوه وسبب من الاسباب ، أو مخرج من مخارج الايمان ، وكل ماتستفيده في بقية عمرك من مال يقل خطره أو يجلب فصدقة في سبيل الله ، الى ان تتوفاك منيتك ويأتيك اجلك . وكل مملوك لك اليوم من ذكر أو انثى وتملكه الى آخر ايامك احرار سائبون لوجه الله . ونساؤك يوم يلزمك الحنث ومن تتزوج بعده في مدة بقائك طوالق ثلاثا طلاق الحرج والسنة لا مبتوتة ولا رجعة . وعليك المشي الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة حافيا راجلا لا يرضى الله منك الا بالوفاء بها ، ولا يقبل الله لك صرفا ولا عدلا . وخذلك يوم تحتاج اليه وبرأك من حوله وقوته وألجأك الى حولك وقوتك . والله عز وجل بذلك شهيد وكفى بالله شهيدا » (١) . وبلغت المبايعة التي كتبت للحاكم بأمر الله العباسي في أواسط القرن الثامن للهجرة بمصر ما يملأ أربع صفحات من هذا الكتاب . ونشر السيوطي في حسن المحاضرة مبايعة أحد الخلفاء العباسيين بمصر في سبع صفحات كبار (٢)

بيعة ولي العهد

ذكرنا في كلامنا على الخلافة بعد أن صارت وراثية ان الخلفاء كانوا يبايعون لاولادهم بولاية العهد أو لغيرهم من ذوى قرابتهم ، وكانوا يحتفلون بذلك مثل احتفالهم بمبايعة الخلفاء . وكثيرا ما كانوا يعرضون عزمهم في ذلك على اهل الرأي ، كما فعل المنصور لما اراد البيعة لابنه المهدي ، وكان جعفر يعترض عليه

(١) Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, 1853

نقلا عن تذكرة ابن حمدون

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ص ٧٠ ج ٢

في ذلك فأمر المنصور باحضار الناس ، وقامت الخطباء فتكلموا وقامت الشعراء فأكثر في وصف المهدي فرجحت بذلك بيعة المهدي (*)

وكانوا اذا راوا غير واحد من اولادهم او اخوتهم اهلا للخلافة بايعوا لاحدهم وشرطوا ان يخلفه فلان او فلان ، كما فعل يزيد بن عبد الملك لما اراد ان يبايع بولاية العهد ، وكان ابنه لا يزال صغيرا فبايع اخاه هشاما على ان يخلفه ابنه الوليد بن يزيد ، وكثيرا ما كانوا يغيرون في شروط المبايعه بعد حين اذا راوا لزوما لذلك . وقد يبايع الخليفة بولاية العهد لاحد اولاده ويذكر من يخلفه ويخيره في استخلافه ، كما فعل الرشيد لما كتب بولاية العهد لابنه المأمون ومن بعده للقاسم وجعل أمره للمأمون ان شاء أقره وان شاء خلعه (**)

والعهد كتاب يكتبه الخليفة او من يكتب له ، ويختمه بخاتمه وخواتم اهل بيته ، ويدفعه الى ولي العهد او من يتولى أمره فيحفظه الى حين الحاجة . وقد يحفظه في مكان أمين في خزانة او مسجد او في الكعبة ، كما فعل الرشيد بالكتابين اللذين كتبهما لاولاده بولاية العهد ، احدهما للامين والآخر للمأمون وبعد هذا للقاسم

ويدعى لولى العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة ، فيقولون بعد الدعاء للخليفة : « اللهم وبلغه الامل في ولده فلان ولي عهده في المسلمين ، اللهم وال من والاه من العباد وعاد من عاداه في الاقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحق والسداد ، واخذل من خذله بالغي والعناد ، اللهم ثبت دولته وشعاره ، وانبذ من نابذ الحق وانصاره »

(*) جعفر المذكور هنا هو جعفر البرمكي، وقصة خلع المنصور لعيسى بن موسى عن ولاية العهد وجعلها لابنه المهدي مروية هنا باختصار شديد يضيع الكثير من مغزاها التاريخي ، والحقيقة ان المنصور اراد عيسى على خلع نفسه فرفض ، فلجأ الى امتهانه ومضايقته ومازال يلح في ذلك حتى ارغمه على التنازل ، وللمؤرخين في ذلك اقوال كثيرة منها : « . . . وقيل : بل ارسل اليه خالد بن برمك ، فأخذ معه جماعة من اهل المنصور ، نحو ثلاثين رجلا ، ومضى الى عيسى فخاطبه في ان يخلع نفسه ، فأبى ، فلما ابى قال خالد للجماعة : نشهد عليه انه قد خلع نفسه ، ونحقت بذلك دمه ، وتسكن هذه الفتنة ، فشهدوا عليه بذلك فقامت البيعة به ، وانكر عيسى ، فلم يلتفت اليه . وتم خلعه ، وبويع للمهدي »

تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٧٢ - ٤٧٤

ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، القاهرة ١٩٢٨ ص ١٤٩ وما يليها

(**) القاسم المذكور هنا هو القاسم المؤمن أحد اولاد الرشيد (انظر ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ص ١٢١)
ويبدو من كلام ابن الاثير ان القاسم كان ثالث ابناء الرشيد من حيث السن ولكنى لم اجد في النصوص شيئا يشير الى توليته العهد بعد المأمون

علامات الخلافة

علامات الخلافة ثلاث : البردة ، والخاتم ، والقضيب

البردة

أما البردة فهي بردة النبي ، وما زال النبي يلبسها حتى أعطاها الى كعب بن زهير بن ابي سلمى الشاعر المشهور . وكان كعب قد هجا النبي وفر من وجه المسلمين ، فلما فتح المسلمون مكة كتب اليه أخوه بجير بن زهير : « ان رسول الله (ص) قتل رجلا بمكة ممن كان يهجوهُ ويؤذيه ، وان من بقى من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه ، فان كانت في نفسك حاجة فطر الى رسول الله (ص) فانه لا يقتل احدا جاءه تائبا » . فلم ير كعب مفرجا الا رجوعه وتوبته ، فجاء المدينة وسلم نفسه الى النبي ومدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها :
« بانت سعاد فقلبي اليوم متبول »

فأكرمه النبي ، وأراد بعض الصحابة قتله فمنعهم ، وبالغ في اكرامه فخلع عليه بردته . فظلت البردة عند اهل كعب حتى اشتراها منهم معاوية بن ابي سفيان في اثناء خلافته بأربعين الف درهم (١٦٠٠ جنية) وتوارثها الخلفاء الامويون والعباسيون . وذكر ابو الفداء انها انتقلت من العباسيين الى التتر ، لكنها الآن في جملة المخلفات النبوية في السراي القديمة في الآستانة . ولعل أبا الفداء وهم بما علمه من غزو التتر بغداد وفرار العباسيين الى مصر ، فظن البردة كانت في جملة ما انتهبوه من قصر الخليفة ، والظاهر ان العباسيين حملوا البردة معهم الى مصر فأخذها السلطان سليم مع الخلافة (*)

الخاتم

وأما الخاتم فقد اتخذه الخلفاء تشبها بالنبي ، لانه لما اراد ان يكتب الى قيصر وكسرى يدعوهم الى الاسلام قيل له ان العجم لا يقبلون كتابا الا ان يكون مختوما ، فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه « محمد رسول الله » . وانتقل

(*) من المشكوك فيه ان تكون البردة التي كان سلاطين آل عثمان يحتفظون بها هي بردة الرسول صلى الله عليه وسلم
انظر : مادة « بردة » في :

هذا الخاتم الى ابي بكر ، ثم الى عمر ، ثم الى عثمان ، ووقع من يد عثمان في بئر اريس ولم يعثروا عليه بعد ذلك ، فاصطنع عثمان خاتما مثله . وكان كل من ولي الخلافة بعده يصطنع له خاتما يختمون به الكتب في أسفل الكتابة وفي اعلاها بالطين أو المداد ، ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمع بعد طيها . وأول من فعل ذلك معاوية تجنباً للتزوير ، لأنه كتب مرة الى زياد ابن ابيه عامله بالكوفة أن يدفع لعمر بن الزبير مائة ألف درهم وسلم الكتاب الى عمر ليحمله الى زياد ، فجعل عمر المائة مائتين فدفعهما زياد له ، ولما رفع حسابه الى معاوية بان التزوير ، فأمر من ذلك الحين بحزم الكتب وختمها على طرفيها بعد طيها أو لفها

وذكر البلاذري ان زيادا أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم في أثناء ولاية العراق امثالاً لما كانت الفرس تفعله . وانه كان للملوك الفرس قبل الاسلام عدة خواتم يستخدم كل منها لغرض : خاتم للسر ، وخاتم للرسول ، وخاتم للسجلات والاقطاعات ، وخاتم للخراج ، وكان الذي يتولاها يسمى صاحب الزمام

وما زال ديوان الخاتم معدوداً من الدواوين الكبرى من أيام معاوية الى أواسط دولة بني العباس فأسقط ، لان مباشرة الاعمال تحولت الى الامراء والوزراء والسلاطين وغيرهم . ولما أراد الرشيد أن يستوزر جعفر بن يحيى بدل الفضل أخيه قال لابيها يحيى : « يا أبت انى أردت ان احول الخاتم من يمينى الى شمالي » فكنى بالخاتم عن الوزارة

وكان لخاتم الخلفاء عندهم مقام عظيم ، اذا تناوله الوزير أو غيره ليختم به كتاباً وقف على رجليه تعظيماً للخلافة . وكانوا اذا ختموا كتاباً دافوا (*) الطين أو المداد وطبعوه على صفح القرطاس أو على جسم لين كالشمع حتى ترسم صورة الختم عليه (**). وقد يكون ذلك في آخر الكتاب أو في أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح أو اسم الخليفة أو شيء يعنونه ، ويكون ذلك اشارة الى صحة ذلك الكتاب ويكون الكتاب بدونه ملفى ، ويسمون الختم ايضاً علامة

(*) داف الشيء يدوفه دواً بـه بـاء أو غيره ، فهو مدوف ومدووف أى مخلوط ممزوج (***) يتابع المؤلف هنا نص ابن خلدون في المقدمة (طبعة بيروت ١٩٥٦) ح ٢ ص ٤٧٦ ، وقد جاء فيه : « وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش ايضاً قدغس في مداف من الطين معد لذلك ، صبغه احمر ، فيرسم ذلك النقش عليه ، وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين الختم ، وكان يجلب من سيرا ، فيظهر انه مخصوص بها »

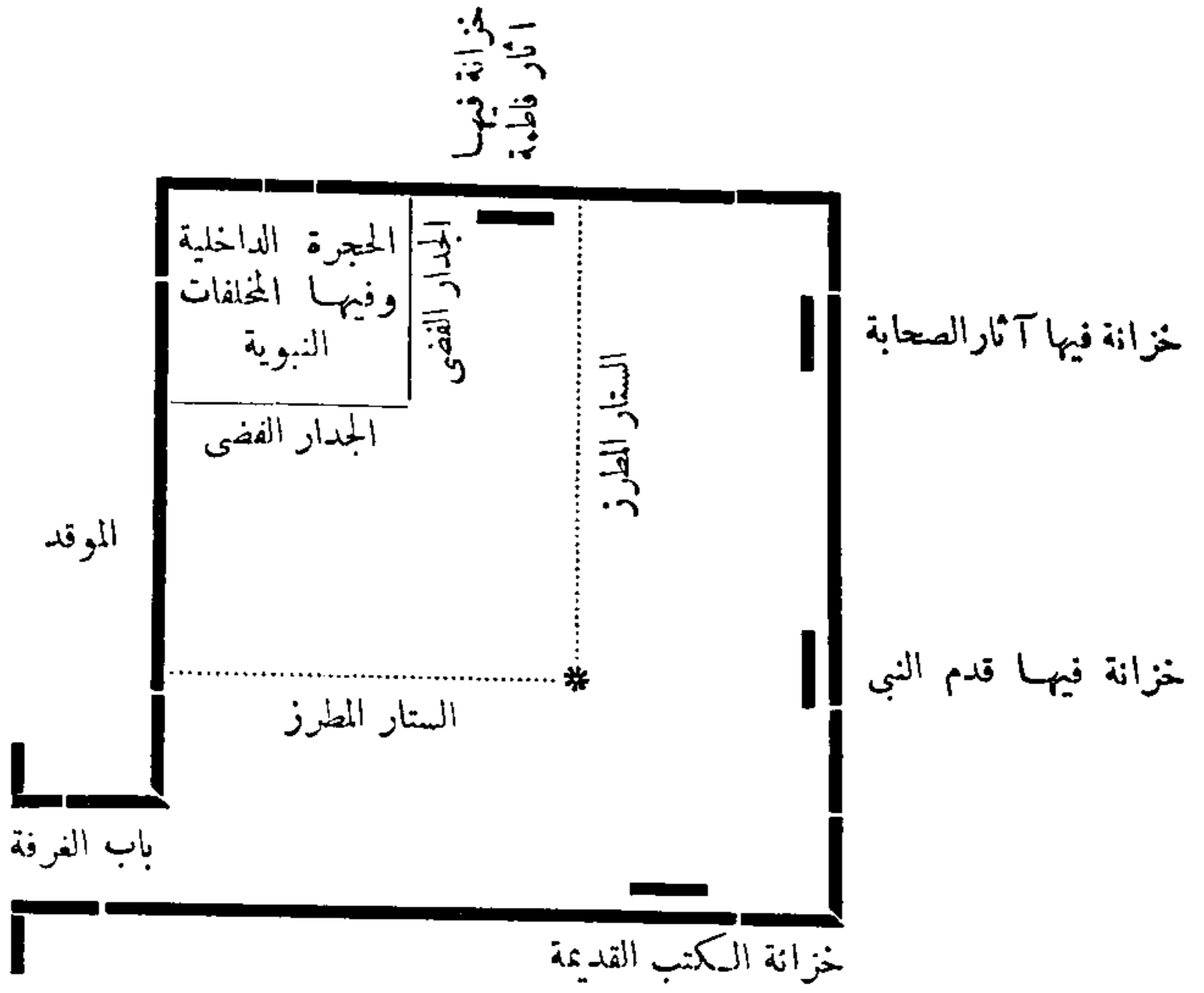
ولما نشأت السلطنات جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة ،
وسموها الطغراء . وهى نقشة تكتب بقلم غليظ وفيها القاب الملك ، وكانت
تتوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى فيها
عن علامة السلطان بيده . وكانت الدولة السلجوقية تسمى ديوان الانشاء
ديوان الطغراء

والطغراء سمى بها الحسين ابو اسماعيل الطغرائى صاحب لامية العجم
المشهوره ، كان وزيرا للسلطان مسعود السلجوقى وكان خطه جميلا ويكتب
تلك الطغراء بخط جميل فلقبوه بها ، ويقال انه اول من كتبها (قتل ٥١ هـ)

ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم اسماءهم ، ولكنهم كانوا ينقشون
عليها عبارات فيها مواظ وحكم . فقد كان نقش خاتم ابي بكر « نعم القادر
الله » وخاتم عمر « كفى بالموت واعظا يا عمر » وخاتم عثمان « لتصبرن
او لتندمن » وخاتم على « الملك لله » ، وجرى على نحو ذلك خلفاء بنى امية
وبنى العباس ، ولكل منهم فقرة خاصة نقشها على خاتمه . والغالب ان يكون
بينها وبين اسمه مناسبة معنوية . فقد كان نقش خاتم المأمون « عبد الله
يؤمن بالله مخلصا » ، وختم الواثق « الله ثقة الواثق » ، وختم المتوكل
« على الله توكلت » ، والمعتمد « اعتمادي على الله وهو حسبي » ، وقس على
ذلك (*)

وكانوا يعبرون عن علامات الخلافة أيام الخلافة العثمانية بالمخلفات النبوية ،
وكانت محفوظة في الآستانة في صندوق من الفضة في غرفة بقصر طوب قيو .
وهى : البردة ، وسن من اسنان النبي ، وشعرات من شعره ، ونعاله ، وبقية
من العلم النبوى ، واناغان من حديد يقال ان ابراهيم الخليل كان يشرب بهما
من بشر زمزم ، وجبة الامام ابي حنيفة ، وذراع سيدنا يحيى . ويحتفلون
بزيارة هذه المخلفات في ١٥ رمضان من كل سنة ، فيخرج السلطان بموكبه
الى السراى المذكورة ، فيؤدى فروض الزيارة والتبرك بها ومعه كبار رجال
الدولة ، وقد وصفنا هذه الغرفة في السنة الثامنة عشرة من الهلال
ورسمها في الصفحة المقابلة

(*) انظر عن الخاتم المادة المستفيضة التى كتبها Fr. Buhl, J. Allan فى دائرة المعارف
الاسلامية



أما القضيبي فهو ثالث علامات الخلافة ، وإذا تولى الخليفة جاؤوه بالبردة والخاتم والقضيبي . وظل الأمر على ذلك في بني أمية وبني العباس

شارات الخلافة

وشارات الخلافة أيضا ثلاث : الخطبة ، والسكة ، والطرز

الخطبة

هي الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة ، واصلها ان الخلفاء كانوا يتولون امامة الصلاة بأنفسهم فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبي والرضي عن الصحابة . فلما فتحوا البلاد وبعثوا اليها العمال ، صار الولاة يتولون امامة الصلاة في ولايتهم ، فكانوا اذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء . واول من فعل ذلك منهم عبد الله بن عباس لما تولى البصرة على عهد الامام علي ، فانه وقف على منبر البصرة وقال : « اللهم انصر عليا على الحق » (١) (*) واتصل العمل على ذلك فيما بعد ، وصار الدعاء للخليفة في بلاد علامة سلطانه عليها . ولما ضعف شأن الخلفاء في بغداد كان المتغلبون من السلاطين او الامراء يشاركون الخلفاء بذلك فيذكرون اسماءهم بعدهم . ثم صار السلاطين يستقلون في الدعاء لانفسهم ، ولا يزال الدعاء على المنابر لاولى الامر الى اليوم

السكة والنقود

ومن شارات الخلافة - او هي شارات الملك على الاطلاق - الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه اسم الخليفة او السلطان ويقال لها السكة . وهي لازمة للدولة واليك خلاصة تاريخها :

نقود العرب قبل الاسلام

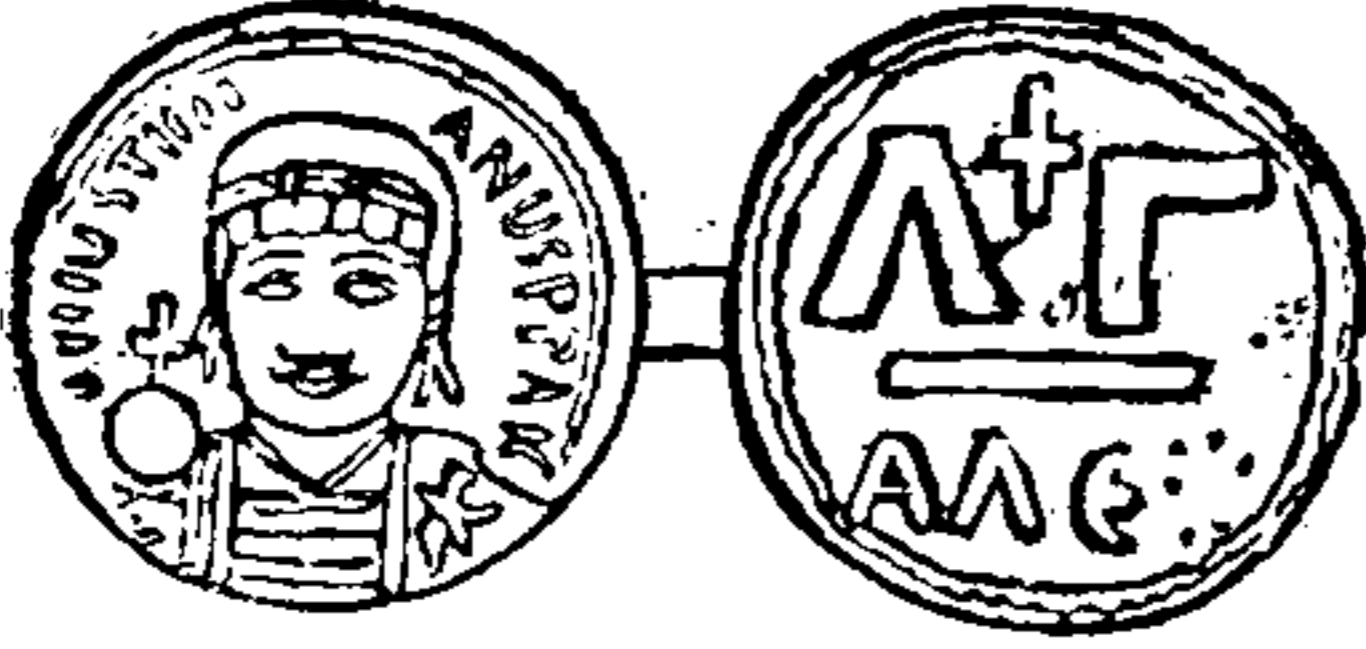
كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر ، وهي الدراهم والدنانير . وكانت الدنانير على الاجمال نقودا ذهبية ، والدراهم نقودا فضية ، بما يقابل الجنيه والريال عندنا . وكانوا يعبرون عن الذهب بالعين ، وعن الفضة بالورق . وكان عندهم ايضا نقود نحاسية ، منها الحبة والدانق . ومرجع قيمة هذه النقود الى الوزن ، لان المراد بالدينار قطعة من الذهب وزنها مثقال عليه نقش الملك او السلطان الذي ضربه . والمراد بالدرهم وزن درهم من الفضة ، ويسمونه الوافي . ويقدرون الدينار اليوم بثمانية واربعين قرشا مصريا ، وكان الدينار عندهم عشرة دراهم ، وربما اختلفت قيمته الى

(١) ابن خلدون ٢٢٥ ج ١
(*) انظر طبعة بيروت ١٩٥٦ - ٣ ص ٤٨٢

١٣ أو ١٥ درهما أو أكثر ، على حسب الاحوال . فكأن الدرهم يقابل أربعة قروش ونصف في المتوسط

الدرهم

وقد ذكر صاحب الاحكام السلطانية ان الدرهم الفارسية كانت ثلاثة أوزان: منها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطا وهى الدرهم البغلية ، ودرهم وزنه اثنا عشر قيراطا ، ودرهم وزنه عشرة قيراط . وذكر غيره دراهم وزن الواحد منها ستة مثاقيل ويسمونها الدرهم السمرية الثقال ، ودرهم وزنها خمسة مثاقيل وهى السمرية الخفاف ، وكلها فارسية



الدينار الرومى

وكانت الدينار عند العرب قبيل الاسلام صنفين : دنانير هرقلية أو رومية، ودنانير كسروية أو فارسية . وكذلك كانت الدرهم ، ولكن الغالب أن تكون معاملتهم بالدينار الرومية والدرهم الفارسية . ولذلك كانت الهرقلية اعز عندهم وأرغب ، حتى ضربوا المثل بجمالها وزهوها

الدينار

والدينار لفظ لاتينى ، والاصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوى عشرة آسات ، والآس درهم من دراهم الروم . والدينار صرب أولا لهده الغاية ، وهو مشتق عندهم من (Deni) أى عشرة ، وكان وزنه سبع الاوقية الرومانية أو جزء من مائة من الرطل (الليبرة) ، أى انهم كانوا يقسمون الليبرة من الفضة الى مائة دينار . ثم ضربوه من الذهب ، فصار عندهم ديناران : الواحد من الفضة ، والآخر من الذهب . وعنهم أخذ الفرس فضربوا نقودا مثلها وسموها باسمها (*)



الدينار الفارسى

(*) الديناريوس Denarius يطلق في الاصل على الدانق من الفضة عند اللاتين وهو عندهم جزء من مائة من الرطل Libra . والعملية الاساسية عندهم كانت الاوريوس Aureus أى الذهبى . ثم سكوا الدينار من الذهب ، فارتفع سعره وسمى ديناريوس أوريوس Denarius aureus واختفى الدينار الفضى ولم يبق غير الدينار الذهبى ، وأصبح هو الذى يسمى عرفا بالدينار وقد عرف العرب الدينار قبل الاسلام ، أخذوه عن السريان وهؤلاء عن البيزنطيين ، وكانت العملة الذهبية عندهم تسمى بالديناريوس فقط . وعندما أصبح عبد الملك بن مروان السكة سنة ٧٧ - ٦٩٦ ثبت وزن الدينار فجعله يعادل بموازينا الحالية ٤٢٥ جراما من الذهب وهذا يعادل واحدا على مائة من وزن الرطل ، وهذا ايضا هو وزن الصلدى Solidus البيزنطى

(*) الديناريوس Denarius يطلق في الاصل على الدانق من الفضة عند اللاتين وهو عندهم جزء من مائة من الرطل Libra . والعملية الاساسية عندهم كانت الاوريوس Aureus أى الذهبى . ثم سكوا الدينار من الذهب ، فارتفع سعره وسمى ديناريوس أوريوس Denarius aureus واختفى الدينار الفضى ولم يبق غير الدينار الذهبى ، وأصبح هو الذى يسمى عرفا بالدينار وقد عرف العرب الدينار قبل الاسلام ، أخذوه عن السريان وهؤلاء عن البيزنطيين ، وكانت العملة الذهبية عندهم تسمى بالديناريوس فقط . وعندما أصبح عبد الملك بن مروان السكة سنة ٧٧ - ٦٩٦ ثبت وزن الدينار فجعله يعادل بموازينا الحالية ٤٢٥ جراما من الذهب وهذا يعادل واحدا على مائة من وزن الرطل ، وهذا ايضا هو وزن الصلدى Solidus البيزنطى

النقود الاسلامية

وما زال العرب يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية ، حتى ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد واسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تمدنهم ، فكان في جملة عوامله السكة ، ف ضربوا الدراهم والدنانير اولا مشتركة بينهم وبين



نقود خالد بن الوليد

الروم والفرس ، منها قطعة ضربها خالد ابن الوليد في طبرية في السنة الخامسة عشرة للهجرة ، وهي على رسم الدنانير الرومية تماما بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك ، وعلى احد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية Xaved وهذه

الاحرف (Bou) ، ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني ناقل هذا الرسم انها مقتطعة من « ابو سليمان » كنية خالد بن الوليد (*)



نقود معاوية بن ابي سفيان

وهناك قطعة اخرى ضربت باسم معاوية ، ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس برسمه وشكله الا اسم معاوية عليه ، وقد نقلنا رسمه عن الدكتور مولر المشار اليه ايضا

وذكر الدميري في كتاب

« حياة الحيوان » ضربا من النقود يقال لها البغلية ، قال ان « رأس البغل (***) » ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية « نوش خور » اي كل هنيئا

وذكر المرحوم جودت (باشا) انه رأى نقودا ضربها الامراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين ، اقدمها ضرب سنة ٢٨ هـ في قسبة هرتك طبرستان ، وعلى دائرها بالخط الكوفي « بسم الله ربي » ، ورأى نقدا مضروبا سنة ٣٨ هـ على دائرته هذه العبارة ايضا ، ونقدا ضرب سنة ٦١ هـ في يزد على دائرته « عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين » بخط بهلوي . وقال المقرئ :

(*) انظر عن الدينار المادة التي كتبها زامباور في دائرة المعارف الاسلامية ، والمراجع المعطاة هناك وخاصة .

E. von Bergmann: Die Nominale der Münzreform des Chalifen Abdelmelik (Sitz. Ber. phil. hist. Cl. d. Kais. Akad. der W. Wien 1876) pp. 239-286.

(**) « رأس البغل » اسم لرجل يهودي يقال انه هو الذي ضرب الدراهم البغلية لعمر بن الخطاب ، ووزن الدرهم البغالي أربعة دوانق ، والدانق واحد من مائة من وزن الرطل وهو من الفضة

انظر : تقى الدين احمد بن علي المقرئ : كتاب اغاثة الامة بكشف الغمة ، طبعة الدكتورين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيبان ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٤٩ والتعليقات

« وأول من ضرب المعاملة في الاسلام عمر بن الخطاب في سنة ثمانى عشرة من الهجرة على نقش الكسروية وزاد فيها « الحمد لله محمد رسول الله » ، وفي بعضها « لا اله الا هو » وعلى جزء منها اسمه « عمر » . وعبد الله بن الزبير ضرب بمكة دراهم مستديرة ، وهو أول من ضرب هذه الدراهم ونقش بدائرها « عبد الله » وبأحد الوجهين « محمد رسول الله » وبالأخر « أمر الله بالوفاء والعدل » (*)

عبد الملك والنقود

على أن هذه المسكوكات لم تكن تعتبر رسمية في الدول الاسلامية ، بل كانت اكثر معاملاتهم بالنقود الرومية والفارسية . فاتفق في ايام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ - ٨٦ هـ) أن هذا الخليفة اراد تغيير الطراز من الرومية الى العربية كما سيجيء ، فشق ذلك على ملك الروم ، فبعث اليه يهدده بأن ينقش على دنائره شتم النبي فعظم هذا الامر على عبد الملك ، فجمع اليه كبار المسلمين واستشارهم ، فأشار عليه أحدهم بمحمد الباقر أحد الأئمة الاثنى عشر من الشيعة وكان يقيم في المدينة ، فلم يشأ عبد الملك ان يستنجد احد ائمة بنى هاشم - وهم مناظروه في الملك - لكنه لم ير بدا من استقدامه ، فكتب الى عامله في المدينة أن « اشخص الى محمد بن علي بن الحسين مكرما وامتعه بمائة ألف درهم لجهازه و . . . ٣٠ لنفقته ، وارح عليه في جهازه وجهاز من يخرج من أصحابه » . فلما قدم محمد الى دمشق استشاره عبد الملك فيما ينويه ملك الروم في الاساءة بالاسلام ، فقال محمد : « لا يعظم هذا عليك . ادع هذه الساعة صنعا فيضربون بين يديك سككا للدراهم والدنانير ، وتجعل النقش عليها صورة التوحيد وذكر رسول الله (ص) أحدهما في وجه الدرهم او الدينار والآخر في الوجه الثانى ، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذى يضرب فيه والسنة التى تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير ، وتعتمد الى وزن ثلاثين درهما عددا - من الاصناف الثلاثة التى العشرة منها وزن عشرة مثاقيل ، وعشرة منها وزن ستة مثاقيل ، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل ، فتكون أوزانها جميعا واحدا وعشرين مثقالا - فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل ، وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل الى زيادة ولا نقصان ، فتضرب الدراهم على وزن عشرة مثاقيل ، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل » (**)

ففعل ذلك عبد الملك ، وبعث نقوده الى جميع بلدان الاسلام ، وتقدم الى الناس فى التعامل بها ، وهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم

(*) انظر : المقرئى : شذور العقود فى ذكر النقود طبعة Tychsen فى Roslok سنة ١٧٩٧
(**) الدميرى : حياة الحيوان ، مادة بغل

والدنانير وغيرها ، وان تبطل تلك وترد الى مواضع العمل حتى تعاد الى السك الإسلامية

هذا ما قاله الدميرى ، ولكن ابن الاثير ينسب هذا الراى الى خالد بن يزيد بن معاوية ، وغيره ينسبه الى غيره . وتسمى دنانير عبد الملك الدنانير الدمشقية . وامر الحجاج عامله فى العراق ان يضرب الدنانير على ١٥ قيراطا من قراريط الدنانير ، ثم صار امراء العراق يضربون النقود لبني امية فى الاكثر (*)

نقش النقود

وتنقش نقود بني امية على احد الوجهين فى الوسط « لا اله الا الله وحده لا شريك له » وحول ذلك « بسم الله ضرب هذا الدرهم فى بلد كذا سنة كذا » وفى الوجه الآخر بالوسط « الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد » وحولها محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وكانت هذه الكتابة تنقش على الدينار والدرهم على السواء



نقود عبد الملك بن مروان

وأبطل المسلمون استخدام النقود الرومية والفارسية وغيرها من ذلك الحين . وأجود نقود بني امية الهبيرية التى ضربها لهم عمر بن هبيرة ، والخالدية نسبة الى خالد بن عبد الله البجلي ، واليوسفية التى

ضربها يوسف بن عمر ، وكلهم من عمال العراق لبني امية . فلما افضت الخلافة لبني العباس لم يكن المنصور يقبل فى الخراج من نقود بني امية سواها (**)



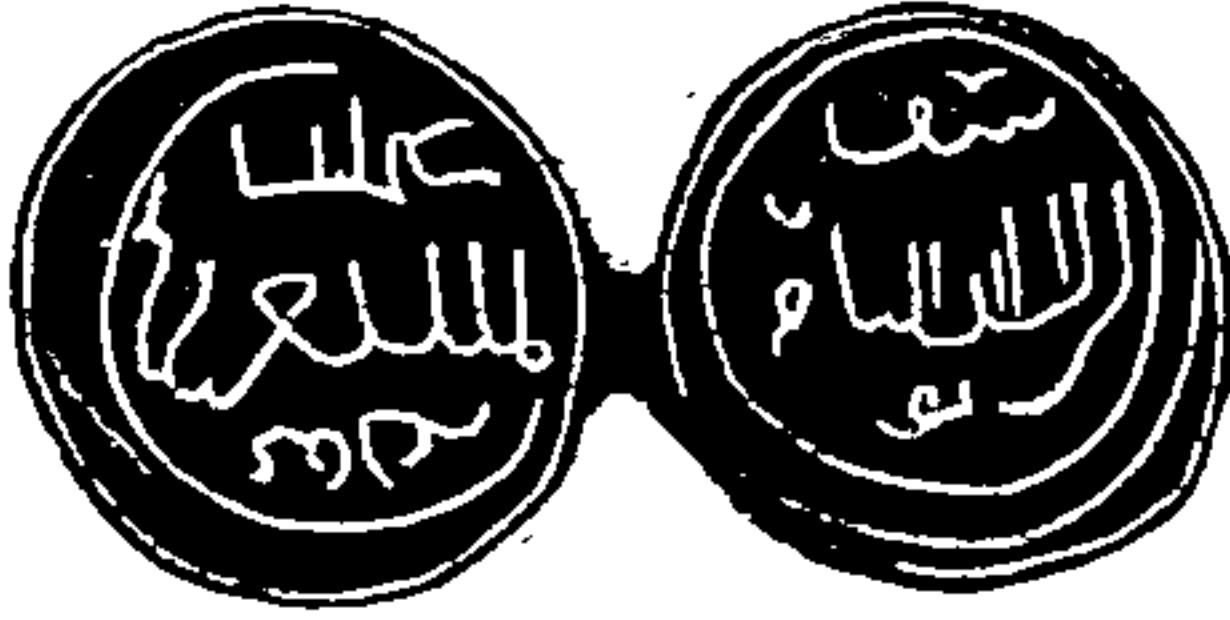
نقود اسلامية صقلية

وللنقود الاسلامية تاريخ طويل لا محل له هنا . وفى كتابنا « تاريخ مصر الحديث » رسوم اكثر النقود الاسلامية واسماء ضاربها ، ولكننا نقول بالاجمال ان المسكوكات الاسلامية ضربت فى كل عواصم الاسلام وفى أشهر مدنها فى العراق والشام

(*) البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٢٢ ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥
 (***) البلاذرى : فتوح البلدان ، نفس الصفحات الواردة فى التعليق السابق

والاندلس وخراسان وصقلية والهند وغيرها ، وهى تختلف رسما وسعة ونصا باختلاف الدول والعصور

وكانت الكتابة على النقود تنقش بالحرف الكوفى ، ثم تحولت الى الحرف النسخى الاعتيادى سنة ٦٢١ هـ فى ايام العزيز محمد بن صلاح الدين الايوبى بمصر



نقود العزيز بن صلاح الدين

ويظهر أنهم لم يكونوا يذكرون اسم البلد الذى ضربت النقود فيه الى اوائل القرن الثانى للهجرة . وكانوا اذا ذكروا تاريخ الضرب سبقوه بلفظ « السنة » ثم ابدلوها بلفظ « عام » ، وكثيرا ما كانوا يقولون شهور سنة كذا او شهور عام كذا او فى ايام دولة فلان . وكان يكتب التاريخ اولا بالحروف على حساب الجمل ثم كتب بالارقام ، واقدم ما عثروا عليه مؤرخا بالارقام سنة ٦١٤ هـ (*)

دار الضرب

وكانت دار الضرب ضرورية للدولة كما نراها ضرورية فى هذه الايام ، اذ لا تخلو دولة من دول الارض المتمدنة من دار تضرب فيها النقود . وكان ذلك شأن الدول الاسلامية فى كل ادوارها ، ولم تكن تخلو عاصمة او قسبة من دار للضرب ، فى بغداد والقاهرة ودمشق والبصرة وقرطبة وغيرها شىء كثير . وكان لدار الضرب ضريبة على ما يضرب فيها من النقود يسمونها ثمن الحطب وأجرة الضراب ، ومقدار ذلك درهم عن كل مائة درهم أى واحد فى المائة ، وربما اختلفت هذه الضريبة باختلاف المدن ، فكان للدولة من ذلك دخل حسن

واما مقدار ما كان يضرب فى الدولة من النقود فيختلف كثيرا ، ويتعذر تقديره لاختلاف احوال السكة عندهم ، فقد يمر على الدولة أعوام وهى تتعامل بنقود دولة أخرى ولا دار للضرب عندها ، او ربما كانت تضرب نقودا فى عاصمتها وتتعامل بنقود غيرها أيضا مما لا يمكن ضبطه ، ولكننا نأتى بما اتصل بنا من هذا القبيل على سبيل المثال . فقد ورد فى نفع الطيب للمقرى أن دار السكة فى الاندلس بلغ دخلها من ضرب الدراهم والدنانير على عهد بنى أمية فى القرن الرابع للهجرة ٢٠٠.٠٠٠ دينار فى السنة وصرف الدينار ١٧ درهما . فاذا اعتبرنا هذا الدخل باعتبار واحد فى المائة عن المال المضروب ، بلغ مقدار ما كان يضرب فى الاندلس وحدها من ممالك الاسلام ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار

(*) وجدت بعد ذلك فى مسكوكات ترجع الى ما قبل ذلك بكثير

أو نحو عشرة ملايين جنيه ، وذلك نحو ضعفى ماكانت تضربه انجلترا قبل الحرب العالمية الاولى وهى فى ابان قوتها الاقتصادية وثبات عملتها . فاذا اُضيف اليها ماكان يضرب فى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية ، وفى بغداد عاصمة الدولة العباسية ، وفى غيرها من المدن الاسلامية يومئذ ، كان مبلغ ذلك شيئاً كثيراً

وكانت صناعة ضرب النقود فى تلك العصور لا تزال فى أبسط احوالها ، وهى عبارة عن طابع من حديد تنقش فيه الكلمات التى يراد ضربها على النقود مقلوبة ، ثم يقسمون الذهب أو الفضة اجزاء بوزن الدنانير أو الدراهم ، ويضعون الطابع فوق تلك القطعة ويضربون عليها بمطرقة ثقيلة حتى تتأثر وتظهر الكتابة عليها . وكانت هذه الحديدية تسمى اولاً « السكة » ، ثم نقل هذا المعنى الى أثرها فى النقود وهى النقوش ، ثم نقل الى القيام على ذلك العمل والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة ، فصار علماً عليها . ويدخل فى دار الضرب كثير من الوظائف ، وفيها عدد كبير من العمال ، من الوازن والضارب وصاحب العيار وغيرهم

الطراز

ومن شارات الخلافة ايضاً الطراز ، وهو قديم فى الدول من عهد الفرس والروم . وذلك ان يرسم الملوك والسلاطين اسماءهم أو علامات تختص بهم فى طراز اثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الابريسم ، كأنها كتابة خطت فى نسيج الثوب لحاماً وسدى بخيط من الذهب ، أو بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، ما يحكمه الصياغ بحيث تصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، للدلالة على ان لابسها من اهل الدولة من السلطان فما دونه ، كما هى الحال فى لباس اجناد هذه الأيام ، فترى على بعضهم شرائط القصب والازرار الصفراء ونحوها من علامات الرتب ، كرسوم التيجان والسيوف والنجوم ونحوها

وكان ملوك الفرس والروم يجعلون رسم ذلك الطراز بصور ملوكهم واشكالهم ، أو صور اخرى تشير الى الملك . فلما استقر المسلمون على عرش الاكاسرة والقياصرة وعظمت دولتهم احبوا الاقتداء بهم ، ولم يستحسنوا اتخاذ الصور فاعتاضوا بكتابة اسمائهم وكلمات اخرى تجرى مجرى الفأل أو الدعاء

الطراز العربى

وأول من نقل الطراز الى العربية من ملوك المسلمين عبد الملك بن مروان الاموى ، لان الخلفاء الراشدين ظلوا على سداجة البداوة كما تقدم . فلما

افضت الخلافة الى بنى امية وخاطبوا الروم ، وساروا على خطواتهم في اكثر شؤون دولتهم . وكان في جملة ذلك الطراز على اثنابهم وستور منازلهم وقراطيسهم (والقراطيس برد مصرية كانوا يحملون بها الآنية والثياب) فاتخذ المسلمون الطراز كما كان عند الروم والكتابة عليه بالرومية ، وظلوا على ذلك أيام عبد الملك بن مروان فجعله في العربية ، وبدأ بالقراطيس وكانت تنسج بمصر ، وأكثر من في مصر لا يزال على النصرانية ، فكانوا يطرزونها بالرومية وطرزها : « بسم الاب والابن والروح القدس » . فظهر الاسلام وفتحت مصر والشام والطراز باق على ماكان عليه . وكيفية تنبه عبد الملك لذلك ، انه كان يوما في مجلسه فمر به قرطاس فرأى عليه الطراز بالرومية ، فلاح له أن يستطلع فحواه فأمر أن يترجم بالعربية ، فلما وقف على الترجمة أكبر أمرها وقال : « ما أغلظ هذا في امر الدين والاسلام ، ان يكون طراز القراتيس وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل مصر تدور في الآفاق والبلاد وقد طرزت على هذه الصورة » . ثم كتب الى أخيه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر ببطان ذلك الطراز ، على ماكان يطرز به من ثوب وقرطاس وغير ذلك ، وأن يستبدلوا تلك العبارة بصورة التوحيد : « لا اله الا هو » ففعل . وظل هذا طراز القراتيس في سائر أيام الدول الاسلامية ، ولم يغير شيء من جوهره . وكتب عبد الملك الى عمال الآفاق جميعا بابطال ما في أعمالهم من القراتيس المطرزة بطراز الروم ، ومعاينة من يخالف ذلك بالضرب الوجيع والحبس الطويل

فلما حملت هذه القراتيس الى بلاد الروم ، وعلم الامبراطور بخبرها وعلم ترجمة ما فيها أنكره واستشاط غيظا ، فكتب الى عبد الملك : « ان عمل القراتيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطرازهم ، فان كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت ، وان كنت قد أصبت فقد أخطأوا ، فاختر احدي الحالتين » وبعث اليه بهدية يسترضيه بها للرجوع الى الطراز . فرد عبد الملك الهدية وأخبر الرسول أن لارد عنده ، فأعاد اليه اضعافها وطلب الجواب ، فلما لم يرد عليه جوابا غضب الامبراطور وبعث يهدد بنقش سب النبي على النقود ، فكان ذلك داعيا الى تنبه عبد الملك الى ضرب النقود الاسلامية الحقيقية كما تقدم

ذلك ما كان من أمر القراتيس ، والظاهر أن المسلمين تنبهوا للطراز على الاثواب من ذلك الحين ، فجعلوا على ملابس أجنادهم ورجال دولتهم شارة الخلافة ، وهي اسم الخليفة أو لقبه أو نحو ذلك . وبقاء هذا الطراز على شارات الدولة وبنودها وكسائها يدل على بقاء سلطانها ، فاذا اراد أحد

الولاية الخروج من طاعة الخليفة قطع الخطبة له واسقط اسمه من الطراز ، كما فعل المأمون لما بلغه وهو على خراسان ان اخاه الامين نكث بيعته

دور الطراز او الكسوة

وانشأ الخلفاء للطراز دورا في قصورهم تسمى دور الطراز ، لنسج اثوابهم وعليها تلك الشارة . وكان القائم على النظر فيها يسمى « صاحب الطراز » ، وهو ينظر في أمور الصياغ والآلة والحاكة فيها ويجرى عليهم ارزاقهم ويشارف أعمالهم . وبلغت تلك الدور أفخم احوالها في ايام الدولتين الاموية والعباسية ، وكانوا يقلدون أعمال هذه الدور لخاصة دولتهم وثقات مواليتهم . وكذلك كانت الحال في دولة بني امية بالاندلس ، وفي الدولة الفاطمية بمصر ، ومن كان على عهدهم من ملوك العجم

ومن هذا القبيل ما كان يسمى في الدولة الفاطمية بدار الكسوة ، وكان يفصل فيها جميع أنواع الثياب والبز وقيمة ما كان يخرج منها من الكسى ٦٠٠ دينار في العام ، وكانت خلعتهم على الامراء الثياب الديبقي والعمائم بالطراز الذهب . وكانت قيمة طراز الذهب والعمامة خمسمائة دينار . وكانوا يفرقون الكسوات مرتين في العام ، مرة لتفريق كسوة الصيف ومرة لتفريق كسوة الشتاء ، على جميع أهل الدولة من الخدم والحواشي من العمامة الى السراويل . وقدروا عدد القطع التي صدرت منها سنة ٥١٦ هـ فبلغت ١٤٣٠٥ قطع . وفي المقریزی فصل خاص في تعداد ضروب الالبسة التي كانت تفرق في تلك الدار

وما زالت دور الطراز في الدول الاسلامية على نحو ما تقدم ، حتى ضاق نطاق تلك الدولة وضعف امرها وتعددت فروعها ، فتعطلت هذه الوظيفة من اكثرها . ولكن الطراز نفسه لم يبطل في ملابسهم ، على انهم لم يعودوا يصنعونه في دورهم ، بل صاروا ينسجون ما تطلبه الدولة من ذلك عندصناعه من الحرير او من الذهب الخالص ، ويسمونونه المزركش ويرسم اسم السلطان او الامير عليه . كذلك فعل السلاطين المماليك بمصر . ويشبهه في الدولة العثمانية رسم الطغراء العثمانية ، والشرائط المزركشة على البسة الضباط وغيرهم من رجال الدولة ، والعلامات الاخرى في الدول الاخرى

واما الهلال في الدولة العثمانية فلم نقف على ما يقابله في دول الخلفاء سوى ما كان يؤخذ من ألوان الرايات عندهم ، واختصاص كل لون بدولة كما سيجيء . والظاهر انهم كانوا يطرزون أسماء الخلفاء او القابهم على راياتهم واسلحتهم ، كما كانوا يضربونها على نقودهم



اسم السلطان بيبرس

فقد ذكر ابن خلكان في ترجمة العزيز بالله الفاطمي ، ان مملكته اتسعت وفتحت له حمص وحماه وشيزر وحلب ، وخطب له المقلد بن المسيب صاحب الموصل بالموصل وضرب اسمه على السكة والبنود . وفي كلام ابي الفداء عن استيلاء بجكم على بغداد انه اتصل بخدمة ابن رايق وانتسب اليه حتى كتب على رايته «الرايقي» ، فالظاهر ان تطريز الاسم على الرايات والبنود بعد ان كان خاصا بالخلفاء في اوائل الاسلام شاع في اواخر الدولة بين الامراء وكل ذي سلطان (*)

وكانوا يعدون من قبيل شارات الملك أيضا السرير والمنبر والتخت والكرسي ، وذكروا من شارات الخلافة الآلة وهي الالوية (وهي الاعلام) والرايات والموسيقى ، سيأتي الكلام عليها في باب الجند

(*) انظر عن الطراز المادة المستفيضة التي كتبها Adolf Grohmann في دائرة المعارف الاسلامية والمراجع الوافية المعطاة هناك

ولاية الأعمال

الولايات قبل الاسلام

يراد بالولاية الامارة على البلاد ، فيولى السلطان او الملك من يقوم مقامه في حكومة الولايات ، وهي الاعمال في اصطلاحهم . وهذا النوع من الحكومة قديم . وكانت الشام لما فتحها المسلمون واحدة من ولايات الروم يسمونها ولاية الشرق ، وتقسم الى ١١ اقليما تحت كل اقليم عدة بلاد ولكل اقليم قسبة . وهاك اسماؤها واسماء قصباتها وعدد المدن التابعة لها :

اسماء الاقاليم	عدد بلادها	اسم قصبتها	اسماء الاقاليم	عدد بلادها	اسم قصبتها
١ سوريا الاولى	٩	انطاكية	٦ بلاد العرب (*)	١٤	بصرى
٢ » الثانية	٧	حماء	٧ الجزيرة اوبين النهرين	١٣	ديار بكر
٣ » الثالثة	١٣	منبج	٨ اسروانا	١٢	اورفا (**)
٤ فينيقية الاولى او البحرية	١٢	صور	٩ فلسطين الاولى		قيسارية
٥ فينيقية الثانية	١٣	دمشق	١٠ » الثانية	٦	يسان
			١١ » الثالثة		بطرا

وكان لكل اقليم حاكم او عامل ، والغالب ان يكون بطريقا ، والبطريق patricius عند الروم غير البطريك ، وانما هو لقب جماعة من شرفاء المملكة الرومانية نشأوا بنشوء مدينة رومية ، وكان لهم نفوذ عظيم في دولة الرومان . وكانوا بعد انقسام الدولة الرومانية قد انحط شأنهم ولم يعد لهم عمل في الحكومة ، فلما امتدت تلك المملكة الى افريقية وسائر المشرق ، رأت الحكومة ان هذه الولايات البعيدة تحتاج الى من يتولاها ويكون له هبة وسطوة ، فجعلوا يولونهم الحكومات في تلك المستعمرات ، وفي جملتها الشام ومصر وما يليها (***)

(*) يراد بها بادية الشام ، وتسمى ارابيا Arabia

(**) هذا الاقليم يسمى Seriana وعاصمته Oraba وقد راجعت ما أورده المؤلف عن التقسيم الادارى لسوريا أيام البيزنطيين الى :

et J. Gruber Atlas historique. Le Moyen-Age par J. Calmette, R. Grousset
Paris 1936. Planche II

(***) هذا التفسير لتطور مركز البطارقة طريف في ذاته، وان كنا لا نجد ما يؤيده فيما بين ايدينا من المراجع ، والحقيقة ان البطريق patricius وجمعه patricii تسمية تطلق على طبقة من سكان روما يقال ان اصلهم يختلف عن اصل بقية سكانها المسمين الشعب plebs، بل يقال ان البطارقة هم اصل سكان روما وانهم فرع من السابين Sabini ثم وفدت عليهم جماعات البليبيين من اصول شتى وموارد مختلفة ، ولهذا كان البطارقة هم النبلاء والاشراف في حين ان البليبيين كانوا العامة . وعلى أى حال ، فمن الثابت ان البطارقة كانوا يقبضون على زمام الحكم اول الامر في البلد ، ومنهم كان ينتخب القناصل اى حكام روما واعضاء السناتو ، مجلس الشيوخ . ثم بدأ الصراع بين البطارقة والبليبيين ،

فكان على كل اقليم من اقاليم الشام حاكم يقيم في قصبته ومعه الجند في القلاع ، وكان على كل من هذه الاقاليم حاكم عام يقيم في انطاكية ، ولهذا الحاكم ان يولى ويعزل من يشاء من حكام الاقاليم . وهو يتولى جباية الخراج والانفاق على الجند وسائر أعمال الولاية . وكانت مصر أيضا على نحو هذا النظام من حيث الانقسام الى اقاليم وبلاد ، وحاكمها العام كان يقيم في الاسكندرية (*)

وكانت العراق وبلاد فارس هكذا أيضا ، وربما كان ولايتها أكثر تقيدا من ولاية الشام ومصر لقرب دار الملك منهم

الولايات في الاسلام

فلما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح ، كانوا اذا أرسلوا قائدا الى فتح بلد ولوه عليه قبل خروجه لفتحه . أو شرطوا عليه اذا فتحه فهو أمير عليه . وكان ذلك شأنهم من أيام النبي ، فانه أرسل في السنة الثامنة للهجرة ابا زيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام وقال لهما : « ان اجاب القوم الى شهادة الحق واطاعوا الله ورسوله فعمر و الامير وأبو زيد على الصلاة وأخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن » . وكان كذلك (١)

فلما تولى ابو بكر وبعث البعث لفتح الشام ، كان اذا عقد لاحدهم لواء على بلد او اقليم ولاء قبل ذهابه لفتحه . هكذا فعل في اول بعث بعثه وولى عليه ثلاثة من كبار قواد الدولة اذ ذاك ، فعقد لواء لعمر و بن العاص وأمره ان يسلك طريق ايلة (***) عامدا الى فلسطين ، وعقد لواء آخر ليزيد بن ابي سفيان وأمره ان يسلك طريق تبوك الى دمشق ، وعقد لشرحبيل بن حسنة على ان يسير في طريق تبوك ايضا الى الاردن . وولى كل واحد منهم البلد

وهو صراع طويل انتهى بان كسب الشعب معظم حقوق النبلاء ، وازيلت الحواجز الاجتماعية التي تفصل احدى الطبقتين عن الاخرى ، وحصل الشعب على حق انتخاب ممثلين له يحميان حقوقه ، يسمى كل منهما تريبيون

وكان العرف الروماني يقضى بأن يتولى حكومة الولايات القناصل السابقون ، والقناصل من النبلاء اى البطارقة ، فكل حاكم اقليم على هذا الاعتبار بطريق . وقد ثبت ذلك دقلديانوس ، عندما اصلى النظام العام للدولة خلال النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى ، وبمقتضى ذلك الاصلاح اصبح حاكم الاقليم يسمى بطريقا ، وجرى الامر على ذلك فى الدولة البيزنطية ايضا ، وكلام المؤلف منصب عليها هنا ، اما اللقب الرسمى لحاكم الولاية عند البيزنطيين فكان فيكارىوس Vicarius والولاية نفسها تسمى ديوسيسييس Diccisis وكان هناك حكام عامون كبار يسمى الواحد منهم مديرا Praefectus

(*) كان لمصر مركز خاص في التنظيم العام للدولة الرومانية والدولة البيزنطية بعد ذلك ، فبينما كان حاكم غيرها يلقب بلقب فيكارىوس (انظر التعليق السابق) كان حاكمها يلقب بالمدير الاغسطى Praefectus Augustoli

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، طبعة ليدن ، ص ٧٦
(***) هي التي تسمى ايلاث اليوم Elath فى اقصى الطرف الشمالى لخليج العقبة ، وتسمى ايضا ام رشرش

الذى هو سائر لفتحته وقال لهم : « اذا كان بكم قتال فأمركم الذى تكونون فى عمله »

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة ولى ابا عبيدة بن الجراح امر الشام كله وامرة الامراء فى الحرب والسلام ، فأشبهه عمله هذا ماكانت عليه الشام قبل فتحها ، وهى أن يكون على كل اقليم عامل ، وعلى عمال الاقاليم وال عام كما رأيت . ولكن حاكم الروم العام كان يقيم فى انطاكية ، فاختر المسلمون دمشق بدلا منها لبعدها عن البحر وقربها من بلاد العرب ، عملا برغبة عمر بن الخطاب ان لا يقيم المسلمون فى مكان يحول بينه وبينهم ماء كما تقدم

الاحتلال العسكرى

وكانت ولاية الاعمال فى بادىء الراى اشبه بالاحتلال العسكرى منه بالتملك . وكان العمال ، او الولاة ، عبارة عن قواد الجند المقيم بضواحي البلاد المفتوحة بما يعبرون عنه بالرابطة او الحامية . وكانت الجنود الاسلامية تنقسم الى قوات تقيم فى قواعد عسكرية بأماكن اقرب الى طريق الصحراء منها الى السواحل للاسباب التى قدمناها

وكانت كل قاعدة عسكرية تسمى جندا ، فيقال جند دمشق وجند قنشرين وجند الاردن ، وكان سلطانها يشمل زماما واسعا يعادل زمام الولاية الرومانية او البيزنطية التى تقع فيها القاعدة ، ومن هنا فقد اطلق على هذه الولايات التى يحكمها قائد قاعدة عسكرية : الجند ، فالجند على هذا الاعتبار هى الولاية العسكرية ، وكانت اكثر ما تكون على الحدود .

فكانت عساكر الشام اربعة اجناد تقيم فى دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وقوات العراق كانت تقيم فى الكوفة والبصرة . وقوات مصر فى الفسطاط وضواحي الاسكندرية . ولم يكونوا يسكنون القرى ولا المدن ولا يختلطون بالاهلين اول الامر ، وقد منعهم الخليفة عمر بن الخطاب من اتخاذ الزرع ، وشدد عليهم فى ذلك ، فكانوا يقيمون فى معسكراتهم الى زمن الربيع ، فيسرحون خيولهم بالمرعى فى القرى يسوقها الاتباع ومعهم طوائف من السادات . وكانوا كثيرى العناية بتربية خيولهم واسمائها ، ومن اقوال عمرو بن العاص لجنده فى مصر : « لا اعلمن ما اتى رجلا قد اسمن جسمه واهزل فرسه ، واعلموا انى معترض الخيل كاعتراض الرجال فسن اهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك »

انتشار الاسلام فى البلاد المفتوحة

وكان عمرو بن العاص اذا جاء الربيع كتب لكل قوم بريعهم ولبنهم (*) الى

(*) اى خصص لكل قوم ناحية يربعون فيها خيولهم وجمالهم

حيث أحبوا ، فتتفرق العرب في القرى على حسب راياتهم وقبائلهم ، وخصوصا في منوف وسمنود واهناس وطحا . وكانت قرى مصر كلها في جميع الاقاليم يسكنها القبط والروم (*) ، ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة الاولى من تاريخ الهجرة ، ثم تضاعف في اواسط المائة الثانية . ولم يقووا الا في المائة الثالثة - يُؤيد ذلك ان المسلمين لم ينشئوا في القرى مساجد قبل ذلك الحين ، وان القبط كانوا اذا انتقضوا اتعبوا المسلمين ولايهون على هؤلاء اخضاعهم . وما زالوا في ذلك حتى أوقع المأمون بهم سنة ٢١٦ هـ وجعل الاسلام ينتشر في القرى

وقس على ذلك حال الاندلس لما فتحها المسلمون سنة ٩٢ هـ ، فانهم أقروا أهلها على ما كانوا عليه اداريا وسياسيا ودينيا ، وتركوا لهم أعمال الحكومة وادارة شؤونها ، وانما ابقوا لانفسهم الرئاسة العامة وقيادة الجند . هكذا كانت حال الاعمال الاسلامية في أوائل الاسلام ، الا ما قرب منها من مركز الخلافة كالشام في أيام بنى أمية ، والعراق في أيام بنى العباس

فكان العمال في عهد الخلفاء الراشدين قواد الجند الذين افتتحوا تلك الاعمال ، وواجباتهم الرئيسية مراقبة سير الاحكام في البلاد التي افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج . وقد رأيت في غير هذا المكان أن أعمال الحكومة في البلاد المفتوحة في مصر والشام والعراق ظلت سائرة على ما كانت عليه قبل الفتح ، الى اواسط أيام بنى أمية . وبدأت ولايات الاعمال تتحول الى حكومات محلية من اواخر دولة الراشدين ، حتى كانت أيام عبد الملك بن مروان ، فآتم السيطرة الاسلامية بنقل الدواوين الى اللغة العربية ، واخرج منها من لم يعرف لغة العرب فاجتهد أهل البلاد في تعلم اللغة العربية حتى يحتفظوا بهذه الوظائف ، وبذلك كان هذا الاجراء الذي قام به عبد الملك بن مروان من أهم ما قام به خلفاء الاسلام ، فقد كان له اثر حاسم في تعريب ادارة الدولة الاسلامية وفي نشر اللغة العربية ، ثم تنوعت الولايات وصارت درجات متفاوتة ، على ما اقتضاه الزمان والمكان ، ولكنها ترجع الى امارتين : امارة عامة ، وامارة خاصة . والامارة العامة ضربان : امارة استكفاء ، وامارة استيلاء

الامارة العامة

١ - امارة الاستكفاء

فامارة الاستكفاء أو امارة التفويض ، هي التي كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الكفاء ، فيفوض اليه امارة الاقليم على جميع أهله ، ويجعله

(*) لم يكن الروم يقيمون في ارياف مصر الا في مواضع معينة محدودة ، غالبها غربى الدلتا وبعض مواضع الصعيد الاوسط

عام النظر في كل اموره . ويشتمل نظره فيه على سبعة امور :

١ - تدبير الجيوش ، وترتيبهم في النواحي ، وتقدير ارزاقهم (الا اذا كان الخليفة قدرها)

٢ - النظر في الاحكام ، وتقليد القضاة والحكام

٣ - جباية الخراج ، وقبض الصدقات ، وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما

٤ - حماية الدين والدفاع عن الحريم

٥ - اقامة حدود الشرع

٦ - الامامة في الصلوات

٧ - تيسير الحج

واذا كان الاقليم المشار اليه متاخما لعدو ، ترتب على العامل امر ثامن هو جهاد ذلك العدو ، وقسمة الغنائم في المقاتلة ، واخذ خمسها لاهل الخمس ، كما هو مفصل في باب الجند والمال

وكان اكبر ولايات الاسلام على هذه الصورة ، وخصوصا لما بعد منها عن مركز الخلافة ، كالعراق في بني امية ومصر والشام في بني العباس وخراسان في كليهما

عمال الاستكفاء في زمن بني امية

ومن عمال الاستكفاء في ايام بني امية في العراق زياد بن ابيه ، وابنه عبيد الله ، وبشر بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ويزيد بن المهلب ، ومسلمة ابن عبد الملك ، وعمر بن هبيرة ، وخالد بن عبيد الله القسري ، ويوسف بن عمر الثقفي ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عمر بن هبيرة . وكانت تسمى اماره كل منهم « اماره العراقيين » لاشتمالها على الكوفة والبصرة

فكان كل امير من هؤلاء يتصرف في امارته تصرف الملوك المستقلين بالكيفية انى قدمناها ، فيعين العمال على البلاد تحت امارته وسائر عمال حكومته ، ويجبى الاموال فينفق منها على جنده وفي ما تقتضيه العمارة من اصلاح الجسور وحفر الترغ ونحو ذلك ، ويرسل ما يبقى عنده الى بيت المال في الشام

وكانت الحال نحو ذلك في مصر ، فقد كان عاملها من عمال الاستكفاء من عهد عمرو بن العاص فما بعده . وربما كان عامل مصر اكثر استقلالاً من سواه ، وخصوصا عمرو بن العاص لما تولاه للمرة الاخيرة بأمر معاوية بعد ان نصره على

على . وربما فعل معاوية مثل ذلك بزياد بن ابيه لما ولاه خراسان ، وبالمغيرة ابن شعبة لما ولاه الكوفة رغبة منه في ارضاء اطماع هؤلاء الدهاة كما تقدم (*)

عمال الاستكفاء في ايام العباسيين

ولما أفضت الخلافة الى بنى العباس ساروا على نحو هذه الخطة ، لكنهم قلما كانوا يجعلون أمر العراق مفوضا للعمال ، لقربه من مركز الخلافة . على أنهم كانوا يفوضون العمال في الاقاليم البعيدة ، كالشام ومصر وخراسان وسائر ما وراء العراق نحو الشرق الى أقصى بلاد الترك وما وراء النهر . ولما تمكن البرامكة من الدولة وغلب نفوذهم فيها ، ولى الرشيد أحدهم - جعفر بن يحيى - الغرب كله ، من الانبار الى افريقية ، وقلد أخاه - الفضل بن يحيى - الشرق كله ، من شروان الى أقصى بلاد الترك سنة ١٧٦ هـ ، فأقام جعفر بمصر ، وارسل العمال بأمره الى الشام وافريقيا وغيرهما . وأما الفضل فانه سار الى عمله حتى وصل الى خراسان ، فأصلح وبدل واستخلف عمالا ، وعاد الى العراق

وكثيرا ما كان الخلفاء يفوضون الى بعض خاصتهم عملا من الاعمال ، فيرسل هذا من يقوم مقامه في ذلك العمل ، ويبقى هو في بلاد الخليفة . وأكثر ما كان يقع ذلك في الدولة العباسية ، في عصرها الثاني

وكانت امارة الاستكفاء هذه من جملة الاسباب التي ساعدت على تشعب المملكة العباسية الى دول مستقلة ، لان الوالى كان يقيم في ولايته كأنه ملك مستقل ، الا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج الى الخليفة ، والخطبة له ، وضرب النقود باسمه ، وأمور أخرى لاتضغط على ارادته . فاذا كان الوالى ذا دهاء وأنس من الخليفة ضعفا ، جمع اهل الاقليم على ولائه واستقل بعمله ، اما استقلالا تاما واما على مال معين يبعث به الى الخليفة ببغداد ، أو على شروط أخرى . وعلى نحو هذا النمط استقل الاغلبية في افريقية ، وبنو طاهر في خراسان ، وابن طولون في مصر ، ولكن تلك الأقاليم ظلت تعد امارات عباسية من الناحية النظرية على الاقل

(*) واضح ان امارة الاستكفاء كانت امتياز يختص به الخليفة الرجال ذوى القدرة العظيمة او اصحاب الفضل الكبير على الدولة . فكان الخليفة يولى الواحد منهم ولاية كاملة على ناحية بعينها ، او على بضع نواح ، كما كان الحال مع الحجاج وزياد بن ابيه ، اذ كانت تتبعهما ولايات أخرى مما يلى العراق شرقا . أى ان الخليفة كان « يستكفى » بهم عن عداهم ، وكانت لهم السلطات كلها على ما بأيديهم ، فهم مسئولون عن الاموال والقضاء وامامة الناس ، في حين ان الامير او الوالى العادى كان يؤمر على الجند فقط ، اى يعتبر قائدا عسكريا ، ويعين الخليفة معه عاملا على الاموال يسمى عامل الخراج ، وقاضيا يشرف على سير العدالة ، وقد تجمع لبعض الامراء العاديين امرة الجيوش ، والعمالة على الخراج ، غير انه عندما ضعف امر الدولة خلال العصر العباسي الثاني اصبح الامراء كلهم امراء استكفاء ، وكان هذا تمهيدا لاستقلالهم بنواحيهم كما يقول المؤلف

ويراد بامارة الاستيلاء ان يعقد الخليفة لامير على اقليم اضطرارا، بعد ان يستولى الامير على ذلك الاقليم بالقوة. فكان الخليفة يثبته في امارته، ويفوض اليه تدبير سياسته فبكون الامير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير، ويكون الخليفة باذنه منفذا لاحكام الدين. ولهذه الامارة شروط تفرض على الامير في مقابل ذلك وهي:

١ - حفظ منصب الامامة في خلافة النبوة وتدبير امور الملة

٢ - الزام الناس بالتزام اشراط العقيدة

٣ - جمع الكلمة على الالفه والتناصر ليكون للمسلمين يد على من سواهم

٤ - ان تكون عقود الولايات الدينية جائزة والاحكام فيها نافذة

٥ - ان يكون استيفاء الاموال الشرعية بحق تبرا به ذمة مؤديها

٦ - ان تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمة على مستحق

٧ - ان يهتم الامير في حفظ الدين

ولامير الاستيلاء ان يستخدم الوزراء وغيرهم. ومن هذه الامارات ما انتهت اليه الدولة العباسية من التشعب وظهور الدول الصفري فيها، كالدولة الحمدانية والبويهية والفرزونية والاشيدية وغيرها، وكلها كانت امارات مستقلة تدعو للخليفة على المنابر، وتضرب السكة باسمه، وترسل اليه مالا معيناً في السنة يتم الاتفاق عليه، وهو الذي يثبت امراءها، ويكون الحكم متسلسلا في أعقابهم

الامارة الخاصة

واما الامارة الخاصة، فهي ان يكون الامير فيها مقصورا على تدبير الجيش، وسياسة الرعية، وحماية البيضة، والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة. وليس له ان يتعرض للقضاء او الاحكام او لجباية الخراج او الصدقات في شيء، حتى الامامة في الصلاة، فربما كان القاضي اولى بها منه. والخليفة يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده، فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي، وهم يؤدون اعطيات الجند وغيرها مما يجمعونه. والامارات الخاصة كانت قليلة في ابان الدولة العباسية

رواتب العمال

اما رواتب العمال فقد قدرها عمر بن الخطاب، بعد تدوين الدواوين وتعيين ارزاق الجند. واول ما فعل ذلك لما وجه عمار بن ياسر الى الكوفة وولاه صلاتها وجيوشها، فجعل له ستمائة درهم في الشهر. وعين الرواتب لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يقوم بالامر معه. فبعث عثمان بن حنيف

على مساحة الارض ، وعبد الله بن مسعود على قضاء الكوفة ، وشريحا على قضاء البصرة . وأجرى على عثمان ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم ، وجعل عطاءه خمسة آلاف درهم في السنة . وأجرى على عبدالله مائة درهم في الشهر وربع شاة في اليوم . وأجرى على شريح مائة درهم وعشرة اجربة في الشهر . فترى مما تقدم انه فضل عمار بن ياسر عليهم اجمعين ، لانه كان على الصلاة والجند وهي الامارة يومئذ . ولما ولى عمر معاوية بن ابي سفيان على الشام ، جعل له ألف درهم كل سنة . وكان عمر يشدد في محاسبة العمال ، فاذا رأهم ربحوا مالا من شيء قاسمهم وأخذ النصف لبيت المال

وأما بنو امية فقد نال عمال الاقاليم في أيامهم امتيازات كثيرة ، منحهم اياها معاوية ترغيبا لهم في البقاء على ولائه . فولى زياد بن ابيسه البصرة وخراسان وسجستان ووسع له بما يريد ، وفعل نحو ذلك مع عمرو بن العاص بمصر

وجرى العباسيون على نحو ذلك ، فلما ولى المأمون الفضل بن سهل على الشرق جعل له ٣٠٠٠٠٠ درهم في السنة . وكانت رواتب العمال تختلف باختلاف نوع العمل وسعته وأهميته

الوزارة وما يتبعها

١ - الوزارة

الوزارة أسمى الرتب السلطانية ، وليست من محدثات الاسلام بل هي فارسية الاصل اتخذها المسلمون في عهد الدولة العباسية . اما اذا اريد بالوزارة استعانة الخليفة بمن يشد أزره او يعاونه في الحكم ، فهي تتصل بصدر الاسلام . لان النبي (صلعم) كان يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ، ويختص ابا بكر بخصوصيات اخرى ، حتى ان العرب الذين خالطوا الروم والفرس قبل الاسلام كانوا يسمون ابا بكر وزيره . وكذلك كان شأن عمر مع ابي بكر ، وشأن علي وعثمان مع عمر . ولكن لفظ الوزير لم يكن يعرف بين المسلمين في سداجة الدولة

على ان بنى امية لما جعلوا الخلافة ملكا ، واصبح معولهم في استبقاء ملكهم على السياسة والدهاء ، احتاجوا الى من يستشيرونهم ويستعينونهم في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم واصطناع الاحزاب منهم ، فاستخدموا اناسا لنحو ذلك الغرض ، وهي الوزارة بمعناها ، ولكن يظهر انهم لم يكونوا يسمون صاحب هذه الرتبة الوزير ، فانقضت دولة بنى امية دون ان يتخذ الخلفاء وزراء ، ودون ان تظهر الوزارة في نظم الاسلام

ولكن دولة بنى امية عرفت نظام الكتاب او كتاب الخلفاء ، ووظيفة الكاتب هي الاصل الذي تطور فيما بعد الى وظيفة الوزير . وقد عرف الاسلام الكتاب من اول امره ، وكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من الصحابة . وكان لكل واحد من الخلفاء الراشدين كاتب او اكثر يكتب عنه . وعلى هذا النظام مضى بنو امية

ولم يكن الكاتب اول الامر كاتب الدولة بل كاتب الخليفة ، اى امين سره وصاحب ديوانه وسجلاته ، ثم صار مع الزمن كاتباً للدولة اى امينا عاما لها . وقد حدث هذا التطور على ايام عبد الملك بن مروان

فلما افضت الخلافة الى بنى العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه ، عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد ، واضيف الى الوزارة النظر في ديوان الحساب ، ثم النظر في المكاتبات لصون اسرار الخليفة . فأصبحت الوزارة شاملة لخطى السيف والقلم

وأول وزراء بني العباس أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير أبي العباس السفاح وهو أول من سمي وزيرا في الاسلام ، قال ابن خلكان : « ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت لا في دولة بني أمية ولا في غيرها » . وكان أبو سلمة يسمي وزير آل محمد ، كما يسمي أبو مسلم الخراساني أمير آل محمد ، وكلاهما فارسيان . والعباسيون أول من عول على الوزراء ، فسلموا اليهم أمور الدولة ، وأكثرهم من الفرس . وأشهر وزرائهم البرامكة ، وقد استفحل أمرهم في الدولة حتى اضطر الرشيد الى الفتك بهم في نكبتهم المشهورة وتقلبت على الوزارة أحوال شتى في أيام بني العباس ، ففي القرن الرابع للهجرة اضيف الى اسم الوزير لقب « صاحب » ، وأول من لقب به منهم أبو القاسم اسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس ، وكان أولا وزير مؤيد الدولة بن بويه وعرف بالصاحب ، وصار كل من تولى الوزارة بعده يسمي **الصاحب** . .

واخذ نفوذ الوزارة في بني العباس يتقلص بتقلص نفوذ الخلفاء ، حتى استبد العمال في الاعمال ، وتفرعت المملكة العباسية ، فأصبحت الوزارة كالخلافة اسما بلا مسمى ، فأسقطوها وأبدلوها بامرة الامراء (*)

(*) لم تسقط الوزارة ولم تلغ بظهور منصب أمير الامراء ، وإنما عاد الوزير «كاتباً» موكلا بالاموال ، وأصبح بعد ذلك وزيرا شخصيا للخليفة العباسي المستضعف ، في حين انتقلت سلطات الوزير السابقة ، ومعظم سلطات الخليفة نفسه ، الى أمير الامراء . وكانت الوزارة قبل ذلك قد صارت نوعين : « وزارة تنفيذ » وهي حالما يكون السلطان قائما على نفسه ، و « وزارة تفويض » وهي حالما يكون الوزير مستبدا عليه . ثم استمر الاستبداد ، وصار الامر للملك العجم ، وتعطل رسم الخلافة ، ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة ، واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب ، لانهم خول لهم ، فسموا بالامارة والسلطان - ابن خلدون: المقدمة ج ٢ ص ٤٢٨

قال ابن خلدون : « ثم جاءت دولة الترك آخرها بمصر ، فأرأوا أن الوزارة قد ابتدلت بترفع اولئك عنها ، ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ، ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مرءوسة ناقصة ، فاستنكف أهل هذه المرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة ، وصار صاحب الاحكام والنظر في الجند يسمي عندهم بالنائب لهذا العهد ، وبقي اسم الحاجب في مدلوله ، واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية » - نفس المصدر ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩

وقد اتخذ المستبدون بأمور الخلافة العباسية لانفسهم وزراء الى جانب وزراء الخلفاء ، ومن أشهر وزرائهم أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة بن بويه - ابن خلكان في وفيات الاعيان ج ٢ ص ٥٧

وقد عرف تاريخ الوزارة في التاريخ الاسلامي تطورات أوسع مدى من هذه ، وخاصة بما يتصل بالوزارة في الاندلس الاسلامي ومصر الاسلامية ، وفي دولة السلاجقة وعند الاتراك العثمانيين ، مما لا يتسع المجال للافاضة فيه هنا ، ويكفي أن نشير الى أهم المراجع :

أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ، طبعة الاساتذة السقا والابيارى وشلبى (مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة ١٩٢٨)

هلال الصابى : تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، طبعة أمدرود ، بيروت ١٩١٠

الموردى : الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨

ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية

الموردى : كتاب أدب الوزير ، القاهرة ١٩٢٩

ابن الصيرفي : الاشارة الى من نال الوزارة ، القاهرة ١٩٢٤

مسكويه : تجارب الامم ، طبعة أمدرود ، القاهرة ١٩١٤ - ١٩١٥

٢ - أمير الامراء

عندما عجز خلفاء بنى العباس عن ضبط الامور ، بسبب استبداد امراء النواحي بما تحت ايديهم وضعف الخلفاء عن السيطرة على جندهم ، بسبب قلة الجباية والتوقف عن دفع الاعطيات ، اخذوا يستبدلون الوزراء واحدا بواحد ، باحثين عن شخصيات تستطيع القيام بشئون الدولة ومواجهة المشاكل العسيرة التي واجهتها ، وقدعين الخليفة الراضى سنة (٩٣٤/٣٢٢ - ٩٤٠/٣٢٩) خمسة وزراء واحدا بعد الآخر ، وكان آخرهم سليمان بن الحسن بن مخلد . وعندما ضاقت به الحيل اتجه ببصره الى اكبر القواد العسكريين في ايامه ، وهو ابن رائق ، وكان واليا على واسط والبصرة ، فاستدعاه وسلم اليه مقاليد الامور ولقبه أمير الامراء

فاستحدث بذلك وظيفة كبرى كانت قاضية على الوزارة ، وكان لها اثر بعيد في الهبوط بمستوى الخلافة ، وفي ذلك يقول ابن طباطبا : « واستبد ابن رائق أمير الامراء بالامور ، ورد الحكم في جميع الامور الى نظره ، ولم يبق للوزير سوى الاسم » - (الفخرى ، ص ٢٥٣)

ويقول مسكويه ان الراضى « عرفه انه قلده الامارة ورياسة الجيش ، وجعله أمير الامراء ، ورد اليه تدبير اعمال الخراج ، والضياح واعمال المعادن في جميع النواحي ، وفوض اليه تدبير المملكة ، وامر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك . . » - (تجارب الامم ، ج ١ ص ٣٥٦)

ويبدو ان ابن رائق لم يكن اول من تلقب بأمر الامراء ، فقد ذكر مسكويه ان الخليفة المقتدر منح هذا اللقب لولاه مؤنس الخادم ، ولقبه بمؤنس المظفر ، ولكن هذه الوظيفة لم تأخذ مظهرها الحقيقي الا في ايام ابن رائق . وعندما استبد بنو بويه بامور الخلافة على يد معز الدولة بن بويه ابتداء من سنة ٩٣٢/٣٢٠ انتقل اليهم هذا اللقب

وما زال هذا اللقب في بنى بويه الى سنة ٤٤٩ هـ ، فانتقل الى السلاجقة الاتراك واولهم طغرل بك ، ثم صار خلفه الب ارسلان من اعظم ملوك زمانه . وظل هذا اللقب في السلاجقة الى سنة ٥٤٧ هـ وسقط بسقوط دولتهم في بغداد

ابو شجاع : ذيل تجارب الامم ، طبعة امدرود ، القاهرة ١٩١٦

المقريزي : اتعاظ الحنفا ، طبعة الدكتور الشيبان

السيوطي : حسن المحاضرة ، في اخبار مصر والقاهرة ١٢٥١

ابن خلدون : المقدمة ، مطبعة بيروت ، ١٩٥٧

خليل الظاهري : زبدة كشف الممالك ، طبعة رافيس Ravaisse باريس ١٨٨٤

المقريزي : الخطط ، طبعة بولاق ، الجزء الثاني

H. Bowen : The good vizier Ali ibn Isa. Cambridge 1928.

S. de Sacy : Chrestomatie Arabe II, 57 note 31

والمادة التي كتبها عن لفظ « وزير » Franz Babinger في دائرة المعارف الاسلامية

وكان بنو بويه لما استفحل أمرهم يولون أمير الامراء من عند أنفسهم ، ولم يتركوا للخلفاء الا نائبا يسمى « رئيس الرؤساء » ، ثم عاد الخلفاء في أيام السلاجقة الى تولية أمير الامراء

ومن يتدبر تاريخ منصب الوزارة في الدولة العباسية ، يتبين له انها كانت من جملة أسباب انحلال هذه الدولة ، لان الخلفاء سلموا مقاليد الحكومة الى وزرائها وتقاعدوا عن أمور السياسة ، فأصبحوا بتوالي الاجيال عاجزين عنها وأما الدول الاخرى ، فالدولة الفاطمية بمصر أول وزرائها يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله سنة ٣٦٣ هـ . والدولة الاموية في الاندلس كانت الوزارة فيها كما كانت في أيام أمويي الشام : كانت مشتركة في جماعة يعينهم الخليفة للاعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير في دولة بنى العباس ، فيسميه الحاجب ثم سمى الوزير . وكانت هذه الرتبة عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومه ، كما كان شأن البرامكة في بغداد (*)

وزارة التفويض

كانت الوزارة وزارتين : وزارة تفويض ووزارة تنفيذ مثل اماره الاعمال . فوزارة التفويض ان يستوزر الخليفة رجلا يفوض اليه تدبير الامور برأيه وامضاءها على اجتهاده ، فيتولى الوزير كل شيء يمضيه عن الخليفة الا ثلاثة اشياء :

- ١ - ولاية العهد فان للخليفة ان يعهد الى من يرى وليس ذلك للوزير
- ٢ - للخليفة ان يعزل من قلده الوزير وليس للوزير ان يعزل من قلده الخليفة
- ٣ - للخليفة ان يستعفى الامة من الامامة وليس ذلك للوزير

ومن وزراء التفويض آل برمك ، ويحيى بن اكرم ، وابن الفرات وغيرهم في الدولة العباسية ، وأمير الجيوش في الدولة الفاطمية . وقد بلغ من تفويض بنى العباس لوزرائهم أنهم كثيرا ما كانوا يسلمون اليهم خاتم الخلافة يختمون به الكتب دونهم ، وفي حكاية الرشيد مع جعفر والفضل يوم أخذ الخاتم من جعفر وسلمه الى الفضل دليل على مقدار نفوذهم

وناهيك بحكاية جعفر بن يحيى البرمكى مع عبد الملك بن صالح دليلا على ذلك : كان جعفر في مجلس فدخل عبد الملك بن صالح (ابن عم الرشيد) عليه وهم في الطرب ، فقال له جعفر : « هل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة على ما صنعت ؟ » . قال : « بلى ، ان في قلب

(*) انظر عن الوزارة في الاندلس : ابن خلدون : المقدمة ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ ، وما يليها

أمير المؤمنين تغيرا على فتسأله الرضى عنى « . فقال جعفر : « قد رضى
 عنك أمير المؤمنين » . قال : « وعلى عشرة آلاف دينار » فقال جعفر : « هى
 حاضرة لك من مالى ، ولك من مال أمير المؤمنين مثلها » . قال : « وأريد أن
 أشد ظهر ابنى ابراهيم بمصاهرة أمير المؤمنين » . قال : « قد زوجه أمير
 المؤمنين بابنته الغالية » . قال : « وأحب أن تخفق الولاية على رأسه »
 قال : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » ، ثم انصرف عبد الملك . وقد اقدم
 جعفر على ذلك كله من غير استئذان

وفى الغد دخل جعفر على الرشيد فقال له الرشيد : « كيف يومك يا جعفر
 بالامس ؟ » . قال جعفر : « فقصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول
 عبد الملك بن صالح ، وكان الرشيد متكئا فاستوى جالسا وقال : « لله
 أبوك ! ما سألك ؟ » . قلت : « سألتى رضاك عنه يا أمير المؤمنين » قال :
 « بم أجبتة ؟ » . قلت : « قد رضى عنك أمير المؤمنين » . قال : « قد
 رضيت عنه . ثم ماذا ؟ » . قلت : « وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار
 فأجبتة : قد قضاها عنك أمير المؤمنين » . قال : « وقد قضيتها عنه . ثم
 ماذا ؟ » . قلت : « ورجب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده ابراهيم بمصاهرة
 منه ، فقلت له قد زوجه أمير المؤمنين ابنته الغالية » . قال : « قد أجبتة
 الى ذلك . ثم ماذا ؟ » قلت : « قال وأحب أن تخفق الولاية على رأسه ،
 فقلت قد ولاه أمير المؤمنين مصر » . قال : « قد وليته اياها » . ثم انجز
 له جميع ذلك من ساعته

وكثيرا ما كان الخلفاء يقلدون وزراءهم مع الوزارة منصبا آخر مهما ، كما
 تقلد الفضل بن سهل رئاسة السيف مع الوزارة ، فسموه ذا الرئاستين

وزارة التنفيذ

أما وزارة التنفيذ فالنظر فيها مقصور على تنفيذ ما يراه الخليفة ، فيكون
 الوزير واسطة بين الخليفة وبين الرعية ، فيمضى ما يأمره الخليفة به من تقليد
 الولاية ، وتجهيز الجيوش ، ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث
 ملم . خلافا لوزير التفويض ، فانه يولى ويعزل كما يشاء ، ويقضى ويمضى
 بلا حد ولا قياس . ويجوز للخليفة أن يستوزر وزيرى تنفيذ : احدهما
 للحرب مثلا والآخر للخراج ، ولكنه لا يستوزر الا وزيرا واحدا تفويضا

راتب الوزير

أما راتب الوزير فقد كان يختلف باختلاف العصور واختلاف الاشخاص .
 ولكن الوزراء لم تكن نفقاتهم تقتصر على رواتبهم ، لان الخلفاء كانوا يفرضون

الرواتب لآخوتهم وأولادهم وحواشيهم ، وقد فرض المقتدر بالله العباسي لوزيره علي بن عيسى خمسة آلاف دينار في الشهر . واليك راتب الوزير في الدولة الفاطمية وما يلحقه من رواتب أهله وأتباعه :

الوزير	راتبه في الشهر	٥٠٠٠ دينار
لكل واحد من أولاده وأخوته	» » »	من ٢٠٠ - ٣٠٠ »
لكل واحد من حواشيهم	» » »	من ٣٠٠ - ٥٠٠ »

ما عدا الاقطاعات وما كان يدفع اليهم في المواسم من الهدايا وما يخلع عليهم من الخلع في الاعياد ونحوها فربما بلغ راتب الوزير وتوابعه بما يلحقهم من الاقطاع نحو ١٠٠٠٠٠ دينار في السنة . وسنعود الى الرواتب في الجزء الثاني من هذا الكتاب في الكلام عن مالية الدولة

السلطان

كان هذا المنصب في أوائل أمره لقباً لوزراء الدولة العباسية ، يلقبون به على سبيل التفخيم بأمر الخلفاء كما تقدم ، وذكر ابن خلدون أن جعفر بن يحيى دعى سلطاناً . ويظهر من مجمل ما نقرأه في كتبهم أنهم يطلقون لفظ السلطان على والى بغداد أو والى الشام ، ولعله رئيس الشرطة أو ما يشبه المحافظ اليوم . وقد يريدون بالسلطان الخليفة نفسه ، وكل ذلك على سبيل المجاز . ولم تصر السلطنة رتبة رسمية الا في أيام محمود الغزنوي بن سبكتكين ، وهو أول سلطان في الاسلام ، سمي به في أواخر القرن الرابع للهجرة بدلا من لقب أمير الامراء الذي ذكرناه . وكأنه ابتدل كما ابتدل اسم الوزير قبله ، فأبدلوه بلقب سلطان . وصار بعد ذلك لقباً لملوك الاتراك والاكراد والجراسنة ، وغيرهم من السلاجقة والايوبية والمماليك والعثمانيين . والوزارة لم يكن الارث شرطا فيها ، فلما صارت الى السلطنة صار الارث شرطا فيها ، والسلطان يعهد الى ولي عهده قبل موته (*)

(*) ورد لفظ « سلطان » في القرآن الكريم مرارا ، ولكن المراد به دائما هو السلطة المعنوية أو قوة السحر وما الى ذلك . وورد اللفظ في الاحاديث بالمعنى السابق ، وبمعنى الحاكم أو الوالى . وقد روى عن الرسول (صلعم) حديث : « السلطان ظل الله على الارض » ، وقد كان لهذا الحديث أثر بعيد فيما ادعاه السلاطين من تفويض الهى لهم بحكم الناس فيما بعد ، واستعمل المؤرخون المسلمون الاولون السلطان للدلالة على بعض الحكام قبل الاسلام . وقد استعمل المنصور العباسي اصطلاح « سلطان الله » في احدى خطبه ، وذكر الخليفة الموفق ملقباً بلقب السلطان في أحد نصوص الطبرى . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ربط لفظ « سلطان » العربى بلفظ « شلطانا » السريانى ، لان كليهما كان يدل أول الامر على النفوذ دون صاحبه

وقد ذكر ابن خلدون أن جعفر البرمكى كان يلقب بالسلطان . وقد اتخذ الامراء البويهيون لقب سلطان دون أن يمنحهم الخليفة اياه . ولكن أول من منحه الخليفة لقب سلطان هو

وذكر ابن خلكان في ترجمة الرازي الطبيب ان الملوك السامانية كانوا يسمون ملكهم « سلطان السلاطين » (١) - والملوك السامانية قبل الفزنوي - فالظاهر ان هذا اللقب كان معروفا من قبل ، فاذا صح ذلك كان لقب الفزنوي موروثا عنهم . ولكننا رأينا لبعض الباحثين كلاما في شأن هذا اللقب يرجح قولنا الاول ، والا فربما كان ذلك اللقب عند السامانية قبل اعتناقهم الاسلام ، فيكون محمود اول سلطان في الاسلام والله اعلم

وكان الخلفاء هم الذين يولون السلاطين ، وان كانت القوة في ايدي هؤلاء ، ولكنهم كانوا يعتبرون ذلك من وجهه الديني . وكانوا يحتفلون بتولية السلطان احتفالا شائقا ، فيخلع عليه الخليفة سبع خلع ، ويلبسه طوقا وتاجا وسوارين ، ويعقد له اللواء ، ويقلده السيف ، ويخطب له

محمود الفزنوي كما يقول ابن الاثير ، وذلك غير ثابت لان العملة التي بقيت لنا عن محمود الفزنوي لا تلبه سلطانا . اما اول من تلقب بذلك رسميا ونقشه على العملة فابراهيم الفزنوي الذي حكم من ١٠٥٩ الى ١٠٩٩

وقد تلقب الخلفاء الفاطميون حوالي سنة ١٠٠٠ ميلادية بلقب سلطان الاملام . وخلع الخليفة العباسي على طغرل بك السلجوقي لقب « السلطان ركن الدولة » ، وكان طغرل بك اول من حمل هذا اللقب رسميا بوثيقة خليفية لقب فيها بالسلطان المعظم ، ومن ذلك الحين أصبح لقب سلطان اعظم لقب يستطيع حاكم مسلم الحصول عليه ، وأصبح منصبيا لا صفة كما كان الحال قبلا ، اذ ان المراد به كان « صاحب السلطان » او « ذو السلطان » ومن هنا جاء لفظ « سلطان شاه » وهو معادل للقب سلطان ، وكان يحمله اكبر رجال الدولة . اما من دونه من الاتابك فكانوا يلقبون بلقب « ملك » او « شاه » . ثم شاع اللقب بعد ذلك

ولم يتسم الايوبيون بالسلطنة وانما تسموا بالملوك فقط ، ولم يستعملوا لفظ ملك مطلقا بل مضافا ، فقالوا : الملك المعظم والملك الصالح وهكذا . وأصبح المعنى المحدد للسلطان هو الحاكم المطلق الذي لا سلطان فوقه ، وان كان سلاطين المماليك حرصوا على ان يخلع الخلفاء عليهم هذا اللقب ، واستعملوه مضافا فقالوا : « السلطان العادل » ، و « السلطان الاعظم » وهذا يبين لنا الفرق بين المعنى الاخير للفظ سلطان وبين معناه قبل ذلك ، فقد اريد به سلطان الدولة او سلطان الحكومة ، ولهذا سمي الماوردي كتابه بالاحكام السلطانية ، اي الاحكام الحكومية او الادارية

ومن الملاحظ ان السلاطين كانوا دائما من السنيين ، فيما عدا سلاطين الخوارزمية ، وهذا يفسر لنا السر في ان السلاطين أصبحوا مع الزمن حماة السنة والاسلام عامة . ولهذا اخذ سلاطين المغول الذين دخلوا في الاسلام هذا اللقب ، وهذا ايضا يفسر لنا السبب في ان امراء الترك العثمانيين اخذوا هذا اللقب من ايام اورخان ، وعندما صارت اليهم الخلافة جمعوا بين اللقبين : فصاروا خلفاء وسلاطين ، وخاصة بعد قضائهم على سلطنة المماليك المصريين

اما في ايران الشيعية ، فكان الحاكم الاعلى يسمى « شاه » ، في حين اطلق لقب « سلطان » على الضباط والحكام . وقد تلقب خديو مصر بلقب السلطان عندما تحرر من سلطان العثمانيين بعض الشيء ايام الاحتلال الانجليزي ، فأطلق على حسين كامل ثم على فؤاد ، اي من سنة ١٩١٤ - الى ١٩٢٢ ، ثم اختفى وحل محله لقب ملك

وقد استعمل اللقب في المغرب من ايام بني مرين ، ولا زال يستعمل لقبيا للاسرة العلوية الحاكمة في القطر المراكشي الى اليوم

واستعمل الصوفية لقب سلطان وأطلقوه على كبار الصالحين منهم ، ومن امثلة ذلك : السلطان ابو العلاء والسلطان الحنفي . وفي نواحي السودان يطلق اليوم لقب سلطان على حكام الاقاليم من شيوخ القبائل

انظر المراجع الوافرة التي يقدمها J. H. Kramers في ثنايا مادة سلطان التي كتبها في دائرة المعارف الاسلامية

ومن أمثلة ذلك احتفال الخليفة المستظهر بالله بتولية محمد بن ملكشاه في بغداد بحضور أخيه سنجر (١) ، فان الخليفة جلس لهما في قبة التاج على سدة ، وعلى كتفه بردة النبي ، وعلى رأسه العمامة ، وبين يديه القضيبي ، وأفاض على محمد بالخلع والبسه الطوق والتاج والسوارين ، وعقد له اللواء بيده وقلده سيوفين وأعطاه خمسة أفراس بمراكبها ، وخطبوا له بالسلطنة في جامع بغداد

وكانوا يلقبون السلاطين يوم الاحتفال بتوليتهم القابا تشير الى تأييد الخلافة بهم ، مثل ناصر الدولة وسيف الدولة وعضد الدولة ونحو ذلك

(١) ابن خلكان ٤٧ ج ٢

الجند وتوابعه

تاريخ الجند

اصل الجند ونظامه

كان الناس في اوائل ادوار تمدنهم قبائل جندها رجالها ، اذا احتاجت الى قتال اجتمع الرجال من كل قبيلة بلا نظام ولا ترتيب ، وينال كل واحد من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة بطشه ، فلما تحضر الناس وتقاسموا الاعمال ونشأت الدول كان من اقدم المهن عندهم الكهانة والجنودية

واول دولة نظمت الجند الدولة المصرية الفرعونية ، فقد جندت جيشا من الزنوج والاحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد ، اخضعت بهم سكان سواحل البحر الاحمر . ثم انتشر امر التجنيد في الدول القديمة في اشور وبابل وفينيقية واليونان والرومان والاسلام

فالفراعنة اسبق الامم الى تنظيم الجند ، وكان نظامه عندهم الصفوف المتعاقبة المتراصة ، وعلى آثارهم كثير من صور هذه الصفوف . والمشهور ان رعمسيس الثاني هو منظم الجند المصرى على النظام المعروف لانه كان يحب الحرب ، وبلغ عدد جنده الى ٦٠٠٠٠٠ رجل و ٢٤٠٠٠ فارس و ٢٧٠٠٠ مركبة وعمارة بحرية . واقتبس البابليون والفرس هذا النظام مع بعض التعديل على مقتضيات الاحوال ، وبه تغلب قورش وقمبيز في حروبهما مع اليونان وغيرهم

جند الروم

واما اليونان فانهم اقتبسوا نظام الجند المصرى ونوعوه ، فانشأوا الكتاب ويحبر عنها في لسانهم بلفظ Phalanx وهو ان تتراص الجنود صفوفًا متعاقبة، وكانت الكتيبة تتألف من ٤٠٠٠ رجل ، يصطف رجالها الواحد بجانب الآخر على بضعة اقدام في صفوف متعاقبة ، الواحد وراء الآخر . فجعلها فيليب المقدونى ضعفى ذلك ، ثم جعلها ابنه الاسكندر اربعة اضعافه ، وقارب ما بين الرجال حتى كادت تتعاس اكتافهم وتترابط تروسهم . واصطنع لهم رماحا طول بعضها ٢٣ قدما . وتكون رماح الصف الامامى قصيرة ، ورماح ما وراءه اطول فأطول ، حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة اقدام نحو الامام . وكان فيليب قد نظم فرقة من الفرسان ، فأضاف ابنه اليها

آلات الحرب وفي جملتها المنجنيق ، وبهذا النظام تغلب الاسكندر على العالم في القرن الرابع قبل الميلاد



كتيبة الاسكندر في اثناء المعركة وقد فتكت رماحها بالاعداء

جند الرومان

فلما نشأت دولة الرومان اقتبست نظام الكتائب عن اليونان وأدخلته في جندها ، وكان الجيش الروماني في ابان الدولة مؤلفا من فرق عدد رجال كل منها ٦٠٠٠ تتألف من ثلاث طبقات من الرجال

١ - الشبان ومنهم يتألف الصف الاول من الكتيبة في الحرب

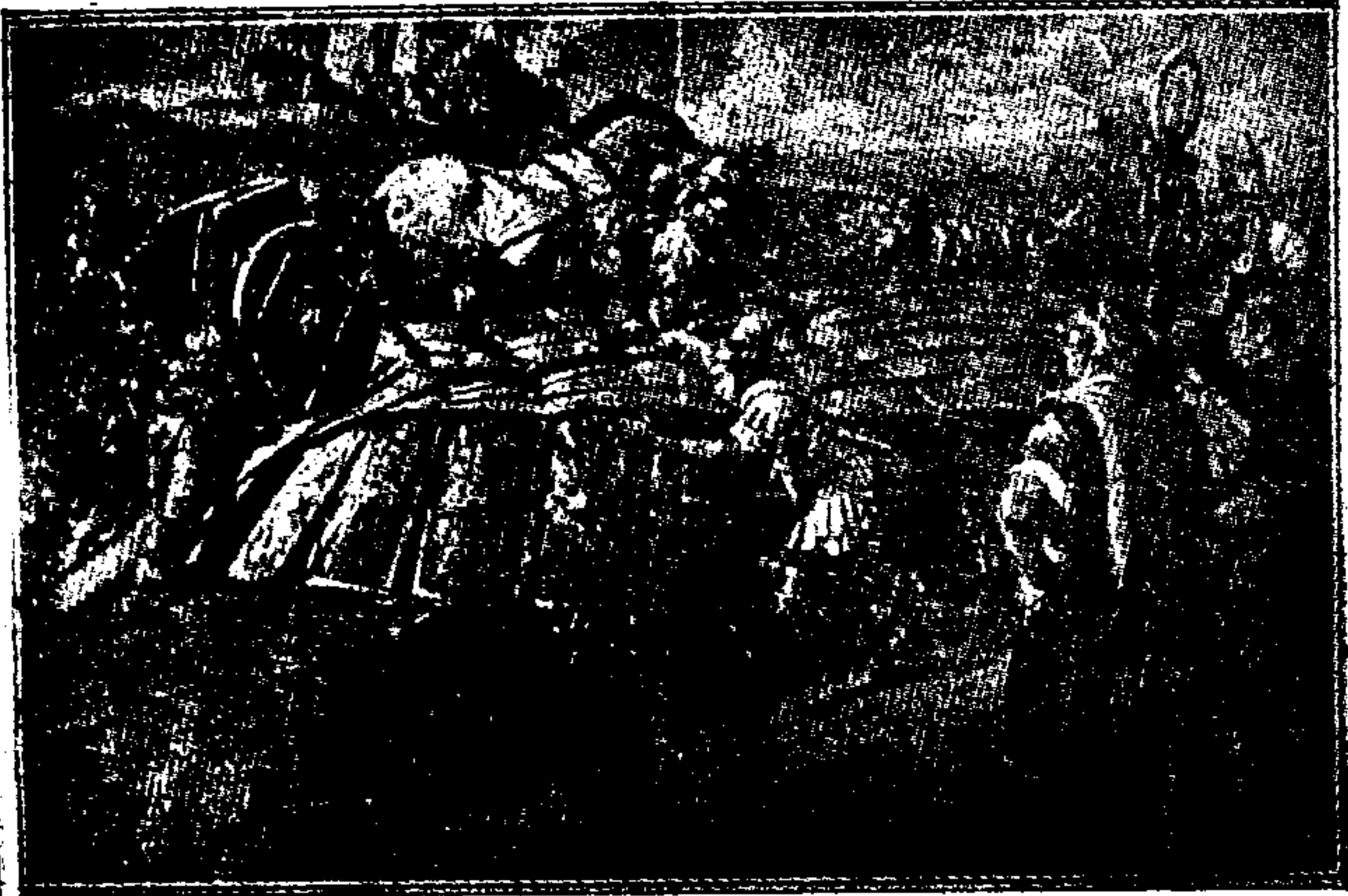
٢ - الكهول في الصف الثاني

٣ - اهل الدربة والحنكة ويتألف منهم الصف الثالث

وكان يلحق كل فرقة عندهم كوكبة من الفرسان تتقلد السهام والمقاليع والمزاريق لمشاغلة الاعداء عن حرب المشاة

ثم قسم الرومان الفرق الى كراديس بلا تقييد بالصف ، فجعلوا الفرقة عشرة كراديس ، والكردوس ثلاثة اقسام ، وكل قسم فصيلتين عدد رجال كل منهما مائة رجل . وهذا النظام يخالف نظام الكتائب المتقدم ذكره بأن لا يتقيد الجند بصف واحد او كتيبة واحدة ، بل يكون عدة كتائب كل كتيبة منها كاردوس . وظل نظام الجند الروماني في حروبه على هذه الصورة الى الفتح الاسلامي

ولما ظهر الاسلام كانت جنود الروم ١٢٠.٠٠٠ ، يقود كل عشرة آلاف منها قائد يغلب ان يكون بطريقا ، وتحت البطريق ضابطان يسمى كل منهما طومرخان يتولى قيادة ٥٠٠٠ ، وتحت الطومرخان خمسة طرنجارية Drungarii كل واحد يقود ألف رجل ، وتحت خمسة قوامس واحد هم قومس Comes يتولى قيادة ٢٠٠ جندي ، وتحت القومس قمبرخ Centuriones ، وتحت الدرديخ ، وهذا تحت عشرة رجال . وترى في هذا النظام مشابهة كلية بنظام جند هذه الايام



قواد الروم واجنادهم وآلاتهم واسلحتهم

وأما الفرس فقد كان جندهم أربع طبقات : الاولى طبقة القواد العظام ويسمى واحد هم ميرميران ، تحته أربعة قواد يسمى كل منهم اصفهيد ، وتحت كل اصفهيد أربعة مرازية ، وتحت كل مرزبان أربعة سالارية ، وتحت كل سالار عشرة اساوره (وهم الفرسان المفردة) وخمسة من الرجال المشاة ويسمونهم البيادة

جند العرب

أما العرب قبل الاسلام فقد كانوا اهل بدائة لا نظام للجند عندهم ، وانما كانوا قبائل اذا ارادت احداها حربا جردت رجالها ، وفيهم الفرسان والمشاة

ومعهم الاسلحة المعروفة في الجاهلية ، كالقوس والرمح والسيف . . الا ما كان من نظام الجند في الدول العربية التي تمدنت قبل الاسلام ، كالتبابعة ملوك حمير والمناذرة ملوك الحيرة ، فقد ذكروا للمناذرة كتيبتين من الجند تسمى احدهما الدوسر والاخرى الشهباء . واما عرب الحجاز فقد كانوا قبل الاسلام على الفطرة البدوية كما قدمنا

فلما ظهر الاسلام انفرد المسلمون عن سائر العرب ، واتحدوا بجامعة الدين يدا واحدة في محاربة اعدائهم ، فكانوا كلهم جندا كبيرهم وصغيرهم . وأول جنود المسلمين المهاجرون ، فلما جاءوا المدينة اتحدوا بالانصار وصاروا جميعا جندا واحدا قائدهم النبي بنفسه ، ورابطتهم المعاهدة والمؤاخاة وعددهم يومئذ قليل جدا

جند العرب في دولة الراشدين

ثم جعلوا يزدادون بالفتح والغزو في أيام النبي وأبي بكر ، بمن انضم اليهم من قبائل العرب في الحجاز واليمن ونجد واليمامة كبارا وصغارا ، تجمعهم جامعة الاسلام ، حتى تكاثروا فتكاثفوا وحملوا على الشام والعراق ومصر ، ففتحوا البلاد ومصروا الامصار ، وانقسموا الى اجناد يقيم بعضها في مصر وبعضها في الشام وبعضها في العراق ، في محطات خاصة بهم . وكان جند كل محطة ينقسم باعتبار القبائل والبطون ، فكان جند البصرة مثلا خمسة اقسام تسمى الاخماس ، يقيم في كل خمس منها قبيلة من قبائل المسلمين وهم : الازد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية « قريش وكنانة والازد وبجيلة وختعم وقيس عيلان كلها ومزينة » وكانوا يسمون أهل العالية والكوفة أهل المدينة ، وكان على كل خمس أمير من أمراء تلك القبائل . وقس على ذلك سائر اجناد المسلمين في الكوفة والفسطاط مما مصره المسلمون ، او في غيرها من مدن العراق والشام ومصر ، فقد كان لهم في كل اقليم جند ينقسم على نحو هذه الكيفية

كل ذلك والمسلمون كلهم جند محارب لا يعمل احد منهم عملا . وقد نهاهم عمر بن الخطاب عن الزرع ، كانه رأهم بعد ان فتحت لهم الامصار وراوا خصب الارض قد مالوا الى الرخاء والتقاعد عن الحرب ، فأمر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم سائر فلا يزرعون ، ولعله اراد بذلك ان لا يتوطنوا في بلد ، اذ ربما مست الحاجة الى تجنيدهم لنجدة اخوانهم في بلاد اخرى او لحماية بعض الامصار فلا يثقل عليهم ذلك

تنظيم جند العرب

في أيام بني أمية

أما تنظيم الجند فئة خاصة دون سائر فئات المسلمين ، فقد بدأ في أيام عمر عند تدوين الدواوين كما سيأتي ، وتم في أيام بني أمية . ويظهر أن التجنيد الإلزامي بدأ في أواسط هذه الدولة ، وكان الناس من قبل يذهبون إلى الحرب جهادا في سبيل الله فيصيبون الفنائم والفيء ، فلما قامت الفتنة بعد مقتل عثمان (سنة ٣٥ هـ) اشتغلوا بالحرب فيما بينهم مدة ، وكل طائفة تندفع إلى ذلك دفاعا عن رأيها واعتقادها بأنها تدرا عن الحق . فلما أفضى الأمر إلى بني أمية ، وصار المسلمون دولة واحدة ، وضعت قوة الأحزاب بتغلب العنصر الأموي ، لم يعد الناس يرون ما يدفعهم إلى الحرب طوعا ، فجعلوا يتقاعدون فاضطر الخلفاء إلى التجنيد بالإلزام

ولعل أول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف على عهد عبد الملك بن مروان . وكانت الدولة الأموية قد بلغت ذروة مجدها ، وكثر المسلمون ومالوا إلى العمل في الأرض وأطلق لهم السراح . وكانوا قد هموا بالتقاعد عن الحرب في أيام معاوية ، فغلبهم بدهائه وعظائمه . فلما تولى ابنه يزيد ، ثم معاوية الثاني ، ثم مروان بن الحكم - ولم يكن فيهم من يملك القلوب أو الأعناق - تجرأ الجند على التقاعد . فتولى عبد الملك الخلافة والجند على ماتقدم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فشكا ذلك إلى روح بن زنباع صاحب شرطته فقال له : « يا أمير المؤمنين ، إن في شرطتي رجلا لو قلده أمير المؤمنين عسكره لارحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف » فأطاعه عبد الملك وقلد الحجاج أمر العسكر

وكان الحجاج شديدا عاتيا ، فلم يعد أحد يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع ، فوقف الحجاج عليهم يوما وقد رحل الناس وهم على طعام ، فقال لهم : « ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ » فقالوا له : « انزل يا ابن اللخناء فكل معنا ! » فقال : « هيهات ! ذهب ما هنالك ! » . ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وأمر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت بالنار ، فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكيا فقال له : « مالك ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ، الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد شرطتي ضرب عبيدي وأحرق فساطيطي » . قال : « على به » . فلما دخل عليه قال : « ما حملك على ما فعلت ؟ » . قال : « ما أتا فعلته يا أمير المؤمنين » . قال : « ومن فعله ؟ » . قال : « أنت والله فعلته ! إنما يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما على أمير المؤمنين إلا أن يخلف على روح ابن زنباع للفسطاط والفسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له »

فأخلف الخليفة لروح بن زنباع ماذهب له ، وتقدم الحجاج في منزلته ، وكان ذلك أول ما عرف من كفايته فيشبه أن يكون ذلك أول تاريخ التجنيد الالزامي ، ثم صار التجنيد سنة وأصبح الجند الاسلامي فئتين : المرتزقة والمتطوعة ، وكلاهما عرب يرجعون في انسابهم اما الى قحطان وهم اليمانية ، او الى عدنان وهم المضرية ، وفيهم جماعة من الموالي او العبيد

جند الاعاجم في الاسلام

١ - في الدولة العباسية

فلما تولى بنو العباس واحتاجوا الى مؤازرة الاعاجم في تأييد سلطانهم ، دخل في جند العرب جماعات منهم ، وأول من دخل في الجند الاسلامي منهم آل خراسان ، لانهم هم الذين نصروا العباسيين في دعوتهم ، وسلموا اليهم أزمة الخلافة بقيادة ابي مسلم الخراساني ، فكانت فرق الجند في أيام المنصور ثلاثا : اليمانية ، والمضرية ، والخراسانية ، ثم أضيف اليها فرقة رابعة هي فرقة الحرس الخاص ، اتخذها الخلفاء خوفا مما كانوا ينصبونه لهم من الحبائل أو يقيمونه عليهم من الثورات . ومن غريب هذه الاعمال أن الامر الذي أراد الخلفاء أن يحفظوا سلطانهم به كان علة خروج ذلك السلطان من أيديهم . . . ولما أفضت الخلافة الى المعتصم بالله (سنة ٢١٨ هـ) كانت العناصر الاجنبية قد تمكنت من الدولة ، وزاد الخلفاء خوفا على أنفسهم . فخاف المعتصم من جنده على نفسه ، فاصطنع قوما من الحوف بمصر (الشرقية والدقهلية) استخدمهم في حاشيته ، وسماهم المغاربة - لان مصر غربي بغداد - ولعل فيهم بعض أهل المغرب ، وجمع خلقا من أشروسنة وسمرقند وفرغانة ابتاعهم من أسواق بغداد تدريجا وجند منهم جندا سماه جند الفراغنة ثم سموه الاتراك . وقد كانوا اشد خطرا على الدولة العباسية من سائر فرق الجند ، وآل الامر بهم الى الاستبداد بأهل الدولة ، واحتقار الجند العربي الاصلى واساءة سائر أهل بغداد ، حتى أنهم كثيرا ما كانوا يركبون الدواب في شوارع بغداد ويركضونها ، فيصدمون الرجل والمرأة والصبى ، فتأذى الناس وشكوا أمرهم الى المعتصم ، فلم ير سبيلا الى ملافاة ذلك الا باخراج جنده من بغداد ، فبنى لهم سامرا (سنة ٢٢١) وأقام معهم فيها

وكانت خلافة المعتصم بدء نفور العرب من خلفائهم وشكواهم منهم . وكانوا يعبرون بالجند يومئذ عن الاتراك وغيرهم من الاعاجم ، « وبالحرية » من جند العرب وكلهم مشاة (*) ، ثم المتطوعة وهم الذين يقدمون على الحرب

(*) كان الحربية من الفرسان الذين يتسلحون بالرمح ، وهم من جند العرب . اما المشاة فكانوا في الغالب من الفرس ولا سيما الخراسانيين

من تلقاء أنفسهم ، ويفلب أن يكون المتطوعة في الحروب خارج حدود المملكة الإسلامية . وكان من فرق الجند عند الخلفاء النشابون الذين يرمون النشاب ، والنفاطون الذين يرمون النفط لأحراق حصون الأعداء ، والمنجنقيون رماة المنجنيق وهم مثل مدفعية هذه الأيام ، والعيارون وهم رماة الحجارة من المخالي . وكان للجند أطباء وصيادلة يرافقونه في الحرب والسلام ، كما تفعل الدول المتقدمة اليوم



جند من المسلمين بأعلامهم وأبواقهم في القرن الثامن للهجرة نقل من مخطوط قديم

ثم نشأت فرق أخرى من جند الأتراك وجعلوا يتنازعون النفوذ في الدولة ، وكان في جملة تلك الفرق فرقة الشاكرية . . ظهرت في أيام المهدي واستفحل أمرها في أيام المستعين بالله ، ونشأ في أثناء ذلك ضرب من الحرس الخاص في قصور الخلفاء يسمونهم الغلمان الحجرية ، وكان في دولة الفواطم بمصر فرقة منهم ، وتحول قسم كبير من جند المشاة العرب إلى فرقة عرفت بالرجال المصافية ، ثم تشكلت فرقة عرفت بالفرقة الساجية نسبة إلى ابن الساج أحد عمال المقتدر بالله ، وهناك فرق أخرى من الأتراك وغيرهم نقرأ أسماءهم عرضاً في تاريخ الدولة العباسية كالبلالية والسعدية وغيرهما . وكانت كل فرقة تستعمل نفوذها في الدولة على ما يبلغ إليه جهدها ، وكثيراً ما كانت تقوم الفتن فيما بينها أو بينها وبين حرس الخلفاء ، حتى آل الأمر إلى خروج الأحكام من العرب على الأجمال ، ونسى أمر قريش والعرب كما سيأتي . وصارت

الاحكام الى الاتراك ونحوهم ، فنشأت منهم الدول المشهورة . وتقلبت نظم الجند بعد قيام دول الاتراك الكبرى على احوال شتى ، نذكر منها نظامهم في زمن السلاطين المماليك بمصر ثم العثمانيين

٢ - جند السلاطين المماليك بمصر

كان جند المماليك اخلاطا من الاتراك والجر كس والروم والاكراد ، واكثرهم من المماليك المبتاعين ، وهم طبقات اعلاها الامراء ومن يليهم الى الجندي البسيط . واما الامراء فهم كالضباط في هذه الايام ، ومنهم من له امرة مائة فارس او اكثر الى الف فارس ، وهؤلاء من الامراء يسمون اكابر النواب ، وتحتهم امراء الطبلخانات ولكل منهم امرة اربعين فارسا الى السبعين ، ولا تكون الطبلخانة لاقل من ٤ فارسا ، يليهم امراء العشرات من عشرة الى اربعين ، ثم جند الحلقة وهؤلاء لكل اربعين منهم مقدم ليس له حكم عليهم الا اذا خرج العسكر ، وكانت قيادتهم اليه وكانت رواتبهم تعطى بالاقطاع كما سيجيء



خوذة احد السلاطين المماليك بمصر

وكان لهم في الجند مناصب تتفاوت رفعة ونفوذا ، اهمها امير السلاح وصاحبها يتولى حمل السلاح للسلطان ، والدوادار لتبليغ الرسائل عن السلطان وهو من امراء المثين ، والحاجب يقف بين الامراء والاجناد ، وامير جاندار كالمسلم للباب ومن اراد السلطان قتله كان على يده ، والاستاذ دار

يتولى أمر بيوت السلطان ونفقاتها ، وتقيب الجيش لاحضار من يطلب السلطان احضارهم ، والوالى وهو صاحب الشرطة (١) . وقد تولدت هذه المناصب فى دولة المماليك بالتدريج حسب الاحوال ، ومن اكثر السلاطين عملا فى ذلك السلطان ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فانه من كبار المؤسسين لهذه الدولة

ولهم فى تدريب ذلك الجند طرق خاصة بهم ، يبدأون به منذ دخول المملوك فى ملك السلطان : اذا قدم تاجر عرض مملوكا على السلطان يشتريه ويجعله فى طبقتة ، ويسلمه الى الطواشى برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكانت كل طائفة لها فقيه يأتياها كل يوم ، ويأخذ فى تعليمها القرآن ومعرفة الخط ، والتمرن بأداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات والاذكار . وكان الرسم اذ ذاك ان لاتجلب التجار الا المماليك الصغار ، فاذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئا من الفقه واقراه فيه مقدمة . فاذا صار الى سن البلوغ اخذ فى تعليمه فنون الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الفاية فى معرفة ما يحتاج اليه . واذا ركبوا الى لعب الرمح او رمى النشاب لايجسر جندى ولا امير ان يحدثهم او يدنو منهم ، فينقل عند ذلك الى الخدمة وينتقل فى اطوارها رتبة بعد رتبة ، الى ان يصير من الامراء . فلا يبلغ هذه الرتبة الا وقد تهذبت اخلاقه وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الاسلام واهله بقلبه ، واشتد ساعده فى رماية النشاب ، وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل

ولما فتح السلطان سليم مصر سنة ٩٢٣ ضعف أمر المماليك ، لكنهم مازالوا محافظين على جنديتهم يتوارثون تقاليدها اجيالا . حتى تولى محمد على ففتك بالمماليك فى قلعة القاهرة سنة ١٨١١ واباح قتلهم حيثما وجدوا ، فلم ينج من امرائهم الا مملوك اسمه امين بك وثب بجواده من امام باب القلعة فى اثناء المذبحة فقتل جواده ونجا هو ، وانقرض المماليك وجندهم من ذلك الحين (٢) . وكان جند محمد على من الالبانيين ، ثم اتخذ الجند النظامى من المصريين (*)

(١) السيوطى ١١٢ - ٢ (٢) تاريخ مصر الحديث - ٢

(*) أوجز المؤلف فى هذه السطور القليلة نظم الجيوش الاسلامية وتطورها ، وهو ملخص لما أوردته القلقشندى فى صبح الاعشى . وقد ظهرت حديثا سلسلة طيبة من الابحاث والدراسات فى نظم الحرب وترتيب الجيوش عند المسلمين ، معظمها يتناول نظم الجيوش المصرية وخاصة ابتداء من العهد الايوبى ، ونخص بالذكر منها رسالة الدكتور نظير سعداوى عن التاريخ الحربى لصلاح الدين ، ورسالة الدكتور السيد الباز العرينى عن الفروسية فى مصر فى عهد سلاطين المماليك ورسالة الدكتور على طرخان عن الاقطاع فى العصر المملوكى

واهم المراجع الاصلية التى تتناول نظم الحرب وتاريخ الجيوش فى الاسلام : محمد بن أبى بكر الدربى المعروف بابن القيم : الفروسية ، القاهرة ١٩٤١

الجند العثماني الانكشارية

وللجند العثماني تاريخ طويل ، يبدأ منذ تأسيس الدولة العثمانية ، وقد بنى على نظام جند السلاجقة . ثم نشأ جند الانكشارية المشهور ، أنشأه قره خليل احد كبار رجال الدولة العثمانية في زمن السلطان أورخان . وقد نظر في تنظيمه الى خلوه من عصبية تبعثه على التمرد (١) وكان العثمانيون يومئذ يفتحون البلاد واكثر أهلها مسيحيون ، فيدخل في حوزتهم جماعة من غلمان النصرى الذين قتل آباؤهم واصبحوا لا نصير لهم ولا مرجع لآمالهم ، فارتأى ان يربى أولئك الغلمان تربية اسلامية ، ويدربهم على الفنون الحربية ، ويجعلهم جندا دائما لا يخشى منه التمرد . لانه لا يعرف عصبية غير الدولة ، ولا عملا غير الجندية ، ولا ديناً غير الاسلام . فجندهم وسار بهم الى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسية ، ليدعو لهم ، فدعا لهم وسماهم : « يكي جرى » اي الجند الجديد

ولم يكن قره خليل هذا اول من جند غلمان النصرى ، كما يظن اكثر مؤرخى الاتراك . فان الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر فعل ذلك قبل تأسيس الدولة العثمانية ، وهو متوجه الى دمشق سنة ٥٦٥ هـ لملاقاة عساكره العائدة من غزوة بلاد سيبس ، فنزل بلدا اسمه قارا بين دمشق وحمص ، فأمر بنهب أهلها النصرى وقتل كبارهم ، لانهم كانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم سرا للصليبيين ، واخذ صبيانهم مماليك رباهم بين الاتراك في الديار المصرية ، فنشأوا على الاسلام وتجنّدوا في الجيش التركى

على أن قره خليل جعل شروطا للانكشارية لم يسبق لها مثيل ، فقسّمهم الى وجاقات ، وأحدها وجاق . والوجاق يقسم الى أورط ، أحدها أورطة . ولكل أورطة عدد تعرف به ، ولبعضها أسماء خاصة . ويختلف عدد الجند

محمد بن بكتو الاشرقى الرماح : كتاب الفروسية وعلاج الخيول ، مخطوط بدار الكتب
أبو المحاسن جمال الدين بن تغرى بردى : النهر الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط بدار الكتب

محمد بن منكلى : الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية ، مخطوط بدار الكتب
شمس الدين محمد السخاوى : القول التام فى الرمي بالسهم ، مخطوط بدار الكتب

خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، طبعة باريس ١٨٩٤

الموردى : الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٠٦

المقريزى : الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ

اغانة الامة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٤٠

النويرى : نهاية الارب ، طبعة دار الكتب (١٤ جزءا)

طبيفا الاشرقى : كتاب الجهاد والفروسية ، مخطوط بدار الكتب

حسام الدين لاجين : كتاب الميادين ، مخطوط بدار الكتب

ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٤٨٨ وما يليها

الدكتور عبد الرحمن زكى : السلاح فى الاسلام

(١) راجع تاريخ الانكشارية فى الهلال ٤٥٨ سنة ١٧

في كل اورطة حسب العصور من ١٠٠ الى ٥٠٠ ، ويختلف عدد الاورط في الوجاق ، وعدد الوجاقات بمقتضى ذلك . واكبر ضباط الوجاق او قائدها الاكبر يسمى « آغا » ، تحته سكبان باشى ، تحته غيره فغيره ، على هذه الصورة :

قائد الوجاق ، ويقابل اللواء في هذه الايام	الآغا
ينوب عن الآغا في الأستانة، ويقابل القائم مقام اليوم	سكبان باشى
نائب الآغا او السكبان باشى	قول كخيا او كخيابك
قائد اورطة رقم ٧١	سمسونجى باشى
قائد الاورطة رقم ٦٤	زغرجى باشى
ينوب عن الانكشارية عند الصدر الاعظم	محضر آغا
ينوب عن الآغا في القيادة على الحدود	خصكى
قائد الاورطة الخامسة	باشجاويش
ينوب عن الوجاق لدى الآغا	كخيابرى
الكاتب	الافندى

ولكل اورطة ضباط يقتسمون قيادتها وادارة شؤونها على هذه الصورة :

رئيس الاورطة ، يشبه الكولونيل	١ - الجوربجى
نائب الجوربجى في المناورات العسكرية وغيرها	٢ - اوده باشى
يتولى امر الطعام والشراب	٣ - وكيل الخرج
يتولى الاعلام والبيارق	٤ - بيرقدار
يتولى قيادة القراقولات	٥ - باش اسكى
الطاهى	٦ - اشجى

قوانين الانكشارية

قد رأيت ان جند الانكشارية تشكل في زمن السلطان اورخان ، لكن الفضل الاكبر في تنظيمه وترتيبه للسلطان مراد الاول (تولى سنة ٧٦١ هـ) وهذه خلاصة قوانينهم :

- ١ - الطاعة المطلقة لقوادهم وضباطهم او من ينوب عنهم
- ٢ - الاتحاد بين سائر الفرق كأنها فرقة واحدة وتكون مساكنها متقاربة
- ٣ - التجافى عن كل ما لا يليق بالجندى الباسل من الاسراف او الانغماس، ويكون معولهم على البساطة في كل شيء

٤ - الاخلاص في الانتماء الى الحاج بكطاش من حيث الطريقة ، مع القيام بفروض الاسلام

٥ - لا يقبل في سلك الانكشارية الا الذين يشبون من غلمان الاسرى على التربية الخاصة بين الغلمان الاعاجم



ابراهيم بن محمد على في ثوبه العسكري عند اول تشكيل الجند النظامي

- ٦ - ان الحكم عليهم بالاعدام ينفذ بشكل خاص
- ٧ - يكون الترقي في المراتب على حسب الاقدمية
- ٨ - لا يجوز ان يوبخ الانكشارية ولا يعاقبهم غير ضباطهم
- ٩ - اذا عجز احدهم عن العمل يحال على المعاش
- ١٠ - لا يجوز لهم ارسال لحاهم
- ١١ - لا يجوز لهم ان يتزوجوا
- ١٢ - لا يجوز لهم الابتعاد عن ثكناتهم
- ١٣ - لا يجوز لهم ان يتعاطوا عملا غير الجندية

١٤ - يقضون أوقاتهم في الرياضة البدنية والتمرين بالحركات العسكرية
 فاذا تدبرت هذه القوانين ، هان عليك تصور الاعمال العظيمة التي اتاها
 هذا الجند في مصلحة الدولة العثمانية من الفتوح العظام . وقد يتبادر الى
 الذهن ، لأول وهلة ، ترفع الناس عن الانتظام في هذا الجند ، لانه مجموع
 لقطاع لا يعرف لاحد منهم اب ولا ام ، لكنك تفهم من البند الخامس من
 قوانينهم انهم كانوا يحظرون على غير اللقيط او المملوك الانتظام في جندهم ،
 وكان السلاطين يتوخون تعظيم هذا الامر في عيونهم

وما زال جند الانكشارية معول الدولة العثمانية في حروبها ، حتى صار
 عقبة في سبيل اعمالها لتمكنه من النفوذ . وقاسى السلاطين منه عذابا
 شديدا ، الى ان فتك به السلطان محمود الثاني في اوائل القرن الماضي ، وتم
 تشكيل الجند النظامي

ديوان الجند

تأسس ديوان الجند في المدينة ، أسسه عمر بن الخطاب ودون فيه أسماء الرجال وفرض اعطياتهم . ولم يكن هذا الديوان يومئذ يعرف بديوان الجند ، لكنه كان يسمى « الديوان » فقط . وكان يشمل أسماء المسلمين من المهاجرين والانصار ومن تابعهم ، ومقدار اعطياتهم تبعا للنسب النبوي والسابقة في الاسلام . وكان لكل مسلم راتب يتناوله لنفسه ، ورواتب لأهله واولاده . فكأنه ديوان المسلمين ، باعتبار ان المسلمين كانوا كلهم جندا في ذلك الحين . وظل العطاء باعتبار النسب والسابقة ، حتى انقرض اهل السوابق ، وصار الجند فئة من المسلمين قائمة بنفسها ، فترتب الجند باعتبار الشجاعة والبلاء في الحرب

وكان عندهم لاختيار الجند من بين الناس شروط ، منها ان من اراد الانتظام في الجندية يقدم طلبا الى صاحب ديوان الجند ، وهو ينظر في اهليته لها ، ولا يكون اهلا لذلك الا اذا كان حرا ، بالغا ، مسلما ، سليما ، مقداما . فاذا استوفى هذه الشروط قبل ، ودون اسمه في دفاتر الجيش ، مع نسبه وقده ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به عن غيره ، لئلا تتفق الاسماء

طبقات الجنود

اما ترتيب الجنود في الديوان ، فظلوا يراعون فيه ما وضعه عمر من السابقة والنسب ، فيترتب الجند اولا باعتبار القبائل والاجناس ، حتى تتميز كل قبيلة من غيرها ، وكل جنس من غيره ، فلا يخلو الجند من ان يكونوا عربا او عجماء . فان كانوا عربا تترتب قبائلهم على حسب القربى من النبي ، فيبدأ بالترتيب بأصل النسب النبوي ، ثم بما يتفرع عنه ، فالعرب مثلا عدنان وقحطان ، فيقدمون عدنان على قحطان لان النبوة فيهم . وعدنان يجمع ربيعة ومضر ، فتقدم مضر على ربيعة لان النبوة فيهم . ومضر تجمع قريشا وغير قريش ، فتقدم قريش لان النبوة فيهم . وقريش تجمع بنى هاشم وبنى امية وغيرهم ، فيقدم بنو هاشم لان النبوة فيهم . فكان بنو هاشم قطب الترتيب ، ثم من يليهم من اقرب الانساب كما تقدم . وان كانوا عجماء لا يجتمعون على نسب ، فكانوا يجمعونهم على الجنس ، كالترك والهند ، او على البلد كالخراسانيين والفراغنة والمغاربة . ثم اذا كان لهؤلاء الاعاجم

سابقة ، ترتبوا عليها في الديوان ، والا فيترتبون بالقرب من ولى الامر . فان تساوا في ذلك ، ترتبوا بالسبق الى طاعته . وكان لديوان الجند فروع ، بعضها للمراسلة وبعضها للعطاء وبعضها للنفقات ، او لغير ذلك مما يختلف باختلاف الاحوال والازمان

اعطيات الجند

في دولة الراشدين

ويراد بأعطيات الجند رواتبهم التي يستولون عليها في اوقات معينة من العام . وكانت تلك الاعطيات في ايام النبي غير محدودة ، فتتبع ما يقع في ايديهم من الغنائم او الفىء . فكان يفرد خمسة لله ، ويتولى رسول الله انفاقه في مصالح الجماعة الاسلامية حسبما يرى ، ويفرق الاربعة الاخماس الباقية في الصحابة على السواء ، بلا تمييز في السابقة او النسب . وجرى على ذلك ابو بكر . فلما تولى عمر ووضع الديوان ، ميز الناس في العطاء باعتبار النسب والسابقة ، فرتبهم طبقات . وقد ميز راتب كل منهم باعتبار نسبه من النبي ، او سابقته في الاسلام ، او غير ذلك على ما تراه في هذه الجريدة ، وهى عبارة عن رواتب الجند السنوية في صدر الاسلام :

درهم	لكل من المهاجرين والانصار الذين شهدوا واقعة بدر الكبرى
٥٠٠٠	لكل من المهاجرين والانصار الذين لم يشهدوا بدرا
٤٠٠٠	لكل من ازواج النبي
١٢ر٠٠٠	العباس عم النبي
١٢ر٠٠٠	الحسن والحسين
٥٠٠٠	عبد الله بن عمر بن الخطاب بن الخليفة
٣٠٠٠	كل من ابناء المهاجرين والانصار
٢٠٠٠	كل واحد من اهل مكة
٨٠٠	كل واحد من سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم
٥٠٠-٣٠٠	لكل من نساء المهاجرين والانصار
٦٠٠-٢٠٠	

تلك هى اعطيات المسلمين ، او رواتب الجند - على عهد عمر - مع اختلاف طفيف ببعض الروايات (١) . فاذا اعتبرت مقادير هذه الرواتب وقابلتها برواتب هذه الايام ، رايت الفرق عظيما . فاذا قدرنا الدرهم بأربعة

(١) القرينى ٩٢ - ١ ، الاحكام السلطانية ١٨٩

قروش ونصف القرش - وهى قيمته على وجه التقريب - كان راتب اعظم رجال الاسلام لايزيد على خمسة آلاف درهم ، اى نحو مائتى جنيه فى السنة . واذا اعتبرنا المسلمين كلهم جندا ، كان المهاجرون والانصار ضباط ذلك الجند ومنهم عمر نفسه . واما الجنود فهم الذين عبرنا عنهم « بسائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم » . ورواتب هؤلاء اقل كثيرا من رواتب اولئك ، فانها تختلف من ثلاثمائة الى خمسمائة درهم ، باختلاف بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ومقدار فضلها فى الاسلام . وبناء عليه تكون رواتب ضباط الجند الاسلامى - على عهد عمر - من اربعة آلاف الى خمسة آلاف درهم فى العام ، ورواتب العساكر من ثلاثمائة الى خمسمائة درهم ، غير ما كان يدفع لنسائهم واولادهم ، وما فرض لهم من الخنطة ، وهو جريبان لكل واحد فى الشهر ، والجريب ٣٦٠ ذراع مربع ، ويراد به ما ينبت فى تلك المساحة . وخلاصة ذلك ان رواتب صفار الجند فى اوائل الاسلام كانت تزيد على رواتب انفار جنود هذه الايام ، وبعكس ذلك رواتب ضباطهم

اعطيات الجند فى الدولة الاموية

وظلت اعطيات الجند على هذا القدر فى ايام الراشدين ، فلما طمع بنو امية فى الملك واحتاج معاوية الى الاعتزاز بالعرب ، كان فى جملة ما استخدمه فى سبيل اجتذابهم الى جانبه المال ، فزاد اعطيات الجند . وكان جنده ستين الفا ، ينفق عليهم ستين مليون درهم فى العام ، فيلحق كل رجل الف درهم ، وذلك اكثر من ضعفى ما فرضه عمر

وكان فى مقدمة القبائل التى اخذت بيده وحاربت عنه وايدت دعوته قبائل اليمن ، وهى انما فعلت ذلك رغبة فى العطاء (*) لانه كان يحارب بهم عربا آخرين ، فلم يكن الجهاد دافعهم الى الانضمام اليه . فجعل معاوية اليمنية فرقة قائمة بنفسها وعدتهم الفا فارس ، وفرض لهم عطاء مضاعفا ، وجعلهم جندا مستقلا لا يختلطون بسواهم ، وكان يستشير امراءهم ويقربهم . فاستفحل امر اليمنية حتى عرضوا بذكر فضلهم على دولة بنى امية ، وانهم لو شاءوا لخرجوا المضرية من الشام (وفيهم بنو امية) فندم معاوية على اختصاصهم بذلك الامتياز ، وقرب منه القيسية واعطاهم مثل عطائهم ، وصار يفتزو البحر باليمنية والبر بالقيسية . فشق ذلك على اليمنية ، لان القيسية من مضر ، فعاتبوه فجمع بين القبيلتين واغزاهم معا

(*) لم يكن الطمع فى العطاء هو الدافع الوحيد لليمنيين على الانضمام لمعاوية ، بل كانت هناك اسباب اخرى

ولم يكن معاوية يعتمد على المال في استرضاء الجند فقط ، بل كان يستخدمه في اصطناع الاحزاب وتخفيف ويلات المتعصبين عليه ، فكان كثيرا ما يامر عماله بزيادة اعطيات اناس يعرف انهم على غرض على . وكان عماله لا ينفذون اوامره لقصور ادراكهم عن غرضه ، ومن هذا القبيل ان اهل الكوفة كانوا من اشد الناس تعصبا لعلي ، فامر معاوية عامله عليها - النعمان بن بشير - ان يزيد في اعطيات اهلها عشرة دنانير ، فأبى النعمان ان ينفذها لهم فلم ينفعه ذلك

وظل هذا شأن العطاء ايام يزيد ومروان وعبد الملك ، وكان عبد الملك يبالي في الانفاق ، تأييدا لاحزابه في مقاومة دعاة الخلافة في ايامه . فان الحجاج سير الجند الى رتبيل باذن عبد الملك ، وكان عددهم اربعين الفا انفق عليهم مليوني درهم سوى اعطياتهم ، فضلا عما اعطاه لكبارهم . ولما تولى الوليد ابن يزيد زاد العطاء عشرة دراهم يوم خلافته ، ولعله فعل ذلك ارضاء للجند ، لما كان هو فيه من الاعوجاج والاسراف . وفي اواخر دولة بني امية قلت الرواتب ، حتى صارت في آخرها خمسمائة درهم

اعطيات الجند في الدولة العباسية

فلما آلت الخلافة الى بني العباس جعل السفاح رزق الجندي ثمانين درهما في الشهر (٩٦٠ درهما في السنة) فكانه ارجعه الى ما كان عليه في اوائل بني امية ، وكان للفارس ضعفا هذا الراتب لينفق نصفه على فرسه . ويظهر ان الرواتب لم ترتفع بارتقاء الدولة العباسية بل هي اخذت في التناقص ، فصارت في ايام المأمون عشرين درهما في الشهر للراجل واربعين للراكب . فكان جيش عيسى بن محمد بن ابي خالد عام ٢٠١ هـ ١٢٥ الف فارس ، فأعطى الفارس اربعين درهما والراجل عشرين . وزد على ذلك ان قيمة الذهب كانت قد ارتفعت عما كانت عليه في اوائل الاسلام ، وكان الدينار في ايام عمر يساوي عشرة دراهم فأصبح في ايام المأمون يساوي ١٥ درهما

فرايت مما تقدم ان الرواتب زادت في دولة بني امية عما كانت عليه في ايام الراشدين ، ثم نقصت في ايام بني العباس . والسبب في ذلك ان بني امية زادوها ترغيبا لقبائل العرب في خدمتهم ، لتأييد سلطانهم كما تقدم . واما في ايام بني العباس فكان العرب قد انتشروا في انحاء البلاد واختلطوا بالاعاجم ، وعمل العباسيون على الاستكثار من هؤلاء لانهم ساعدوهم على انشاء دولتهم ، فأصبحت الدولة العباسية مخيرة في استخدام من شاءت من الفئتين في جندها . وكان الاعاجم يرضون بالراتب القليل ، ومع ذلك فهو اضعاف ما كان يدفعه الروم لجندهم اذا صح ما نقله ابن خرداذبه ، فقد ذكر ان راتب الجندي عندهم كان يختلف من ١٨ الى ١٢ ديناراً في السنة ، وكانوا لا يستولون على

رواتبهم الا كل ثلاث سنوات او اربع ، واما رواتب جند العرب فقد كانت تدفع في اوقاتها ، الا في اواخر الدولة العباسية فقد كانت تتأخر وتتراكم ، ويفوز بالخلافة من يتمكن من ارضاء الجند ، شأن الدول في دور انحطاطها

مطاء الجند في الدولة التركية

وما زال العطاء يدفع نقدا الى ايام الدولة السلجوقية ، فصار يعطى اقطاعا . وأول من فعل ذلك نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق (توفي سنة ٤٨٥ هـ) وكان رجلا عظيما وزر للدولة السلجوقية وادخل فيها اصلاحات جمعة . وهو اول من انشأ المدارس في بغداد ، وله فيها المدرسة التي تعرف باسمه (المدرسة النظامية) . وكان وزيرا لآلب ارسلان ثم لابنه ملك شاه المشهور ، فصار امر الدولة كله لنظام الملك وليس للسلطان الا التخت والصيد . فأقام على ذلك عشرين سنة ، وكان عاقلا حسن القصد ، ورأى الدولة السلجوقية قد اتسع نطاقها فأحب ان يحفظها بالاقطاع ، فحولها الى اقطاعات سلمها الى الجند ، لاعتقاده ان تسليم الأرض الى المقطعين يضمن عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها ، بخلاف ما اذا شمل جميع اعمال المملكة ديوان واحد ، فان الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد . ففعل نظام الملك ذلك ، وعمرت المملكة وكثرت الفلات ، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك والسلاطين ، الى اوائل القرن الماضي

واختلفت غلات الامراء من اقطاعاتهم ، فقد بلغت غلة اقطاع بعض اكابر امراء المؤمنين في دولة المماليك نحو ٢٠٠٠٠٠٠ ، ويليهم من غلتهم نصف ذلك او ربه . واما امراء العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار ، الى ما دون ذلك . اما جند الخليفة فمنهم من يبلغ اقطاعه ١٥٠٠ دينار وما دون ذلك الى ٢٥٠ دينار (١) . وسيأتى الكلام في الاقطاع

عدد الجند

قلنا ان المسلمين كانوا في صدر الاسلام كلهم جندا ، فعددهم يومئذ هو عدد الجند الاسلامي . فالجند كانوا في السنة الاولى للهجرة لا يزيد على بضع عشرات يقيمون في المدينة ، ثم ازدادوا بمن اعتنق الاسلام من قبائل العرب . وفي حديث اخرجه البخاري ان النبي قال : « اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام فكتبنا له الفا وخمسمائة »

وفي غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة - وهي آخر الغزوات - بلغ عدد المسلمين ثلاثين الفا ، ومعهم عشرة آلاف فرس . فذلك عدد جند العرب

(١) السيوطي ٢١٠ - ٢

في اواخر ايام النبي ، ثم تزايد عددهم في ايام ابي بكر وعمر ، حتى زادوا على مائة وخمسين الفا . وتضاعف ذلك العدد في اواخر ايام الراشدين وفي اوائل بني امية بلغ عدد من في البصرة والكوفة من الرجال فقط ١٤٠٠٠٠ ، منهم ٨٠ الفا في البصرة و ٦٠ الفا في الكوفة ، ومعهم من العيال ٢٠٠٠٠٠٠ بين نساء واولاد . وكان في مصر اربعون الفا ما عدا العيال . وكان جند الشام نحو ذلك ، غير من في فارس وغيرها

الاحصاء في الاسلام

وكان للخلفاء في صدر الاسلام عناية في احصاء المسلمين اقتداء بما فعله النبي ، فجعلوا على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : « هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ؟ » فيقال : « ولد لفلان غلام ، ولفلان جارية » فيكتب اسماءهم . ويقال : « نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله » ويسميه وبياله . فاذا فرغ من ذلك عاد الى الديوان واثبت الاسماء فيه

وكانوا يجددون التدوين (الاحصاء) كل مدة في كل ولاية على حدة ، واول تدوين في مصر مثلا دونه عمرو بن العاص ، ثم دون عبد العزيز بن مروان (تولى اماره مصر من سنة ٦٥ - ٨٦ هـ) ، ثم دون قره بن شريك (سنة ٩٠ - ٩٦ هـ) ، ثم بشر بن صفوان (سنة ١٠١ هـ) ، وآخر احصاء احصوا به العرب في الامصار على ما تقدم كان في خلافة هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ - ١٢٧ هـ) ، ولكن تلك الاحصاءات لم تصل الينا ، فقد ضاعت في جملة ما ضاع من آثار بني امية

فلما تولوها بنو العباس اهملوا امر العرب ، وبذلوا عنايتهم في اصطناع الاعاجم من الفرس والترک وغيرهما كما قدمنا . حتى اذا بويع المعتصم بالله سنة ٢١٨ هـ بعث الى عماله في الامصار ان يسقطوا من في دواوينهم من العرب ويقطعوا العطاء عنهم . فشق ذلك على العرب وثاروا ، ولكنهم لم ينالوا وطرا . فانقضت دولة العرب من ذلك الحين ، وصار جند الدولة العجم والموالي . ولذلك لما مات المعتصم وتولى بعده الواثق ، كان دعبل الخزاعي الشاعر المشهور في الصميرة ، فلما جاءه نعي المعتصم وقيام الواثق انشد هذين البيتين :

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء اذا اهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له احد وآخر قام لم يفرح به احد

واما عدد الجند في اثناء دولة بني امية وبني العباس فمما لا يتيسر الوقوف عليه ، لكننا نستدل من عدد ما كانوا يجندونه الى

الحرب انه كان كثيرا . فلما حمل يزيد بن المهلب على جرجان وطبرستان جرد اليهما ١٢٠٠٠٠ من الجند المرتزقة ، سوى الموالى والمتطوعة . وحمل الرشيد على هرقله بجند عدده ١٣٥٠٠٠ من المرتزقة ، ما عدا الاتباع والمتطوعة . وكان جند محمد بن طعج مؤسس الدولة الاخشيدية بمصر (سنة ٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) ٤٠٠٠٠٠ جندي وثمانية آلاف مملوك ، يحرسه منهم الفان كل ليلة على التناوب . وروى ابن خلدون ان المعتصم نازل عمورية في جند عدده ٩٠٠٠٠٠ (*) ، ولا غرابة في ذلك اذا اعتبرنا عدد الحامية في الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا ، فضلا عن المصطنعين والموالى والخاصة ، فقد احصيت خاصة المأمون من بنى العباس وحدهم فبلغوا ٣٣ الفا

رتب الجند واصنافهم

لم يكن للعرب في الجاهلية جند ، فلم تكن له عندهم رتب . ولكنهم كانوا يواون على القبيلة اكبر رجالها سنا او اعظمهم حسبا ، ويسمونه الشيخ او الامير . فاذا احتاج الامير الى من ينوب عنه على فصيلة يرسلها الى غزو او نحوه ، ولى رجلا كانوا يسمونه المنكب ، وتحت المنكب العريف . والمنكب يكون على خمسة عرفاء ، والعريف يكون على نفيروا نفر

وظل العرب في اوائل الاسلام على نحو ما كانوا عليه في الجاهلية ، فقسموا الجند الى عرفاء ، تحت كل عريف عشرة رجال ، وسلموا القيادة الى اناس من اهل السابقة ، وكذلك كان نظامهم في اثناء الفتوح . ثم جعلت العرفاء اسبعا ، وجعلوا مائة عريف بعضهم على ثلاثين او اربعين رجلا ، وبعضهم على عشرين على حسب طبقات الجند من حيث السابقة ونحوها . وكان على العرفاء امراء يقال لهم امراء الاسباع ، يتولون تفريق العطاء في العرفاء ، والعرفاء يفرقونه في الجند

وقلما حدث تغير في رتب الجند في ايام بنى امية . اما في الدولة العباسية فكانت رتب الجند ان على كل عشرة رجال « عريفا » ، وعلى كل خمسين « خليفة » ، وعلى كل مائة « قائد » . ثم تنوع الترتيب فصار العريف على عشرة ، وعلى كل عشرة عرفاء (او مائة نفر) « نقيب » ، وعلى كل عشرة نقباء (او ١٠٠٠ رجل) « امير » . ولا يخلو الامر من وقوع التبديل في هذا النظام بالنظر الى الدول (**)

ولا بد من ان يكون لكل رتبة علامة تميزها عن سواها ، كما يتميز الضباط

(*) هذا الرقم مبالغ فيه ، وقد اخذه المؤلف من السيوطي . راجع عن هذه المعركة : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، طبعة المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٣٥٧ ، ج ٥ ص ٢٤٧ وما يليها وابن طباطبا : الفخرى في الاداب السلطانية ، ص ٢٠٤

(**) انظر المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٠٧ - ٢٠٨

اليوم بعضهم عن بعض وعن العساكر ، لكننا لم نعر على شيء صريح بهذا الشأن . وقد تقدم لنا كلام بهذا الموضوع في بحثنا عن الطراز ، ومن هذا القبيل ما كانوا يسمون به الخيل لتمتاز خيول الدولة عن سواها ، وكان لكل دولة سمة خاصة . وسمة خيل بنى أمية لفظ (عدة) كانوا يطبعونها على الخيول كيا بالنار ، كما كان العرب يفعلون بابلهم في عصور جاهليتهم ، فقد كان عندهم لكل قبيلة ميسم يميز ابلها عن ابل غيرها ، ووسم الدواب شائع في الدول المتمدنة اليوم

استعراض الجند

استعراض الجند قديم في الدول المتمدنة قبل الاسلام : كان الاسكندر يعرض جنده بنفسه ويتفقدهم ويتفقد سلاحهم وخيولهم . ولما ظهر الاسلام كان الفرس يعرضون جنودهم في مواقيت معينة من السنة ، وكان رسمهم في ذلك ان يمر الفارس الذي هو في الطبقة الاولى على حصانه ، ومعه الغلام والدرع والمفر والقفوف الزرد والرانات والتجانيف للخيول ويسمى بركستوان والترس والرمح والسيف والدبوس والسكين الكبيرة والحبل والمخالي والسكك الحديد والمقاود وكبة خيوط ومخصف ومقص ومطرقة وكاز ومسل وابر وخيوط وزناد وطرطور ولباد وقوسان موتوران ووتران زائدان خوف الانقطاع وجعبتان للنشاب احدهما معه والاخرى مع غلامه

ولما تمدن العرب وجندوا الجنود اتخذوا هذه العادة على نحو ما كانت عند الفرس ، لكن يظهر انهم كانوا يستعرضون رجالهم قبل تمصير الامصار وتجنيد الجنود ، فان النبي نفسه كان يستعرض اصحابه . وقد جاء في السير انه استعرضهم يوم بدر الكبرى (سنة ٢ هـ) فجعلهم صفوفًا ، واخذ يعدل صفوفهم وفي يده سهم بلا ريش ، فمر برجل اسمه سواد كان مستثلا من الصف فطعنه النبي في بطنه وقال له : « استو ياسواد بن غزبة » وبعد ان عدل الصفوف عاد الى العريش الذي كانوا نصبوه له هناك (١)

وكان الخلفاء الراشدون يعرضون الجند على نحو ذلك ، ثم بنو أمية . وكان الحجاج اذا عرض الجند يسأل عن رجل رجل من هو ، وماهى قبيلته ، وعن حاله وسلاحه

وكان الاستعراض في الدولة العباسية اقرب الى عادة الفرس ، لان العباسيين اقتبسوه منهم . فكان الخليفة ، او وزيره ، يجلس لعرض الجند . وربما جلس الخليفة وعليه الدرع والخوذة كأنه في استعداد للحرب ، فينادى المنادى بأسماء القواد فيمرون اولًا ، فيتفقد افراسهم وعدتهم ، فاذا رأى كل شيء

(١) السيرة الحلبية ١٧٩ - ٢

حسنا تماما صرف لهم ارزاقهم ، وهى جائزة يمنحونها يوم العرض .
وقد يستنكف القائد الكبير ان ينتفع بتلك الجائزة فيهبها لبعض اتباعه
ومن امثلة ذلك ما كان يفعله عمرو بن الليث على عهد الخليفة المعتمد
(سنة ٢٧١ هـ) فانه نال حظوة لدى الخليفة ، وتمكن من قوانين المملكة ،
وتولى النظر فى الجند ، وكان ينفق لهم مرة كل ثلاثة اشهر ويحضر بنفسه على
ذلك . وكان عارض الجيش يقعد والاموال بين يديه والجند كلهم حاضرون ،
وينادى المنادى اولا باسم عمرو بن الليث ، فتقدم دابته الى العارض بجميع
آلة الفارس ، فيفتقدها ويأمرون بوزن ثلاثمائة درهم باسم عمرو فتحمل اليه
فى صرة ، فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول : « الحمد لله الذى وفقنى لطاعة امير
المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق » ، ثم يضعها فى خفه فتكون لمن ينزع خفه
ثم يدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم ، فيتعرض لآلاتهم التامة
ولدوابهم الفره ، ويطالبون بجميع ما يحتاج اليه الفارس والراجل من صغير
آلة وكبيرها ، فمن اخل باحضار شىء منها حرموه رزقه . فاعترض يوما
فارس كانت له دابة فى غاية الهزال فقال له عمرو : « يا هذا ! تأخذ مالنا
تنفقه على امراتك فتسمنها وتهزل دابتك التى عليها تحارب وبها تجد
الارزاق ؟ امض فليس لك عندى شىء ! »

فقال له الجندى : « جعلت لك الفداء . . لو اعترضت امرأتى لاستسمنت
دابتى ! »

فضحك عمرو وأمر باعطائه وقال : « استبدل بدابتك »

مساكن الجند

كان المسلمون فى صدر الاسلام (وهم الجند) اذا فتحوا بلدا جعلوا
مساكنهم فى بعض ضواحيه ، وكانوا لا يقيمون فى مكان بينه وبين المدينة بحر
او نهر ، عملا بوصية عمر بن الخطاب كما تقدم . ولذلك لم يقيم جند مصر فى
الاسكندرية عاصمة الديار المصرية ، بل اقاموا فى الخيام قرب حصن بابل ،
فى بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط . ولم يقيم جند العراق فى المدائن عاصمة
كسرى ، بل اقاموا على ضفاف الفرات مما يلى بادية الشام ، فى البصرة
والكوفة . وفعل ذلك غيرهم فى سائر الاقاليم التى فتحت فى صدر الاسلام ،
فاقاموا فى ضواحي البلاد المفتوحة لمجرد حمايتها كما قدمنا فى كلامنا عن ولاية
الاعمال . ولكنهم كانوا ينتقلون للحرب يومئذ بنسائهم واولادهم ، فاذا فتحوا
بلدا اقاموا فيه جميعا . فأصبحت تلك المعسكرات بتوالى الاجيال مدنا عامرة
ولما تمدن العرب صاروا يذهبون الى الحرب دون نسائهم ، ولكنهم ظلوا على انشاء
المعسكرات خارج المدن . وكثيرا ما كانت هذه المعسكرات تتحول الى مدن

بتوالي الاجيال ، كما حصل في الفسطاط والكوفة والبصرة : كانت الفسطاط مضرب خيام حول فسطاط عمرو بن العاص ، ثم عمرت وصارت مدينة سميت الفسطاط . وبعد عمرانها بقرن وبعض القرن ، لما قام العباسيون للمطالبة بالخلافة ، فر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ولجأ الى مصر ، فتعقبه العباسيون بقيادة صالح بن علي وعسكروا بضواحي الفسطاط وسموا مقامهم « العسكر » أي المعسكر ، ثم بنى الناس هناك وصار المكان مدينة مثل الفسطاط اسمها العسكر

وبعد ذلك بقرن وبعض القرن سنة ٢٥٧ هـ تولى مصر أحمد بن طولون وأكثر من الجند والحاشية والآلات ، فضاقت الفسطاط دونه ، فأنشأ معسكرا بجوار جبل المقطم ، وبنى لنفسه فيه قصرا وميدانا ، وتقدم الى غلمانه واتباعه أن يبنوا ، فبنوا حتى اتصل البناء بالفسطاط وصار المكان مدينة سميت القطائع . وفعل مثل ذلك جوهر قائد الفاطميين ، لما جاء لفتح مصر بعد قرن وبعض القرن سنة ٣٦٥ هـ فانه أنزل جنده بسفح المقطم خارج القطائع والفسطاط ، ولما فتح البلاد أنشأ في ذلك المعسكر مدينة القاهرة الباقية الى الآن . ويقال نحو ذلك في سائر المدن الاسلامية ، فان المنصور انما بنى بغداد حصنا له ولجنده ، وكذلك فعل ابنه المهدي ببناء العسكر خارجها

وقس عليه غيره من المعسكرات الاسلامية ، فانهم كانوا ينشئونها خارج المدن بعيدا عن بيوت الناس . ولذلك لما أنزل الحجاج جنده في بيوت أهل الكوفة ، بعد واقعة الجمام ، نقم عليه أهلها وعدوا ذلك عتوا منه ، وخصوصا لان الامراء الذين جاءوا بعده كانوا كثيرا ما يعملون عمله

اللواء أو الراية

تاريخ الالوية

اللواء والراية شيء واحد ، وربما كان اللواء أصغر من الراية ، أو ان الراية تسمى لواء اذا عقدت للحرب . وهي الاعلام ، أو البنود ، أو البيارق في اصطلاح هذه الايام . والراية قديمة في التاريخ ، اتخذها المصريون القدماء ومن عاصرهم أو أخذ عنهم . وكانت شائعة في العرب الجاهلية قبيل الاسلام ، وكان لكل قبيلة راية تجتمع تحتها

وللراية شأن كبير في الحرب ، لان الناس انما يؤتون من قبل راياتهم : اذا زالت زالوا . وقد رايت ، في كلامنا عن حكومة الجاهلية ، انه كان في جملة مناصب قريش منصب اللواء ، ويسمونه « العقاب » باسم رايتهم يومئذ . وكانوا اذا خرجوا الى حرب أخرجوا الراية ، فاذا اجتمع رأيهم على أحد سلموه اياها ، والا فانهم يسلمونها الى صاحبها ، وكان مرة من بني أمية ومرة

من بنى عبد الدار . ولعلمهم سموا رايتهم « العقاب » اقتباسا من الروم ، لان العقاب او النسرشارة الرومان ، يرسمونها على اعلامهم وينقشونها على ابنتهم ، فاقتبسها العرب منهم

وفي السيرة الحلبية ان المسلمين في غزوة بدر الكبرى كانت لهم ثلاث رايات : احداها بيضاء دفعها النبي الى مصعب بن عمير ، والاخرى سوداوان احداهما حملها على بن ابي طالب ، ويقال لها العقاب صنعت من مرط لعائشة (والمرط كساء من صوف او خز تضعه المرأة على رأسها او تاتزر به) والاخرى مع رجل من الانصار . وان ابا سفيان كان يحمل راية الرؤساء في تلك الواقعة ، واسمها ايضا راية العقاب . فالظاهر ان العقاب كان اسما لصنف من الرايات ، فقلدوا الروم بها وليس اسم واحدة منها

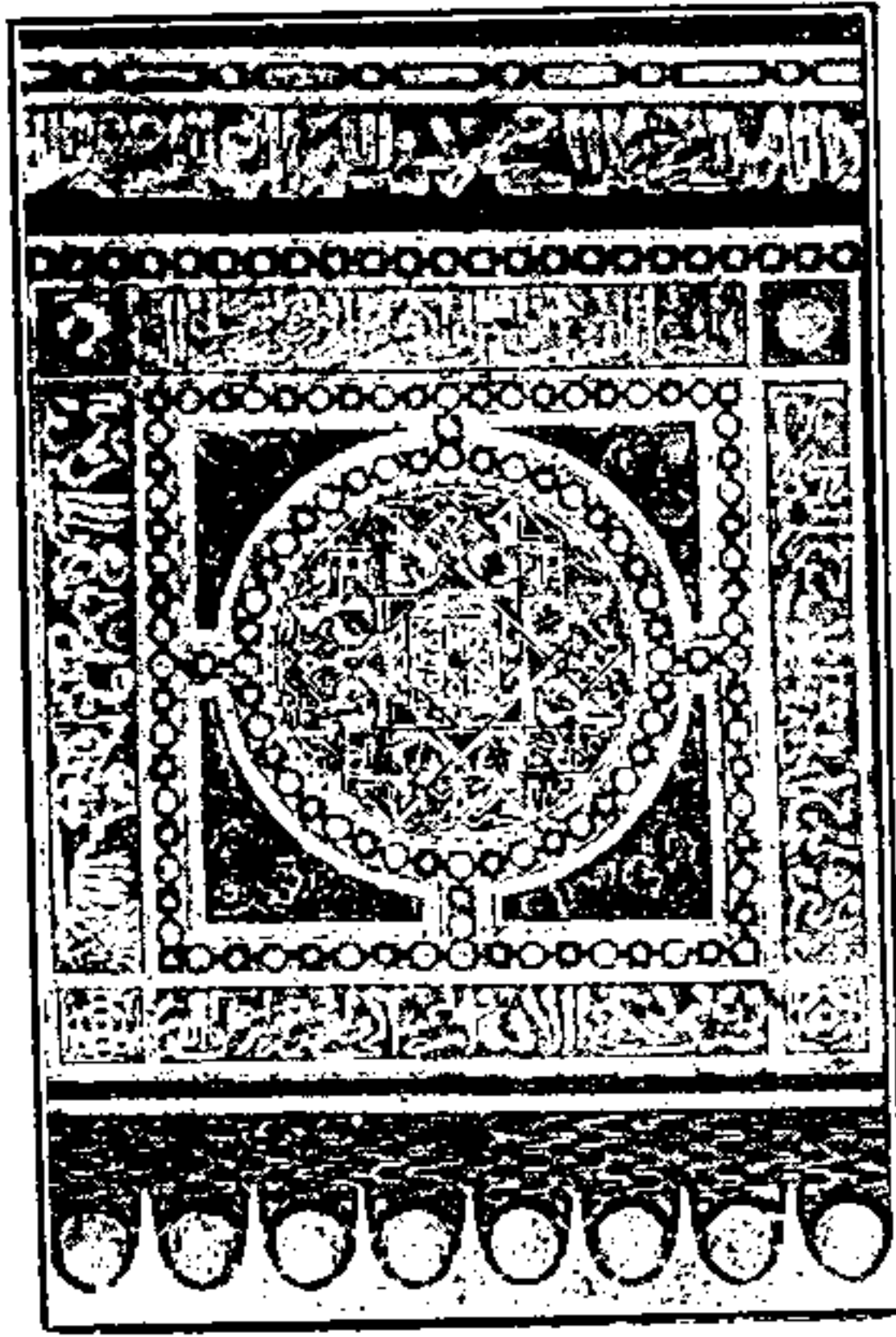
ولما جاء الاسلام ، وانتشر العرب في انحاء الشام وفارس ومصر ، وتعددت دولهم وقبائلهم ، كثرت ضروب الالوية عندهم ، وتنوعت اشكالها وتعددت الوانها واطالوها ، وسموها بأسماء مختلفة : عقد ابو مسلم الخراساني عند قيامه بالدعوة العباسية لواء بعث به اليه ابراهيم الامام يدعى « الظل » على رمح طوله اربعة عشر ذراعا ، وعقد راية كان قد بعث بها اليه اسمها « السحاب » على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا ارهابا للناس . ولما عقد المتوكل البيعة لبيته سنة ٢٣٥ هـ عقد لكل واحد منهم لواءين احدهما اسود وهو لواء العهد والآخر ابيض وهو لواء العمل . ولما ولي المأمون الفضل ابن سهل على المشرق كله وسلم اليه رئاسة الحرب والقلم وسماه ذا الرئاستين عقد له لواء على سنان ذي شعبتين . وجملة القول ان اشكال الالوية تعددت بتوالي الازمان وتفاخر الخلفاء والسلاطين بتعدادها ، فقد بلغ عدد رايات العزيز بالله الفاطمي لما خرج الى فتح الشام ٥٠٠ راية و ٥٠٠ بوق . وربما نقشوا على الرايات اسماء الخلفاء او السلاطين او الامراء الذين يتولون قيادة الجند ، كما كتب ابن بجكم على رايته « الرائقى » نسبة الى ابن رائق

الوان الرايات

لا نعرف ماذا كانت ألوان الرايات في الجاهلية سوى راية « العقاب » ، فقد تقدم انها كانت سوداء ، وكذلك كانت راية النبي . وذكر صاحب « آثار الاول » انه كانت له ايضا الوية بيضاء . اما الرايات الاسلامية ، فقد كانت الوانها تختلف باختلاف الدول ، فكانت اعلام بنى امية حمراء . وكل من دعا الى الدولة العلوية فعلمه ابيض ، ومن دعا الى بنى العباس فعلمه اسود . والسواد شعار العباسيين على الاطلاق ، اتخذوه حزنا على شهدائهم من بنى هاشم ونعيا على بنى امية في قتلهم ، ولهذا سموا المسودة . ولما افترق الهاشميون وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ،

ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك ، فاتخذوا الرايات بيضاء وسموا البيضة .
والظاهر ان شعار دعاة بني هاشم من الشيعة كان الخضرة ، لان المأمون
لما بايع لعلى بن موسى بولاية العهد أمر جنده بطرح السواد ولبس الثياب
الخضر ، حتى اذا رجع عن البيعة عاد الى السواد

وأما ملوك البربر في المغرب ، من صنهاجة وغيرها ، فلم يختصوا في راياتهم
بلون واحد بل وشوها بالذهب ، واتخذوها من الحرير الخالص ملونة (*) .
وفي دير بظاهر مدينة برغوس في الاندلس راية من الحرير الاحمر المطرز
بالنقوش الجميلة ، وعليها كتابات كثيرة وآيات قرآنية . وقد نشرها غستاف



راية الناصر الموحدى في موقعة العقاب

لوبيون في كتابه « تاريخ تمدن العرب » وسمائها : راية الموحدين ، لكن صديقنا
المأسوف عليه روى بك الخالدى بعث الينا بنسخة من صورة هذه الراية
سنة ١٩٠٧ وقال في جملة وصفها : « وأظن هذه الراية كانت بابا لخيمة
المنصور ، لانها أشبه بباب الخيمة منها بالراية » (**)

(*) لم يعرف هذا الطراز من الرايات الا عند الموحدين ، أما رايات المرابطين فكانت ذات
الوان بسيطة دون زينة . وراية الناصر الموحدى المشار اليها هنا محفوظة اليوم في المتحف الحربى
في مدريد ، وقد نشرت صورتها بألوانها الطبيعية في أكثر من مرجع وخاصة

R. Ballesteros, Historia de Espana II p. 272

(**) لم تكن هذه الراية - كما يتضح من الهامش السابق - راية المنصور الموحدى ، بل راية
رابع خلفاء الموحدين محمد المعروف بالناصر وقد وقعت في يد الفونسو الثامن فيما وقع في يده
من غنائم جيش الموحدين بعد انهزامهم في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ وهذه الراية محفوظة
اليوم بالمتحف الحربى في مدريد

وأما دول الأتراك في المشرق فكانوا يتخذون راية واحدة للسلطان ، في رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر وهي شعار السلطان عندهم . ثم تعددت الرايات ، ويسمونها سناجق وأحدها سنجق وهو الراية في لسانهم ، والراية العثمانية حمراء عليها صورة الهلال . واختلفوا في أصل هذه الشارة بين أن يكون الأتراك اقتبسوها من الروم بعد فتح القسطنطينية ، أو أنهم جاءوا بها من بلادهم من تركستان

عقد اللواء

كان الخلفاء في صدر الإسلام إذا وجهوا جيشا إلى حرب عقدوا له الألوية وسلموها إلى الأمراء ، لكل أمير راية قبيلته ، ويدعون لهم بالنصر ويوصونهم بالصبر والجلاد . وكان عمر بن الخطاب إذا عقد لواء يقول وهو يعقده : «بسم الله وبالله وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ولزوم الحق والصبر . فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارات » (*)

وكان لكل خليفة أسلوب في الدعاء والوصاية ، والمرجع واحد فيها كلها . وكانوا يعقدون الألوية أيضا للعمال إذا ولوهم الأمصار ، وخصوصا في أوائل الإسلام ، لأن العامل كان قائد الجند . وكانوا يعقدونها على حساب النجوم ، فيختارون أحد الاقترانات على زعمهم . وكان العباسيون إذا عقدوا لواء لقائد أو صاحب جند أو صاحب ثغر ، خرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو من داره ، في موكب من أصحاب الرايات والطبول ، حتى لا يميز بين موكب العامل وموكب الخليفة إلا بكثرة الألوية وقتلها ، أو بما اختص به الخليفة من الألوان لراياته

وكان للدولة الفاطمية بمصر دار يقال لها «خزانة البنود» كانوا يختزنون فيها الاعلام والرايات والدرق ، وكانوا ينفقون عليها ٨٠ الف دينار كل سنة ، ظلوا على ذلك قرنا كاملا . وكل ما صنع من الاعلام بقي متراكما فيها وسعه الاسلحة بأنواعها ، والسروج واللجم ، وفيها المفضض والمذهب . ثم احترقت الخزانة فاحترق كل ما كان فيها من هذه الامتعة والآلات ، وكان يقدر بثمانية

(*) كانت هذه أيضا وصية أبي بكر لجنود المسلمين قبل صدورهم إلى الفتوح

ملايين دينار ، ولم يستطيعوا اخراج غير القليل منها ، وفي جملة ذلك لواء كانوا يسمونه « لواء الحمد » (*)

الموسيقى

واتخاذ الموسيقى في الجند قديم ، والاصل في اتخاذه اثاره حاسات الجند في اثناء الحرب ، او صرف اذهانهم عن الاشتغال بالاطار التي يتوقعونها . ومن هذا القبيل الغناء او النشيد امام الجند ، فانه من قبيل الموسيقى وكان العرب في جاهليتهم لا يعرفون من هذه الآلات غير الطبل . وكان المسلمون في صدر الاسلام يتجافون عن اتخاذ الابواق والطبول ، تنزها عن غلظة الملك ورفضاً لحواله . فلما انقلبت الخلافة ملكا ، وتبجحوا في زهرة الدنيا ، ولا بسهم الموالي من الفرس والروم واهل الدول السالفة ، وأروهم ما كان أولئك يتحلون به من مذاهب البذخ والترف ، كان في جملة ما اقتبسوه منهم الموسيقى . وأذنوا لعمالهم في اتخاذه تنويها بالملك واهله ، ثم جعلوا يستكثرون منها . وهي مقصورة على الطبل والبوق ، وربما كان في الجند مئات من الابواق والطبول

السلاح

اشهر أسلحة العرب في جاهليتهم السيف والرمح والقوس والترس ، وكانت لهم عناية كبرى في استخدامها ، لانهم كانوا يحمون بها اعراضهم ويستجلبون بها معاشهم ، وخصوصا القوس

القوس

كان لهم بالقوس مهارة عظيمة ، لحدة ابصارهم نتيجة لسكنى البادية ولانهم احوج اليها من سائر الاسلحة . فقد كانوا يستخدمونها في صيد الغزلان ، فضلا عن الحرب والطعان . وبلغ من مهارتهم في النزع بالقوس ما يكاد يفوق طور التصديق ، حتى لو اراد احدهم ان يرمى احدى عيني غزال دون العين الاخرى لرمائها ، ولذلك سموا مهرة الرمي «رماة الحدق» وكان احدهم يعلق ضبا بشجرة ، ثم يرميه بالنبال فيصيب اى عضو شاء من اعضائه ، حتى يرمى فقراته فقرة فقرة فلا يخطيء واحدة منها (١)

فلما جاء الاسلام كانت مهارتهم هذه من جملة ما ساعدهم على غلبة الروم لان هؤلاء لم يكونوا يحسنون رميها ، وقد بينا ذلك في كلامنا عن الفتوح الاسلامية . ولم يكن قواد المسلمين يجهلون فضل النبال في نصرتهم ، فكانوا يحرضون رجالهم على اتقان الرمي بها ، وكان النبي يقول : « اركبوا وارموا ،

(*) انظر عن ذلك : المقرئى في الخطط ، ج ١ ص ١٦ وما يليها

(١) العقد الفريد ٥٢ ج ١

وان ترموا أحب الى من أن تركبوا « . ومن أقواله : « كل لهو المؤمن في ثلاث : تأديبه فرسه ، ورميه عن كبد قوسه ، وملاعبته امرأته فإنه حق . ان الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب والرامي في سبيل الله » . ومن أقواله وهو قائم على المنبر : « أعدوا ما استطعتم من قوة . ألا ان القوة الرمي . ألا ان القوة الرمي . ألا ان القوة الرمي »

وكان الخلفاء والقواد بعد النبي يستحثون رجالهم على اتقان الرماية ، كما يحرصونهم على العناية بخيولهم ، لان العرب أهل فروسية ، وخيول العرب مشهورة بخفتها وسرعتها وسهولة قيادها . وكان القواد يوصون رجالهم أن يعتنوا بأفراسهم مثل عنايتهم بنسائهم . وقد تقدم لنا كلام في ذلك

وتفنن المسلمون بالرمي في العصور الوسطى ، حتى اصطنعوا من الاقواس آلات مركبة ، ولعلمهم أخذوا بعضها عن الفرس ، كالمجراة التي استنبطها العجم لما حاربوا البتر ، وهي عبارة عن أنبوب من حديد أو خشب ، فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفا شديدا ، كما تقذف الرصاصة بالبندقية اليوم ، وتكون الاسهم قصيرة . واصطنعوا لرمي السهام ضروبا من المجانيق ، توضع في الواحد منها عدة سهام ، وترمي عنها بالاقواس (*)

السيف

وكان العرب يعدون السيوف أشرف الاسلحة ، وكانوا يستجلبونها من الخارج ، وأشهرها السيوف اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية ، وتعرف كلها بالسيوف العتيقة . وكان لكل منها شكل مخصوص أو علامة يمتاز بها : فاليمانية العتق مثلا التي صنعت في الجاهلية ، كانت تمتاز بثقبين في سنبل السيلان (والسيلان أصل مقبض السيف) ، وثقب السنبل من احدى وجهتيه أوسع من الوجهة الاخرى ، او الوجهتان متساويتان ووسطه اضيق . وكان من السيوف اليمانية سيوف يقال لها المحفورة ، وشطبها شبيه بالانهار ، وقد حفر بمبرد مدور . ومنها ذات حفر مربع ، ومنها ذات شطب . وقلما تسلم اليمانية من العروق ، وقد تنقش عليها تماثيل ، أو يكتب عليها ، أو يصور عليها صورة

غير ان هذه السيوف اكثر قطعها في اللين ، فاذا صادفت الحديد أو اليابس تقصفت . وكانت أسياف الروم أمتن منها ، لانهم كانوا يجيدون سقايتها حتى تبرى الحديد ، ولذلك كان العرب اذا أصابوا سيفا قاطعا تناقلوا خبره وأطروه . وقد اشتهر في أوائل الاسلام سيف ذى الفقار لعلى بن أبى طالب ،

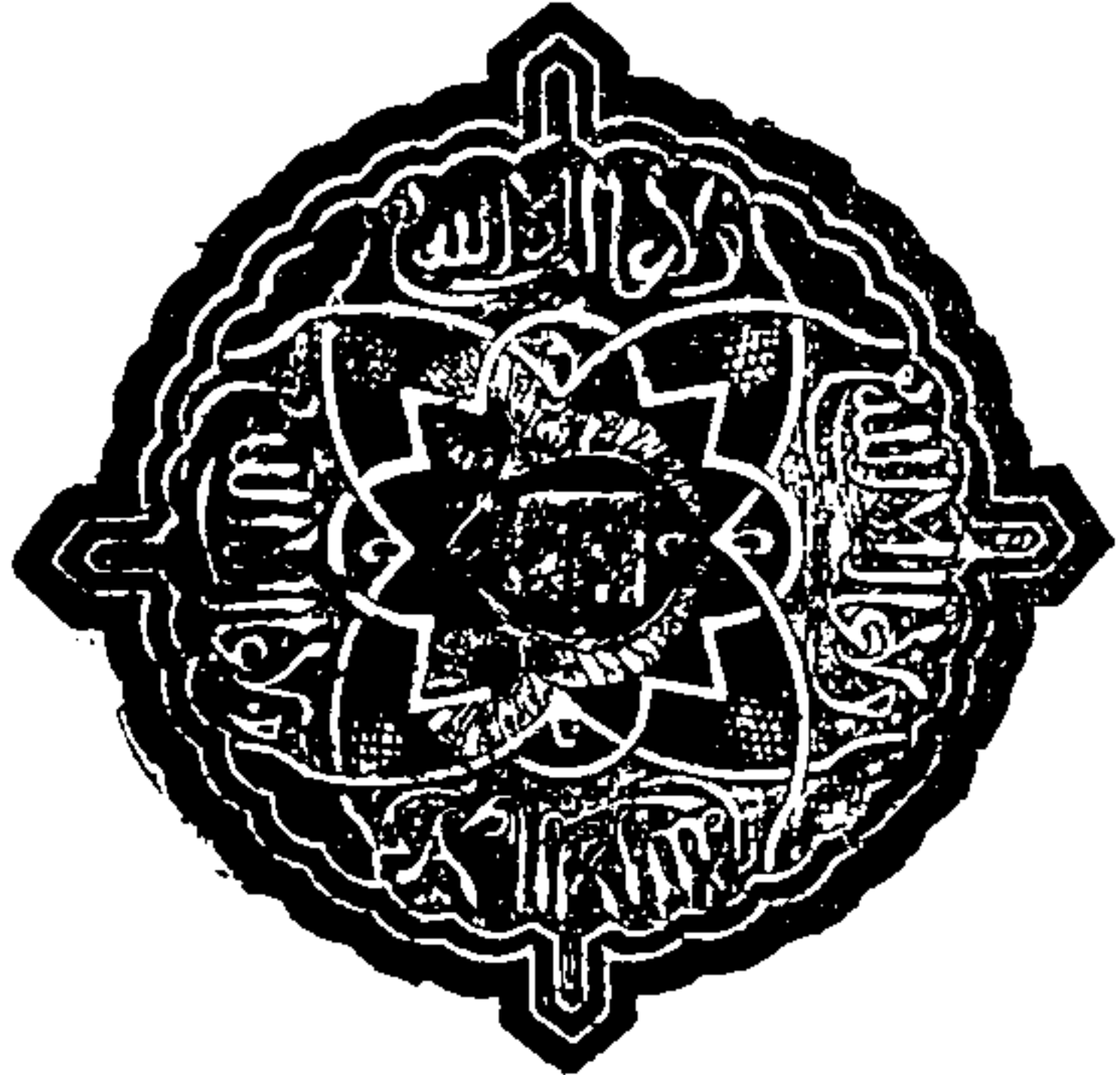
(*) انظر عن هذه الاسلحة كلها : الدكتور عبد الرحمن زكى : السلاح في الاسلام ، القاهرة

وسيف الصمصامة لعمر و بن معدى كرب وغيرهما ، ولعلهما في الاصل من
 أسياف الروم . ولذى الفقار شأن كبير في تاريخ الاسلام ، توارثه آل ابي
 طالب ، ثم اخذه المهدي العباسي ، ثم صار الى الهادي فالرشيد ، ويقال انه
 سمى ذا الفقار لانه كان به ثمانى عشرة فقرة . وفي المتحف البريطانى امثلة
 من السيف الهندي والسيف الدمشقى ، شاهدناها في رحلتنا الى لندن سنة
 ١٩١٢ (*)

الرمح

أكثر ما يكون استخدام الرمح على الخيل ، ولكنهم لم يكونوا يأمنون له
 خوف انكساره . ومن وصاياهم في استخدام الرمح في الحرب قول صاحب
 « آثار الدول » في طرائق حركات الرمح وتصرفاته ، قال : « واللعب به في
 الميادين وبين يدي الملوك غير التحرك به في الحروب : منها المواجهة ، وهى ان
 تحمل على مبارزك وقد أخذت الرمح تحت ابطك وجعلته بين اذنى فرسك ،
 وتقصده مستويا حتى تقرب منه ، فان رأيتَه قد طرح رمحه يمنا فاطرح
 رمحك يسرة ، وان طرحه يسرة فاطرح رمحك يمنا . واجتهد ان تبدأ
 بالحمل عليه وانت مسدد . وتحول الرمح يمنا او يسرة كى تدهشه ، فلا يدرى
 من أين تجيئه ، فاذا دنوت منه دخلت عليه من الخلل الذى لا يكون رمحه
 فيه . واذا أردت ان تبتدىء بالخروج ، فخذ اسفل الرمح بيدك اليمنى ورأسه
 الى الهواء وهو على عاتقك الايمن ، وتحمل على قوتك وانت كذلك . وان شئت

قربت منه حتى لا يدرى من أى
 وجه يلقاك . . وان خرجت الى
 فارسين وتفرقا فاحمل على الاذننى ،
 واذا كانا قريبين فأر أحدهما
 أنك تريد رفيقه ، واحمل عليه
 ولا تتم حملتك ثم اعدل الى
 الآخر واصدقه الحملة . وان
 حذقا ورأيتهما يفترقان عليك ،
 فتطرف ولا تتوسط واحمل على
 الاذننى اليك . فان تساويا فادهش
 الاضعف ، واحمل على الاقوى ، فان
 تساوا وكانوا جماعة فامتد
 امامهم حتى يتبعوك ، ثم كر على



الترس الفرناطى

(*) للدكتور عبد الرحمن زكى رسالة عن السيوف الاسلامية لم تطبع بعد

خلفاء بنى أمية ، فانه أبطل الصفوف ونظم الكراديس ، فحارب بها الضحاك الخارجي ثم الخبيري . ولما بطلت الصفوف تنوسى الزحف ، ثم تنوسى الصف وراء المقاتلة بما دخل الدولة من الترف ، ولم يعودوا يحملون نساءهم وأولادهم معهم الى الحرب (*)

وهاك ما قاله عبد الحميد كاتب محمد بن مروان يوصى ولي عهد الخلافة بتعبئة الجيوش ، وهى صورة من صورها فى زمن بنى أمية ، قال :

«اذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصر، وكان من عسكريك مقتربا وقد شامت طلائعك مقدمات ضلالتة وحماة فتنته ، فتأهب أهبة المناجزة وأعد اعداد الحذر وكتب خيولك وعبيء جنودك . واياك والمسير الا مقدمة وميمنة وميسرة وساقاة ، قد شهروا الاسلحة ونشروا البنود والاعلام . وعرف جنديك مراكزهم ، سائرين تحت ألويتهم ، قد أخذوا أهبة القتال واستعدوا للقاء ، ملحين الى مواقفهم عارفين بمواضعهم عن مسيرهم ومعسكرهم . وليكن ترجلهم وتنزلهم على راياتهم وأعلامهم ومراكزهم . وعرف كل قائد وأصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقاة والطبيعة . لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ولا متهاونين بما أهبت بهم اليه ، حتى تكون عساكرهم فى كل منهل تصل اليه ومسافة تختارها كأنه عسكر واحد ، فى اجتماعها على العدة وأخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ونزولها على مراكزها ومعرفتها بمواضعها . ان ضلت دابة عن موضعها عرف أهل العسكر من أى المراكز هى ومن صاحبها وفى أى المحل حلولة منها ، فردت اليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها . فان تقدمك فى ذلك واحكامك له اطراح عن جنديك مؤونة الطلب وعناية المعرفة وابتغاء الضالة . ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكريك فى نفسك صرامة ونفاذا ورضاء فى العامة وانصافا من نفسه للرعية وأخذا بالحق فى المعدلة ، مستشعرا تقوى الله وطاعته ، آخذا بهديك وأدبك واقفا عند أمرك ونهيك معتزما على مناصحتك وتزيينك نظيرا لك فى الحال وشبيها بك فى الشرف وعديلا فى المواضع ومقاربا فى الصيت . ثم اكتشف معه الجمع وأيده بالقوة وقوه بالظهر وأعنه بالاموال وأغمره بالسلاح ، ومره بالعطف على ذوى الضعف من جنديك ومن زحفت به دابته وأصابته نكبة من مرض أو رجلة أو آفة ، من غير أن تأذن لاحد منهم فى التنحى عن عسكريه أو التخلف بعد ترجله الا المجهود أو المطروق بآفة . ثم تقدم اليه محذرا ومره زاجرا وانه مغلظا بالشدة على من مر به منصرفا عن عسكريك من جنديك بغير جوارك شادا لهم أسرا وموقرهم حديدا

(*) تابع المؤلف هنا ابن خلدون متابعة دقيقة . انظر : المقدمة ، ج ٢ ص ٤٨٥ وما يليها ، الفصل السابع والثلاثون فى الحروب ومذاهب الامم فى ترتيبها

ومعاقبهم موجعا ، أو وجههم اليك فتنهكهم عقوبة وتجعلهم لغيرهم من جنك
عظة . . الخ

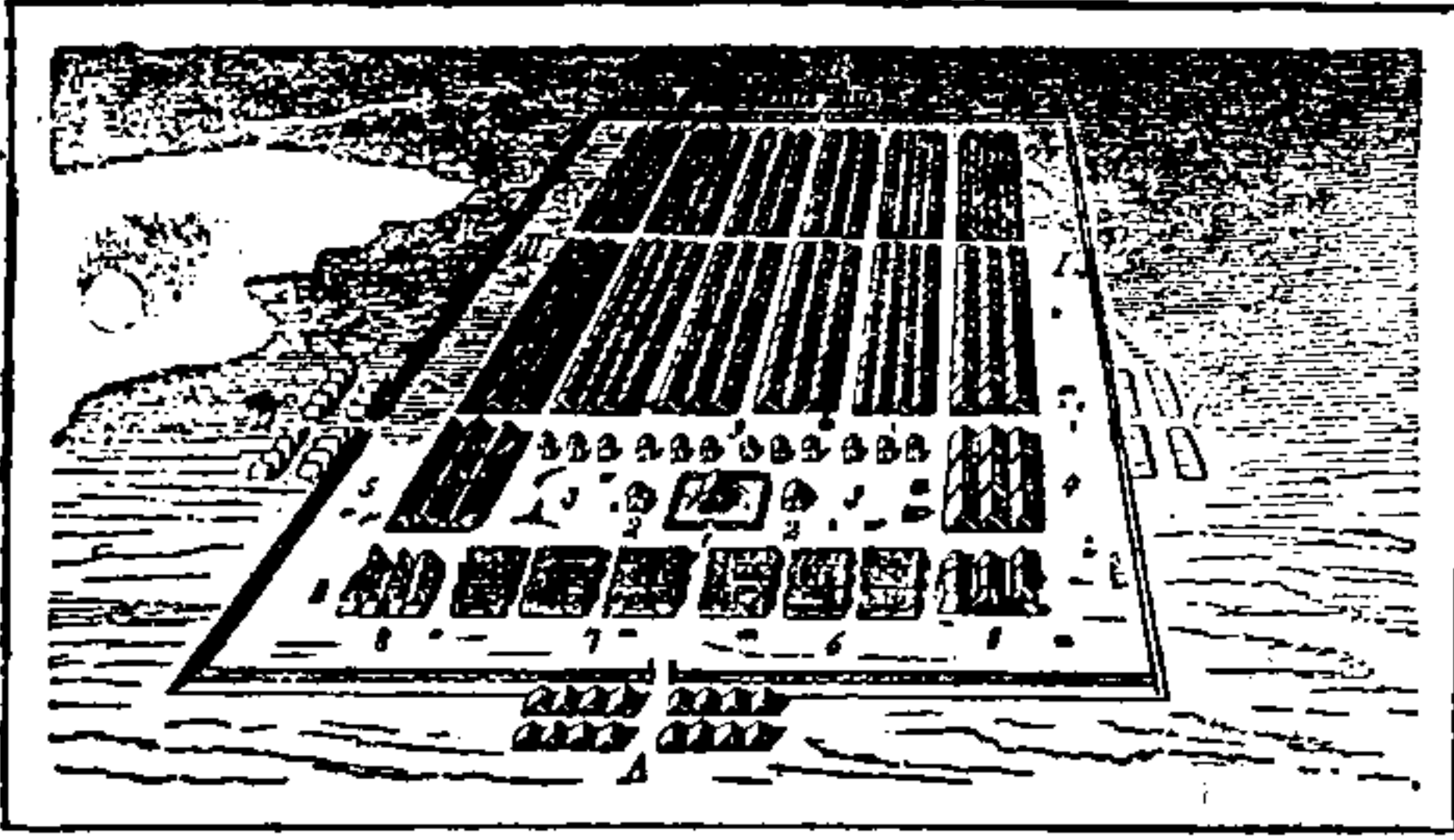
على أن بعض دعاة الخلافة من أهل البيت اعتبروا العدول عن الصف الى الكراديس بدعة في الاسلام ، فظلوا على الزحف صقفا ولو أدى بهم الى الخطر ، كما فعل ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، لما بعث المنصور عيسى بن موسى لمحاربته ، فالتقيا عند باخمرا على ١٦ فرسخا من الكوفة . فأشار عليه بعض أصحابه أن يجعل جنده كراديس «لان الكراديس أثبت في الحرب ، فاذا انهزم كردوس ثبت كردوس ، أما الصف فاذا انهزم بعضه تداعى سائره» . فقال ابراهيم وسائر من معه : «لا نصف الا صف أهل الاسلام» ، يعنى الآية : «ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا» الخ ، فدارت الدائرة على ابراهيم . .

وبعد رسوخ المسلمين في المدينة تفننوا في تعبئة الجيوش ، بما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء بعد ترجمة كتبهم أو دراستها . وتعددت ضروب التعبئة عندهم حتى صارت سبع تعبئات ، وان كانوا لا يستعملونها كلها ، ولكنهم أدخلوها في فنونهم الحربية : التعبئة الاولى أن ترتب الجيوش بشكل الهلال ، قالوا ان الفرس المتقدمين ذكروه . وهو نوعان : الهلال المرسل أو الحاد وهو البسيط مثل هلال السماء والهلال المركب وهو أن يكون الى جانبى الهلال شبه هلالين كأنهما جناحان ، وهى التعبئة الثانية . والتعبئة الثالثة المربع المستطيل . والتعبئة الرابعة الهلال المقلوب . والخامسة أن ينظم الجيش في شكل المعين أو المربع المنحرف . والسادسة المثلث . والسابعة الدائرة المزدوجة ، وهى : دائرتان احدهما داخل الاخرى . وكانوا يعمدون الى هذا الضرب من التعبئة اذا كان جندهم قليلا وجند عدوهم كثيرا ، وهو يشبه آخر ما بلغ اليه المتمدون من التفنن في التعبئة - نعنى مربع بونابرت الذى دوخ به الممالك ، وهو عمدة الجنود المنظمة الى اليوم . فكان المسلمون اذا عبأوا الجيش الى الحرب ، نظموا إما كراديس أو مربعات أو مثلثات ، أو جعلوا بعضه كراديس وبعضه مربعا أو هلاليا أو معينيا أو مثلثا ، على ما تقتضيه الاحوال

المعسكر

اما تنظيم المعسكر فلم يكن له علم خاص في أوائل الاسلام ، بل كان العرب يجرون في نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا في جاهليتهم . فيكون فسطاط الامير في الوسط ، وحوله فساطيط الامراء والخاصة . واذا كانت النساء والاولاد معهم ، جعلوهم وراء المعسكر . ولما أبطلوا حمل العيال معهم كما تقدم ، جعلوا يقلدون الروم والفرس في مضاربهم ، وتفننوا في ذلك على ما اقتضته الاحوال . فلما تعددت فرق الجند ، وكثرت الحاشية والممالك والخدمة ،

صار المعسكر أشبه ببلد ، فيه الكتاب والفقهاء والأطباء والكحالون (*) وأصحاب الطبول والاتباع وغيرهم ، فضلا عن أصناف الجند ، كما ترى في الصفحة التالية ، وهو أرقى ما بلغ إليه نظام المعسكر في الإسلام



معسكر روماني

له أربعة أبواب : A في مقدمه و R في مؤخره و C و D في الجانبين ، كل باب منها خاص بطبقة من الحند . وقد ترتبت الكنائس أو الكراديس في ستة صفوف مزدوجة بينها طرق طولية ، ويقطعها عرضاً شارع واحد . وأمام الكنائس خيم كبار القواد 1 و 2 و 3 وإلى جانبها 4 و 5 خيم المتطوعين . وأمامها في أول المعسكر 6 و 7 جند المتطوعة وبعدها على الزاويتين 8 المساعدون من جند الأجانب

مناداة الجند

كانوا في أوائل الإسلام إذا تهيأ الجيش للقتال نادى قواده : « النفير النفير » وهي علامة الهجوم عندهم ، تقابل نداء قواد الجند الآن في مصر : « هجوم حاضر ال (***) » ثم « هجوم ! » وإذا أرادوا إرجاعهم قالوا : « الرجعة الرجعة ! » وهي مثل قولهم اليوم « جريه ! » . وكانوا إذا أرادوا أن يركب الفرسان للحرب نادوا : « الخيل الخيل ! » ويقال لمثل ذلك في الجيش المصري : « بين مايه حاضر ال ! » ثم « بين ! » وإذا أرادوا أن يترجلوا قالوا : « الأرض الأرض ! » ، ومثلها في مصر : « اين مايه حاضر ال ! » ثم « اين ! »

ولما تمدن المسلمون وتعددت أجزاء جندهم وتنوعت حركاتهم ، جعلوا لكل حركة نداء خاصا يدل لفظه على المراد به . وهذه أسماؤها : ١ - الميل ، ٢ - الانقلاب ، ٣ - الانفتال ، ٤ - تسوية الانفتال ، ٥ - استدارة صفري ،

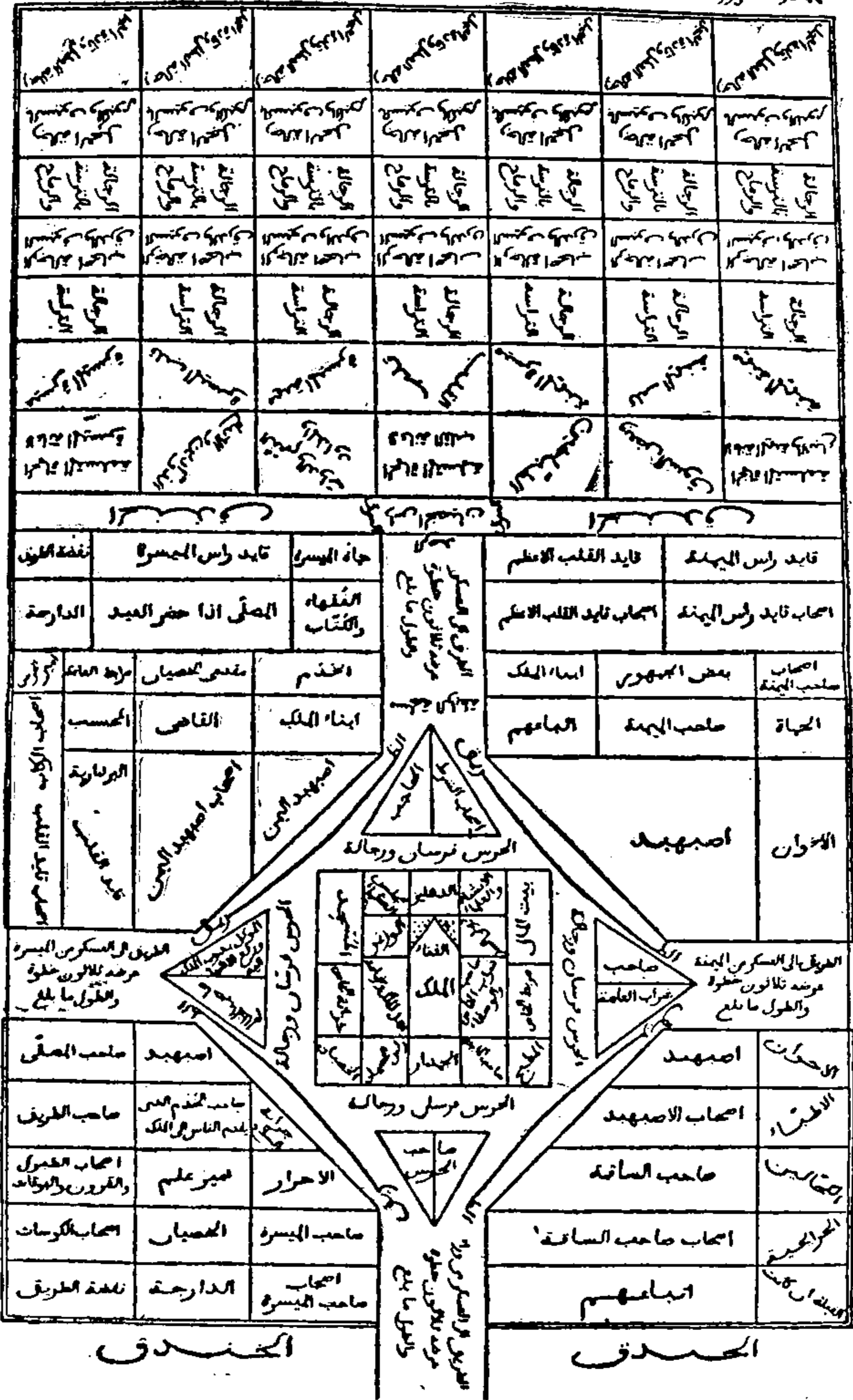
(*) أطباء العيون

(**) كان هذا هو نداء الهجوم في الجيش المصري في ذلك الحين ، وهو نداء تركي ، وقد بطل ذلك من زمن بعيد

الهيئة وسد ظل ربه

الهيئة وسد ظل ربه

الهيئة وسد ظل ربه



معسكر اسلامي كامل نحو القرن الثامن للهجرة
في ارقى ما بلغ اليه نظام الجند عندهم

٦ - استدارة كبرى ، ٧ - تقاطر ، ٨ - اقتران ، ٩ - رجوع الى الاستقبال
 ١٠ - استدارة مطلقة ، ١١ - اضعاف ، ١٢ - اتباع اليمين ، ١٣ - اتباع
 اليسرة ، ١٤ - جيش منحرف ، ١٥ - جيش مستقيم ، ١٦ - جيش مورب ،
 ١٧ - رض ، ١٨ - تقدم ، ١٩ - حشو ، ٢٠ - رادفة ، ٢١ - ترتيب بعد
 ترتيب

فكانوا اذا اراد قائد الجند ان يميل جنده الى جهة ، او يتخذ شكلا
 خاصا من هذه الاشكال ، او حركة من هذه الحركات ، ناداه بكلمة من هذه
 الكلمات . وهم قد تدربوا على المراد من كل منها ، فيميلون كما يشاء على
 مثال الحركات العسكرية في جنود هذه الايام . ثم اختصروا ذلك في كلمتين
 هما : « هو جوا ! » و « هو برا ! » واستعانوا على اتمام المراد بالاشارات .
 ولذلك كان على الجند ان يراعوا الرئيس بأعينهم ، حتى اذا مال الى جهة
 مالوا معه . وفسروا هذين اللفظين بأن المراد بهو جوا ان تقبل الوجوه تجاه
 بعضها بعضا ، وعكس ذلك هو برا

شعار الجند

كان للعرب في جاهليتهم الفاظ يتعارفون بها في اثناء الحرب يسمونها الشعار .
 وليست هي الفاظ معينة ، ولكنهم كانوا يصطلحون عليها على مقتضى
 الاحوال . كان شعار الاحزاب في غزوة احد : « يا للعزى يا لهبل » ، وكان شعار
 تنوخ في الحيرة « يا آل عباد الله » ، وجعل النبي لكل من المهاجرين والانصار
 شعارا ، فكان شعار المهاجرين « يا بعي عبد الرحمن » ، وشعار الاوس « يا بني
 عبيد الله » ، وشعار الخزرج « يا بني عبد الله » ، وسمى خيله « خيل الله » .
 وكان المسلمون بعد ذلك يجعلون لجنودهم شعارا يتعارفون به ، على نحو
 ما تقدم

الثغور والعواصم

ويراد بها حدود المملكة الاسلامية برا وبحرا ، فقد رايت فيما تقدم ان
 العرب لما جاءوا لفتح الشام انما بدأوا ببرها من جهة حوران مما يلي الصحراء ،
 لان قوات الروم كان معظمها في مدن السواحل ، فجعلوا فتوحهم تمتد من البر
 نحو البحر ، ومن العرب واهل البلاد الاصلين الى الروم . فبعد ان فتحوا
 دمشق ساروا نحو السواحل ، وفي مقدمتهم يزيد بن ابي سفيان واخوه معاوية ،
 وكان ذلك في ايام ابي عبيدة عامر بن الجراح على دمشق . جاءوا بيروت وصيدا
 وجبيل ففتحوها فتحا يسيرا ، ثم عاد الروم بعدئذ فاسترجعوها لان قواتهم
 في البحر كانت كبيرة . وما زالت في ايدي الروم حتى تولى الخليفة عثمان ،
 ومعاوية عامله على الشام ، ففتحوا طرابلس وغيرها . وكانت لمعاوية رغبة

في غزو البحر ، وعثمان يخافه كما كان عمر يخافه من قبل ، وما زال معاوية يلح على عثمان حتى أذن له ، فسلمت ثغور الشام عندئذ للمسلمين ، فجعل الناس ينتقلون اليها من كل ناحية ، فعمرت بهم

وكانت ثغور الشام في أيام الخلفاء الراشدين انطاكية ، وغيرها من السواحل التي سماها الرشيد عواصم ، فكان المسلمون يغزون ما وراءها . وكان للروم بقية في بعض المسالحي بين الاسكندرونة وطرسوس ، فلما تولى بنو أمية أتموا فتحها ، وزادت عمراناً في أيام بني العباس ، وجعلوا فيها الحامية والسلاح لدفع غارات الروم ، لانهم كانوا لا ينفكون عن مناوأة العرب . فبنى العرب حصوناً هناك ، ورمموا الحصون التي كان الروم قد بنوها ، وجعلوا لاهلها عطاء كبيراً وأمرؤهم بالغزو

وفعلوا نحو ذلك في حدود المملكة الإسلامية من جهة البر ، فاتخذوا مدناً حصينة جعلوها ثغوراً يقيمون فيها الجند والسلاح في قلاع لدفع العدو أو لغزو بلاده

وبناء على ذلك فان تخوم المملكة الإسلامية بعضها من جهة البر ، والبعض الآخر يتصل اليه بالبر والبحر معا

والحدود البحرية هي على الاطلاق ثغور الشام ومصر . فاذا عددنا الثغور الشامية من الشمال كان أولها طرسوس فأدنه فالمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وأياس ونقابلس ، وارتفاعها - أي دخلها - نحو . . . ١٠٠ دينار تنفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها ، من نفقات الحامية والترميم والمخاض والحصون وغير ذلك ، لا يرد منها شيء الى بيت المال ، بل قد ينفق عليها بيت المال ورواتب الجنود . وثغور مصر منها رفح والعريش ودمياط والاسكندرية

ويلى ثغور الشام من الشمال الثغور التي سموها الجزرية ، نسبة الى جزيرة العراق ، وأولها مرعش ثم الحدث ثم حصون متتابعة الى ثغر شمشاط ثم ملطية . وارتفاع هذه الثغور مع ملطية . . . ٧٠ دينار ، يصرف في مصالحها . . . ٤٠ ويبقى . . . ٣٠ ، ويحتاج لنفقة الأولياء والصعاليك . . . ١٧٠ دينار تضاف الى تلك البقية ، فيكون المجموع مئتي الف دينار سوى نفقات المغازي . والثغور المذكورة هي الواسطة التي منها كانت المغازي ، وعواصم هذه الثغور دلوک وربعان ومنبج ، ناهيك بالثغور التي تحاذي بلاد الهند في الشرق ، مما يطول شرحه (*)

(*) أطلق المسلمون اول الامر اسم العواصم على الولايات المتاخمة للدولة البيزنطية شمالي العراق والشام ، والثغور هي المراكز العسكرية لهذه الولايات المتطرفة . وكانت الثغور تقوم عادة على المداخل الى بلاد الروم ، وعلى الموانئ التي تصدر منها الاساطيل للغزو . ولم يستقر نظام العواصم والثغور الا على أيام العباسيين ، وفي أيام الرشيد بصورة خاصة ، والاغلب ان

الغزوات

فالثغور المذكورة هي حدود المملكة الاسلامية ، وهي التي عزلها هارون الرشيد سنة ١٧ هـ عن الجزيرة وقنسرين وسماها العواصم . وكان المسلمون يخرجون منها كل سنة للغزو في البحر والبر ، جهادا في سبيل الاسلام . وكان الجهاد فرضا على المسلمين يحرضهم الخلفاء عليه ، كما رايت في قول ابي بكر يوم تولى الخلافة : « لا يدع احد منكم الجهاد ، فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل » . أما غزو البحر فقد كانت مراكبهم تجتمع في سواحل الشام ومصر ، حتى تلتقى في جزيرة قبرص ، وعددها ما بين ٨٠ - ١٠٠ مركب . ويسمى ما يجتمع منها هناك الاسطول ، وكان يتولى قيادة الاسطول صاحب مراكب الثغور الشامية . وكانت تبلغ النفقة على هذه المراكب ، اذا غزت مصر والشام ، مائة ألف دينار

وكانت غزواتهم تعين باعتبار الفصول ، فمنها غزوة صيفية وتسمى صائفة ، أو شتوية وتسمى شاتية ، أو ربيعية تقع في العاشر من شهر ايار (مايو) أي بعد ان يكون المسلمون قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون في الغزوة ثلاثين يوما أي الى العاشر من حزيران (يونيو) فكأنهم يجدون الكلاً حينئذ في بلاد الروم ممكنا ، فترتبع دوابهم ربيعا ثانيا . ثم يقفلون فيقيمون ٢٥ يوما أي الى ٥ تموز (يوليو) حتى تقوى الخيول فيجتمعون لغزو الصائفة أي الصيف . ثم يغزون لعشر تخلو من تموز ، فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوما ، وكانوا في بعض السنين يغزون صائفتين ، يسمونهما الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى

أما في الشتاء فغزواتهم قليلة ولا يبعدون فيها أكثر من عشرين ليلة ، ويكون ذلك في آخر شباط (فبراير) فيقيم الغزاة الى اوائل اذار (مارس) ثم يرجعون ويربعون دوابهم

الذي حفز الرشيد على وضع نظام هذه الولايات هو تحويل الدولة البيزنطية - على أيام الاسرة المقدونية - لولاياتها المتاخمة للدولة الاسلامية الى ولايات عسكرية تسمى واحدها تيمنا ويسمىها العرب البنود

وكانت العواصم ولايات عسكرية يحكمها قادة عسكريون ، ويسرى فيها القانون العسكري لا المدني . وتبعاً لذلك كانت الثغور قواعد عسكرية صرفة ، لا يقيم فيها غير الجنود والمجاهدون والمتطوعة ، الذي يطلق عليهم لفظ الصعاليك كما يقول المؤلف . وبالإضافة الى الثغور الشامية والجزرية المذكورة هنا ، كانت هناك ثغور السند في أقصى المشرق ، والثغور الاندلسية وهي ثغور الاندلس الشمالية ، وكانت ثلاثة : الثغور الأعلى وقاعدته سرقسطة ، والثغر الأوسط وقاعدته مدينة سالم ، والثغر الأدنى وقاعدته الاشبونة

انظر : حسين مؤنس : المسلمون في البحر الابيض الى الحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٤)
ابراهيم احمد العدوي : الامويون والبيزنطيون (القاهرة ١٩٥٣)
ومادة ثغور بدائرة المعارف الاسلامية

فترى مما تقدم ان الخلفاء لم يقتصروا على حفظ مملكتهم ، بل جعلوا غزو الممالك الملاصقة لها فرضا واجبا عليهم ، وهو من قبيل الجهاد في سبيل الله كما قدمنا . وكان من اكثر الخلفاء رغبة في ذلك بنو العباس ، فانهم لما استتب لهم الامر ودانت لهم المملكة الاسلامية تحولوا الى الغزو ، فكانوا في اوائل دولتهم يرسلون بعض القواد لغزو الروم كل سنة ، كما يرسلون من يحج بالناس ، ثم صاروا يفترون بأنفسهم . فقد غزا المهدي سنة ١٦٣ هـ الروم بنفسه ، وسير ابنه الرشيد سنة ١٦٥ هـ لغزوهم ومعه ٩٣٠ ٩٥ رجلا ، فأوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا خليج القسطنطينية ، بعد أن مروا بمسالح الروم في طريقهم ، فاسترضاهم صاحبها بمال مقداره : ١٩٣٤٥٠ ديناراً و ٨٠٠ ١٤٠ ٢١ درهم

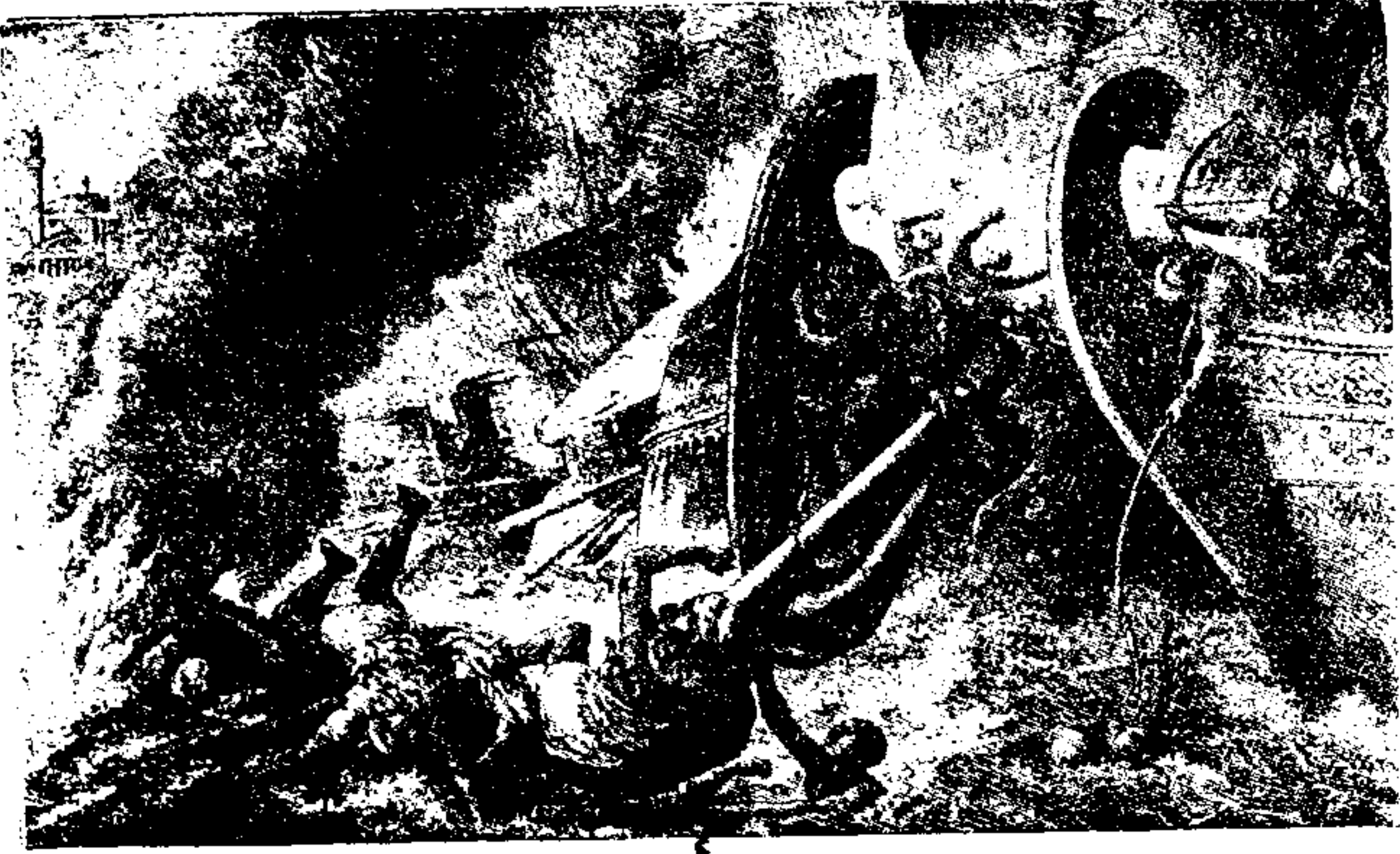
فلما وصل الرشيد الى القسطنطينية خافه أهلها ، وكان على كرسى القسطنطينية الامبراطورة ايريني ، فصالحته على فدية مقدارها سبعون ألف دينار تدفعها له كل سنة ، وأن تقيم له الادلاء والاسواق في الطريق ، وطول الهدنة ثلاث سنين ، وبلغ مقدار ما غنمه المسلمون في أثناء تلك الغزوة غير ما تقدم ٥٦٤٣ رأساً من السبي ، وعشرين ألف رأس من الدواب ، ومائة ألف رأس غنم وبقر . وقتلوا من الروم في تلك الغزوة وحدها ٥٤ الف نفس ، ما عدا الاسرى . ومن ذلك يتبين لك ما كان يزيد المسلمين رغبة في الغزو

الاساطيل

ركوب البحر

لم يركب العرب البحر قبل الاسلام ، الا ما كان من سفائن حمير وسبأ في أيام التبابعة ، لانهم كانوا أهل تجارة في البر والبحر . وأما عرب الحجاز فانهم كانوا يخافون البحر ولا يجسرون على ركوبه - وذلك شأن البدو الى هذا اليوم . فلما ظهر الاسلام وخفقت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر ، رأوا سفن الروم وشاهدوا حروبها فيها فتاقت أنفسهم للغزو في البحر . وأول من ركب البحر منهم العلاء بن الحضرمي ، وكان عاملاً على البحرين في أيام عمر بن الخطاب ، فأحب ان يفتح سواحل فارس وبينه وبينها خليج فارس ، فعبر عليها في المراكب ولم يستأذن عمر ، ولم يفلح في غزوته فشق ذلك على عمر ، فجعل قصاصه ان يكون تحت امره سعد بن ابي وقاص أمير الكوفة يومئذ ، وشدد عمر في منع المسلمين من ركوب البحر . وكان معاوية قد تولى جند دمشق والاردن ، وهو رجل المطامع البعيدة ، فراقه ركوب بحر الروم لغزو ما وراءه ، فبعث الى عمر يستأذنه فأبى . فألح

عليه ورغبه في الكسب ، فكتب عمر الى عمرو بن العاص أمير مصر يطلب اليه ان يصف له البحر فأجابه : « يا أمير المؤمنين . انى رايت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير . . ليس الا السماء والماء ، ان ركذ احزن القلوب وان ثار ازاع العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه دود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق » ، فلما جاءه الكتاب بعث الى معاوية : « والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما ابدا »



اسطول عربى يحارب الروم وهم يرمونه بالنار اليونانية

فلما كانت خلافة عثمان أطاع معاوية لشدة الحاحه ، ولكنه شرط عليه ان يجعل الفوز في البحر اختياريا ، فمن اختار ركوبه حملة واعانه . فركب معاوية في البحر الى قبرس سنة ٢٨ هـ فصالحه اهلها على ٧٢٠٠ دينار يدفعونها له كل سنة . وهى اول غزوة غزاها المسلمون في البحر . وراقهم النصر فازدادوا رغبة في غزوه ، فجعلوا ذلك في اوقات معينة من الصيف والشتاء كما تقدم (*)

الاساطيل في الاسلام

ولم يكن للعرب معرفة في الملاحة ، فاستخدموا اولاً من كان في حوزتهم من الروم ، وفيهم اهل الصناعة والنواتية ، فانشأوا لهم السفن والشوانى ،

(*) انظر حسين مؤنس : السلمون في البحر الابيض المتوسط الى الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٤

وشحنوها بالرجال والسلاح ، وأركبوها العساكر والمقاتلة لغزو ما وراء البحر .
 وسموا مجموع السفن اسطولا ، وهو لفظ يوناني (Stolos) عربوه . وجعلوا
 مقر أساطيلهم بحر الروم خاصة ، واشترك في ملاحه البحر منهم أهل الشام
 وأفريقية والاندلس ، وأنشأوا دور الصناعة (الترسانة) في تلك البلاد لبناء
 السفن واعداد معداتها . وأول دار للصناعة في الاسلام بنيت في تونس على
 عهد عبد الملك بن مروان ، فأمر عامله على أفريقية حسان بن النعمان بذلك
 ففعل ، وأنشأ السفن وجهازها بالعدة والسلاح ، وبعث فيها المقاتلة لغزو
 صقلية (سيسيليا) فلم يتيسر لهم فتحها الا في أيام الاغلبة ، ففتحها أسد
 ابن الفرات على عهد زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب . وفتح أيضا قوصرة (*)
 فازداد المسلمون رغبة في غزو البحر ، فبالغوا في انشاء الاساطيل في أفريقية
 والاندلس ، فبلغ عدد سفن أسطول الاندلس في أيام عبد الرحمن الناصر في
 أواسط القرن الرابع للهجرة مائتي سفينة ، وكان أسطول أفريقية نحو ذلك .
 وأشهر مرافئ الاندلس بجانة والمرية ، وكانت دور الصناعة قد تعددت هناك ،
 وكل دار تبني أسطولا عليه قائد ورئيس ، فالقائد يدبر أمر سلاحه وحرابه
 ومقاتلته ، والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو المجاديف . فاذا اجتمعت
 الاساطيل لغزو أو غرض آخر عسكرت بمرفئها المعلوم ، وجعلوا النظر فيها
 كلها لامير واحد من أعلى طبقات المملكة (***)

وأما مصر فقد أنشئت فيها دور الصناعة في أواخر القرن الاول للهجرة كما
 سيأتي ، وأول من أنشأ الاسطول فيها عنيسة بن اسحق أميرها من قبل
 الخليفة المتوكل على الله العباسي . وسبب ذلك ان الروم نزلوا دمياط سنة
 ٢٣٨ هـ وملكوها ، وقتلوا وسبوا ، فعظم الامر على أمير مصر فأمر بانشاء
 الشوانى للاسطول ، وجعل للبحر غزاة مثل غزاة البر ، وجعل أرزاقهم من
 أرزاقهم . فاجتهد الناس في تعليم اولادهم الرماية وجميع انواع المحاربة ،
 وانتخب له القواد العارفين وشحنه بالرجال والسلاح ، وأرسله لغزو الروم
 في جملة أساطيل أفريقية والاندلس والشام ، فكانت الحروب بين المسلمين
 والروم سجالا ، يأسر بعضهم بعضا ، فاحتاج الخلفاء الى افتداء أسراهم
 بالمال ، فوضعوا ما يسمونه الفداء (***)

(*) في الاصل قوصة ولا نعرف مدينة بهذا الاسم في هذه الناحية فقلب على ظني انها
 قوصرة وهي الجزائر المعروفة باسم Penteleria فصوبتها على هذا النحو
 (***) انظر عن ذلك : حسين مؤنس : المسلمون في البحر الابيض ، ص ٧٦ وما يليها ، والمراجع
 المعطاة هناك

(***) يرجع تاريخ صناعة السفن في مصر الى ابعدمن ذلك ، فقد كانت مصر منذ معركة الصواري

الفداء

وأول من افتدى أسرى المسلمين بالمال هرون الرشيد العباسي سنة ١٨٩ هـ ، وكان الفداء قبله يقع بالمبادلة : النفر بالنفر . وأشهر الافدية ١٣ ، وكلها في أيام بني العباس ، آخرها جرى في أيام المطيع لله سنة ٣٣٥ هـ . وبلغ عدد الذين افتداهم الخلفاء في هذه المدة نحو ٥٠ ألف نفس . وكان الفداء يقع غالبا على ضفتي نهر اللامس من سواحل بحر الروم قريبا من طرسوس ، ويحضر الفداء جمهور من المسلمين والروم فيقضون في الافتداء بضعة عشر يوما الى بضع عشرات . وشهد الفداء الاول نحو ٥٠٠٠ نفس من المسلمين ، بأحسن ما يكون من العدد والخيال والسلاح والقوة ، حتى ملأوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وجاءت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزى ومعهم الاسرى ، وكان عدد الذي فودوا فيه ٣٧٠٠ نفس . وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة يخاطب الرشيد من أبيات :

وفكت بك الاسرى التي شيدت لها محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيى المسلمين فكاكها وقالوا سجون المشركين قبورها (*)

الاساطيل المصرية

ولما دخلت مصر في حوزة العبيديين (الفاطميين) ملوك افريقية ، بذلوا عنايتهم في انشاء الاساطيل في الاسكندرية ودمياط ومصر ، وبلغت الجنود البحرية في أيامهم خمسة آلاف لهم الرواتب المعينة ، منهم عشرة قواد راتب كل واحد منهم من ١٠ الى ٢٠ ديناراً ، ومنهم أقل من ذلك الى دينارين وهي أقلها (**). ولهم اقطاعات كانوا يسمونها أبواب الغزاة . وكانوا ينتخبون احد

(سنة ٦٥٥/٣٤) مركز صناعة السفن الاسلامية ، وقامت دور الصناعة (أى الترسانات) في جزيرة الروضة قرب القاهرة وفي الاسكندرية ودمياط ، واشتهر المصريون بالخبرة في انشاء الموانى ودور الصناعة والسفن ، فكان رجال الدولة الاسلامية يبعثون في طلبهم ويعهدون اليهم في كبار المهام البحرية . انظر : المسلمون في البحر الابيض ، ص ٨٧ وما يليها

(*) قال مروان بن ابى حفصة هذين البيتين في فداء سنة ١٨٩ الذى اثار اليه المؤلف . انظر : ابن الانير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ص ١٢٢ وهامش ١

وكانت عملية الفداء تتم بصورة منتظمة تقليدية ذات روعة خاصة ، فيقف المسلمون على الضفة الشرقية لنهر اللامس ، ويقف الروم على ضفته الغربية . واللامس نهر صغير ضيق كأنه ترعة ، ويمد جسران من القوارب من الضفة لضفة ، وكلما اطلق الروم أسيراً مسلماً اطلق المسلمون أسيراً رومياً معادلاً له من حيث المكاة والسن وسلامة البدن ، وكلما وصل الى المسلمين أسير من أسراهم صاحوا : الله أكبر! وعندما يصل الى الروم أحد أسراهم يصيحون صياحاً مماثلاً ، فاذا بقيت لاحد الجانبين بقية من الاسرى افتديت بالمال

(**) المؤلف يتابع هنا القلقشندي في صبح الاعشى ، ونص عبارته: «... وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية ، كالاسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام ، حين كانت بأيديهم ، قبل أن يغلبهم عليها الفرنج ، وكانت

هؤلاء القواد رئيسا للاسطول ، فاذا ساروا الى الغزو كان هو أمرهم وناهيهم ، ومع هذا الرئيس أمير كبير من أمراء الدولة . وأما النفقة على غزاة الاساطيل فكان الخليفة يتولى تفريقها بنفسه بحضور الوزير ، مبالغة في اكرام رجال البحر ورفع منزلتهم . وبلغت المراكب في أيام المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر ٦٠٠ قطعة ، ثم نقصت بعده حتى أصبحت مائة قطعة

وكانوا يحتفلون في اخراج الاسطول الى الغزو احتفالا شائقا يحضره الخليفة، فيجلس في منظره معدة له على ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة لوداع الاسطول (*) . فيجىء القواد بالمراكب الى هناك ، وهي مزينة بأسلحتها وبنودها ، وفيها المنجنيقات فيرمى بها فتتحدر المراكب وتقلع ، وتفعل ماتفعله لو كانت في حرب ، وهو ما يعبرون عنه اليوم بالمناوره . ثم يحضر الرئيس والمقدم بين يدي الخليفة فيودعهما ويدعو لهما ، ويعطى المقدم ١٠٠ دينار والرئيس ٢٠ ديناراً . ويحتفلون مثل هذا الاحتفال عند عودتهم من الغزو . وفي أيام صلاح الدين أنشئ للاسطيل ديوان خاص سموه ديوان الاسطول ، وعينوا الاموال للنفقة عليه

فتوح المسلمين البحرية

وكان للاسطيل تأثير كبير في توسعة المملكة الاسلامية ، لانهم فتحوا بها أشهر جزر بحر الروم ، ومنها سردينية (سردينيا) وصقلية (سيسيليا) ومالطة واقريطش « كريد » وقبرص وغيرها . وفتحوا كثيرا من شواطئ هذا البحر مما يلي أوروبا ، وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة ، وعليها العساكر الاسلامية تجوز البحر من صقلية الى بر ايطاليا في الشمال ، فتوقع بملوك الافرنج وتشنخ في ممالكهم . وخصوصا في أيام بنى الحسين الكلابيين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوى الفاطميين . فانحاز الافرنج بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي من هذا البحر ، وملك المسلمون سائرهم بمراكبهم وأساطيلهم ، وصاروا سلاطين البحر كما كانوا سلاطين البر . وضعف امر الافرنج الى ان ادرك الدولة العبيدية بمصر والاموية بالاندلس الفشل ، وطرقها الاعتلال بحكم ناموس الاجتماع ، وأفاق الافرنج وعادوا الى استرجاع بلادهم فاسترجعوها ،

جريدة قوادهم تزيد على خمسة آلاف مقاتل مدونة ، وجوامكهم في كل شهر من عشرين دينارا الى خمسة عشر دينارا الى عشرة الى ثمانية الى دينارين ، وعلى الاسطول أمير كبير من أعيان الامراء واقواهم جاشا ، وكان أسطولهم يومئذ يزيد على خمسة وسبعين شينيا وعشر مسطحات ، وعشر حملات «

(*) هذا يدل على أن أكبر جانب من سفن الاسطول كان يبني في المقس وجزيرة الروضة

وسطوا على بلاد المسلمين نفسها ، وكان ما كان من الحروب الصليبية على ما هو مشهور (*)

وكان المسلمون قد أهملوا أمر الاساطيل ، وقل تجنيدهم لها وبطل ديوانها . وبعد ان كان جند البحر عندهم يلقبون بالمجاهدين في سبيل الله ، والغزاة في اعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس ، أصبح « اسطولى » بمصر لقب اهانة ،



بربروسا او خير الدين باشا

وصارت خدمة الاساطيل عارا عندهم (**). وظل ذلك شأنهم حتى تولى الملك الظاهر بيبرس البندقدارى سلطان المماليك الشهير ، فأعاد شأن الاساطيل ، لكنها لم تعد الى ما كانت عليه في عز الاسلام . على انهم بدلوا جهدا كثيرا في دفع الصليبيين عن مصر ، وكان الصليبيون يأتون غالبا من جهة النيل . وكان المماليك يبنون على ضفتى النيل ابراجا من الخشب يوصلون بينها بسلاسل الحديد ، لتمنع سفن الافرنج من المرور في النيل انحط شأن الاساطيل في مصر والشام ، وبقي في الاندلس وافريقية ،

(*) يتابع المؤلف هنا ابن خلدون في المقدمة: الفصل الذى بعنوان « قيادة الاساطيل » . انظر طبعة بيروت ، ص ٢٠١ وما بعدها

(**) لم أجد ما يدل على ذلك ، راجع مادة « اسطولى » في « ذيل على القواميس العربية »

وبقيت دولة المغرب المختصة بها ، وظل ذلك شأنهم الى اواخر دولتهم ، وكان عدد اساطيلهم في العدوتين (اوربا وافريقية) - على ما رواه ابن خلدون - مائة اسطول . وفي اثناء ذلك نبغ احمد الصقلي قائد اساطيل المغرب في القرن السادس للهجرة ، وانتهت اساطيل المسلمين في ايامه الى ما لم تبلغه قبله ولا بعده . ثم انحطت بانحطاط الدولة حتى انقضت بانقضاء الاسلام في الاندلس . ثم عاد الاسطول الاسلامي الى الظهور في عهد الدولة العثمانية ، واشتهر من قواده بربروسا خير الدين باشا في القرن التاسع للهجرة (*) .

دار الصناعة

يراد بدار الصناعة عندهم ما نعبر عنه اليوم بالترسانة او الترسخانة ، وهما منقولتان عن تلك الكلمة . لأن الافرنج لما فتحوا بلاد العرب كان في جملة ما اقتبسوه عنهم صناعة المراكب ، كما اقتبسها العرب من اسلافهم ، وسمى الاسبان دار الصناعة Darsina ، واخذتها عنهم سائر لغات اوربا ، فتقلبت بالنحت حتى صارت ارسنال Arsenal ، واخذها العرب عن الاسبان Tarsanah بطريق التركية ، فظنوها تركية فعربوها ترسخانة او ترسانة ، وهي أولى أن تسمى دار الصناعة . وقد يقال ذلك في اشتقاق لفظ « اميرال » Amiral الافرنجية عن « أمير البحر » العربية

وكانت دور الصناعة في بلاد الاسلام كثيرة في الاندلس وافريقية وفي الشام ومصر ، واول دار بنيت بمصر لهذه الغاية انشئت في جزيرة الروضة تجاه القسطنطينية في القرن الاول للهجرة . ثم عنى احمد بن طولون بتوسيعها وتحسينها ، ثم نقلت الى القسطنطينية في ايام الاخشيد في اول القرن الرابع للهجرة ، حتى لا يكون بينها وبين القسطنطينية بحر . ثم انشأ الفاطميون دارا للصناعة في المقس بقرب مدينتهم (القاهرة) وكانت تصنع في هذه الدور المراكب على انواعها ومنها النيلية والحربية . فالنيلية كانوا ينشئون لها لتمر في النيل من اعلى الصعيد الى مصاب النيل تحمل الغلال وغيرها ، والحربية هي مراكب الحرب لحمل المقاتلين للجهاد ، وهي التي يقال لمجموعها الاسطول

اشكال السفن ومعداتنا

وكانت المراكب الحربية انواعا تتفاوت شكلا وجرما وقوة ، منها « الشونة » (***) وهي مراكب كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعاً للدفاع ،

(*) يتابع المؤلف هنا أيضا كلام ابن خلدون، انظر ص ٤٥٧ من طبعة المقدمة المشار اليها ، وهو يروي هناك تاريخ احمد الصقلي المشار اليه هنا
(***) وتسمى أيضا الشيني والشين ، انظر: السلاح في الاسلام للدكتور عبد الرحمن زكي

و « الحراقة » كانوا يحملون فيها منجنقات يرمى بها النفط المشتعل على
الاعداء - ويسمون المنجنيق عرادة ، و « الطرادة » سفينة صغيرة سريعة
الجرى ، و « العشاريات » (*) مراكب يسار بها في النيل . وهناك سفن اخرى
لاغراض اخرى مثل الثلنديات (***) والمسطحات (**) وغيرها . وكانوا
يبنون سفنهم على مثال سفن اليونان والرومان ، لانهم اخذوا هذه الصناعة
عنهم وعدلوها

وكان من معدات السفن الحربية عندهم الزرد والحوذات والدرق والتروس
والرماح والقسي والكلاليب (****) والباسليقات - وهي سلاسل في



سفينة عربية

نقلا عن نسخة مخطوطة قديمة من مقامات الحريري في مكتبة المشرق شيفر

وعوسها رمانة حديد - والعرادات . وكانوا يجعلون في اعلى الصواري
صناديق مفتوحة من اعلاها يسمونها التوابيت ، يصعد اليها الرجال قبل

(*) العشارى او العشري نوع من المراكب يسرق النيل بجدف فيه ١٠ رجال بعشرين مجداف
وينقل البضائع والرجال من ساحل الى آخر ويتبع الاسطول . عبد الرحمن زكى ، نفس المصدر
(**) مفردة ثلندى وهى مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح ، وتعادل في
اهميتها الشونة والحراقة ، وأصل اسمها لاتينى Chalendsum وحرفت ايضا الى صندل
ويستعملها الانرنج لنقل البضائع . نفس المصدر

(***) المسطح اكبر سفن الاسطول الاسلامى ، وكانت تجر خلف السفن الصغيرة لئلا تفرق
(****) مفردها كلابة ، أداة اشبه بالهلب تلقى على سفن العدو لتتشبث بها وتجذبها

استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في مخللة معلقة بجانب الصندوق ، فيرمون العدو بالاحجار وهم مستورون بالصناديق . وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط للاشعال ، او جرار النورة - وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ - يرمون بها في مراكب الاعداء فتعمى الرجال بفبارها ، وقد تلتهب عليهم اذا تبذرت ، او يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب او قدور الصابون اللين فانه يزلق اقدامهم . وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود او اللبود المبلولة بالخل او الماء والشب والنظرون لدفع اذى النفط ، وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق وانظرون او الخطمي المعجون بالخل ، فان هذه مواد تقاوم فعل النفط وكان من احتياطاتهم في اثناء الحرب انهم اذا جن الليل لا يشعلون في مراكبهم نارا ولا يتركون فيها ديكا ، واذا ارادوا المبالغة في الاختفاء اسدلوا على المراكب قلوعا زرقا كي لا تظهر عن بعد

وكانوا يجعلون في مقدم المراكب اداة كالفأس يسمونها « اللجام » ، وهي حديدة طويلة محددة الرأس جدا واسفلها مجوف كسنان الرمح ، تدخل من اسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها « الاسطام » ، فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز من مقدم المركب فيحتالون في طعن المراكب به ، فاذا اصاب جانب المركب بقوة خرقة حتى يخشى غرقه بما ينصب فيه من الماء فيطلب اصحابه الامان

واما الكلايب ففائدتها انهم اذا دنوا من مركب العدو القوا الكلايب عليه فيوقفونه ، ثم يشدونهم اليهم ويرمون عليه الالواح كالجسر ويدخلون اليه ويفاتلون . واذا كان العدو قويا ابطل فعل الكلايب بفأس ثقيلة من فولاذ يضربون به تلك الكلايب فتقطع

بيت المال

البحث في بيت المال يشمل النظر في كل ما يتعلق بأموال الدولة من خراج وصدقة واعشار واخماس وجزية وغير ذلك ، ويسمى الديوان السامى . وهو اصل الدواوين ومرجعها عندهم ، ووظيفته ان يثبت في جرائده جميع اصول الاموال السلطانية على اصنافها ، من عين وغلل وفيء وغنائم واعشار واخماس ، ويثبت ما تحصل من ذلك ويتخذ بيوتا لأصناف الاموال ويجعل عليها دواوين وحرسا . فالاموال والقماش لها ديوان الخزانة ، ويجب ان يكون مباشره قضاء المسلمين بأنفسهم بلا نواب عنهم ، ومعهم خزندارية امناء اكفاء من اقوى الناس ديانة . والغلل لها ديوان الاهراء ، يجب ان يكون مباشره من اكبر العدول الدينيين الاعفاء . والاسلحة والذخائر لها ديوان خزائن السلاح ، يجب ان يكون مباشر هذه الجهة محتسب البلد ، لانه يعرف

أمور الاستعمالات واجور الصناعات وأسعار الآلات . وكل ما استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال . وكل حق وجب صرفه في مصالح المسلمين ثلاثة أقسام . الصدقة والغنيمه والفيء ، ولكل منها احكام سيأتى بيانها . والاموال المستحقة على بيت المال ارزاق الجند واثمان الكراع والسلاح ، وغير ذلك مما ينفق في سبيل المصلحة العامة (*)

الصدقة

الصدقة والزكاة لفظان مترادفان . وهى تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، وقد ذكرنا اصلها فيما تقدم . وللصدقة ديوان في مركز الخلافة له فروع في سائر الولايات والبلدان . ويستقل والى الصدقة في كل بلد بالاستيلاء على اموال الصدقة من اغنياء ذلك البلد وتفريقها على فقرائه . ومصادر الزكاة اربعة : زكاة الماشية وزكاة الذهب والفضة وزكاة الاثمار وزكاة الزروع

١ - زكاة الماشية

زكاة الماشية تؤخذ على الابل والبقر والغنم ، ولها احكام وضعها رسول الله نفسه . يستدل على ذلك من كتاب كتبه ابو بكر الى انس بن مالك لما وجهه الى البحرين ، وهالك نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه فريضة الصدقة التى فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، والتى امر الله بها رسوله . فمن سئلتها من المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سئل فوقها فلا يعط : في اربع وعشرين من الابل فما دونها من الغنم من كل خمس شاة . اذا بلغت خمسا وعشرين الى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض اثنى . فاذا بلغت ستا وثلاثين الى خمس واربعين ففيها بنت لبون اثنى . فاذا بلغت ستا واربعين الى ستين ففيها حقة طروقة الجمل . فاذا بلغت واحدة وستين الى خمسة وسبعين ففيها جذعة . فاذا بلغت ستا وسبعين الى تسعين ففيها بنت لبون . فاذا بلغت احدى وتسعين الى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل . فاذا زادت على عشرين ومائة ففي كل اربعين بنت لبون . وفي كل خمسين حقة . ومن لم يكن معه الا اربع من الابل فليس فيها صدقة الا ان يشاء ربها . فاذا بلغت خمسا من الابل ففيها شاة . وفي صدقة الغنم في سائمتها اذا كانت اربعين الى عشرين ومائة شاة . فاذا زادت على مائة الى مائتين شاتان . فاذا زادت على مائتين الى ثلاث مائة ففيها ثلاث . فاذا زادت على ثلاث مائة ففي كل مائة شاة . فاذا كانت سائمة الرجل ناقصة من

(*) المؤلف يصف هنا تنظيم دواوين الدولة، كما استقرت في مصر في منتصف العصر الفاطمى ثم دول المماليك والترك بعد ذلك ، وهذا النظام يختلف عما كان متبعاً أيام العباسيين فضلاً عن الامويين

اربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة الا ان يشاء ربها . وللفقهاء تفاصيل في ذلك لا محل لها هنا . وأما الخيل والبغال والحمير فلا زكاة عليها (*)

٢ - زكاة الذهب والفضة

وزكاة الفضة ليس فيما دون ٢٠٠ درهم صدقة . وأما المائتان فعليها خمسة دراهم كل سنة ، وذلك على تعديل (***) $\frac{21}{2}$ في المائة أى ١ من ٤٠ ، وعلى هذا التعديل تؤخذ زكاة الذهب عن كل عشرين مثقالا منه نصف مثقال ، وليس على ما دون العشرين مثقالا زكاة . واذا زادت على العشرين تضاعفت زكاتها على هذا القياس . ويعد من قبيل الفضة والذهب اموال التجارة ونحوها

٣ - زكاة الاثمار

واما الاثمار فزكاتها تختلف باختلاف نوع سقايتها . فاذا كانت مما يسقى سيحا ، أى ان الماء يأتيه من المطر او الانهر بلا تعب او حمل ، فزكاتها العشر . واذا كانت مما يسقى بالتعب والرجال فنصف العشر . وفي كل حال لا تستحق الزكاة على الاثمار الا اذا بلغت خمسة اوسق فما فوق . والوسق ستون صاعا ، والصاع خمسة ارطال وثلاث بالعراقى . ويدخل في حكم الاثمار النخل والكرم ونحوها (***)

٤ - زكاة الزروع

واما الزروع ، ويريدون بها الحبوب بأنواعها كالحنطة والارز واللوبيا والحمص وغيرها ، فلا تؤخذ عليها زكاة الا بعد ان تبلغ خمسة اوسق ، وحكمها في الزكاة مثل حكم الاثمار

الجهات التى تصرف فيها الزكاة

واما الجهات التى تصرف فيها اموال الزكاة فقد جاء ذكرها صريحا في القرآن ، وهو : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والفارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » . وبناء عليه كانوا يقسمون اموال الزكاة الى ثمانية أسهم ، يدفعون سهما الى الفقراء وهم الذين لا شئ لهم . والثانى للمساكين ، وهم الذين لهم ما لا يكفيهم وهم ارفق حالا من الفقراء . وكانوا يجعلون نصيب كل واحد من هؤلاء بالنظر

(*) انظر : القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم ، كتاب الخراج (طبعة المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٥٢) فصل فى الصدقات ، ص ٧٦ وما بعدها

(**) أى بنسبة

(***) يحيى بن آدم القرشى ، طبعة المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧ ، باب الزكاة فى الارض والزروع والثمار ، ص ١١٢ فما بعدها

الى حاله او ما يكفيه ، على ما يترأى لولى الصدقات ، بشرط ان لايزيد ما يأخذه الواحد على ٢٠٠ درهم ، لانه اذا اخذ اكثر من ذلك وجبت عليه الزكاة

وقد جاء في تفسير البيضاوى ان الفقير من لا مال له يقع موقعا من حاجته ، والمسكين من له مال او كسب لا يكفيه من السكون ، كأن العجز أسكنه (*)

والسهم الثالث يعطى للعاملين عليها ، وهم القائمون بجبايتها وتفريقها ، وفيهم الامين والمباشر والمتبوع والتابع فيأخذون اجورهم . فاذا زاد سهمهم على ما يستحق لهم رد الباقي على السهام الباقية . والسهم الرابع يفرق للمؤلفة قلوبهم ، وهم الذين كان النبی وخلفاؤه يتألفونهم لكف اذاهم عن المسلمين ، او لرغبتهم في الاسلام او لترغيب قومهم وعشائرهم فيه كما تقدم . واذا كان احد المؤلفة قلوبهم غير مسلم لا يدفع له من الزكاة بل يدفع له من الفنائم أو الفیء . والسهم الخامس ينفق في شراء العبيد وعتقهم . والسادس للفرمين ، وهم المدينون ، فيعطى لهم ما يقضون به ديونهم . والسهم السابع في سبيل الله ، يعطى الفزاة واهل الجهاد نفقة ما يحتاجون اليه في حروبهم . والثامن لابناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم

ويمتاز عمال الصدقات عن سائر عمال المال الآخرين ان عامل الصدقة يجوز له ان يقسم ما جباه بغير اذن ، الا اذا نهى عن ذلك عمدا ، بخلاف اموال الفیء أو الغنيمة فان عمالها ليس لهم ان يتصرفوا بالمال الا بأمر الخليفة او من يقوم مقامه من الولاة او الوزراء

الغنيمة

الغنيمة ما يكسبه المسلمون بالقتال ، وتشتمل على اربعة اقسام : اسرى وسبى وارضين واموال . فالاسرى هم الرجال المقاتلون الذين يقعون في الاسر ، ولهم في الشريعة الاسلامية شروط واحكام اختلف الائمة في تحديدها مما لا محل له هنا ، وفي جملتها قبول الفدية وهي مال يفتدى به الاسير . فالمال المأخوذ على هذه الصورة يضاف الى باقى الغنيمة ، واما السبى فهم النساء والاطفال الذين يقعون في ايدي المسلمين ، فلا يجوز قتلهم وانما هم يفرقون في جملة الفنائم ويجوز قبول الفدية عنهم

والارض التي تؤخذ في الحرب اما ان تكون قد فتحت عنوة فأصبحت ملكا للمسلمين على انها فيء ، او ان تدخل في حكم المسلمين صلحا على شروط

(*) تفسير البيضاوى ، ص ٢٥٨

فهي من قبيل الفيء . وباختلاف هذه الاحوال وما يشترك بينها اختلفت انواع الضرائب عليها كالخراج والعشور ونحوهما (*)

الاموال (**)

اما الاموال المنقولة فهي ما يمكن نقله كالماشية والمال ، وهي تفرق في المقاتلة . وكانت تفرق في اول الاسلام بلا قاعدة ، فكان النبي يقسمها على ما يراه . واول غنائمهم غنائم بدر في السنة الثانية للهجرة ، فتنازع المهاجرون والانصار في اقتسامها ، ففرقها النبي فيهم على السواء وهو كواحد منهم . ثم جاء الامر بالتخمس في الآية : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . واول غنيمة خست على هذه الصورة غنيمة غزوة بني قينقاع بتلك السنة ، فقسمت اموالها الى خمسة اقسام تفرقت اربعة منها في المقاتلة ، والخمس الخامس - وهو خمس النبي - قسم الى خمسة اسهم : السهم الاول ينفقه على نفسه وازواجه وفي مصالح المسلمين ، والثاني يفرق على ذوى القربى ، وهم بنو هاشم رهط النبي ، وبنو عبد المطلب بن عبد مناف خاصة ، ولا حق لاحد سواهم من قريش ، والثالث لليتامى من ذوى الحاجات ، ويستوى فيه حكم الغلام والجارية ، والرابع يفرق في المسلمين الذين لا يجدون ما يكفيهم ، والسهم الخامس لابناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لا يجدون ما ينفقون

ويعد من قبيل الاموال ايضا الاسلاب ، وهي ثياب القتلى واسلحتهم ، فهذه كانوا يفرقونها في المقاتلين ، فيأخذ كل رجل اسلاب الذي قتله

الاراضى

واما الاراضى التى كانت تقع في ايديهم عنوة او صلحا ، فقد اراد بعضهم في صدر الاسلام ان يجعلها غنيمة تقسم بين الفاتحين مثل قسمة اموال الغنيمة ، فأبى عمر بن الخطاب عليهم ذلك كما يتبين من كتاب كتبه الى سعد ابن ابى وقاص بعد فتح العراق ونصه : « اما بعد . . فقد بلغنى كتابك تذكر فيه ان الناس سألوك ان تقسم الارض بينهم مغانمهم وما افاء الله عليهم ، فاذا اتاك كتابى هذا فانظر ما اجلب الناس عليك به من العسكر من كراع

(١) يتبع المؤلف هنا رأى الشافعية ، من أن الارض تدخل في الغنيمة ويوزع خمسها بين من اشتركوا في فتحها ، ويعين خمس آخر لبيت مال المسلمين . اما المالكية فيرون أن الغنيمة يقتصر أمرها على المنقول مما يصيبه المسلمون في المواقع والاراضى المفتوحة ، بما في ذلك سلب القتولين من جند الاعداء ، اما الارض فتعتبر فينا ولا تقسم ، في حين يرى الحنفية أن يترك الامر في الارض للامام ، فاما اعتبرها غنيمة أوفينا

(**) هي التى تسمى غنيمة باتفاق الفقهاء ، وخمسها من حق الامام ينفق على نفسه منه شيئا والباقي لذوى القربى واليتامى والمساكين وابناء السبيل أما الاخماس الاربعة الباقية فكانت تقسم بين المقاتلين الذين حضروا المعركة

ومال فاقسمه بين من حضر ، واترك الارضين والانهار بعمالها لا يكون ذلك في اعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء « فاعترض عليه بعضهم بأن الارض حق لهم لانهم فتحوها بأسيا فهم ، فجادلهم واقنعهم بأن يضع الخراج عليها والجزية على اهلها ، ويكون كلاهما فيئا للمسلمين على ممر الاجيال . وبناء عليه وضع عمر الجزية والخراج على ارض العراق وغيرها من البلاد المفتوحة ، ودون ذلك في السجلات على مثال ما كان الفرس والروم يدونون ، وهو ما يعبرون عنه بتدوين الدواوين كما تقدم

الفىء

هو سائر ما بقى من اموال بيت المال ، وفي الشرع « الفىء كل مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال ولا بايجاف خيل ولا ركاب » . ويدخل فيه الجزية والخراج والاعشار وغيرها . وكان للنبي خمس الفىء يقسم كما يقسم خمسه من الفنائم ، فأصبحت حصته بعد موته من الفىء ايضا من حق بيت المال . وكانت الاربعة الاخماس الباقية من الفىء تقسم في صدر الاسلام على الجيش ، وهم المهاجرون والانصار ، يفرق فيهم على السواء ، حتى وضع عمر الديوان وقدر ارزاق الجند على ما ذكرناه ، فأصبح الفىء يوضع في بيت المال ، وينفق منه على الجند وغيرهم حقوقهم المعينة

وقد رأيت فيما تقدم ان اهل الصدقات هم غير اهل الفىء والغنيمة . فلا تصرف الصدقات في اهل الفىء ، ولا يصرف الفىء في اهل الصدقات . فان الفىء والغنيمة لأهل الحرب والمجاهدين في سبيل الاسلام ، واهل الصدقات ليسوا من المقاتلة ولا هجرة لهم . وكان اسم الهجرة يطلق في الصدر الاول على من هاجر من وطنه الى المدينة لطلب الاسلام . وكانت كل قبيلة اسلمت وهاجرت بأسرها تدعى « البررة » ، وكل قبيلة هاجر بعضها تدعى « الخيرة » . فكان المهاجرون بررة وخيرة . ثم سقط حكم الهجرة بعد الفتح ، وصار المسلمون مهاجرين وأعرابا لان اهل الصدقة كانوا يسمون على عهد النبي اعرابا ، ويسمى اهل الفىء المهاجرين ، ومن ذلك قول الشاعر :

قد لفها الليل بعصلى اروع خراج من الذرى
مهاجر ليس بأعرابى

وكان الخلفاء في صدر الاسلام يدققون في التمييز بينهما ، فاذا اراد الخليفة ان يعطى طالبا لا يعطيه من مال الفىء الا اذا كان العطاء عائدا الى مصلحة المسلمين العامة ، والا فانه يعطيه من مال الصدقة . ويروون عن عمر بن الخطاب غير حكاية تدل على شدة تمسكه بهذه القاعدة ، منها أن اعرابيا اتاه فقال :

يا عمر الخير جزيت الجنة اكس بنياتي وامهنة
وكن لنا من الزمان جنة اقسام بالله لتفعلنه
فقال عمر : « ان لم افعل يكون ماذا ؟ » . قال :

اذن ابا حفص لأذهبنه

قال : « واذا ذهبت يكون ماذا ؟ » ، فقال :

يكون عن حالي لتسألنه يوم يكون لا عطايا هنة
وموقف المسئول ينهينه اما الى نار واما جنة

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه ، وقال : « يا غلام اعطه قميصي
نذا لذلك اليوم ، لا لشعره . انا والله لا املك غيره ! » . فجعل ما وصل
به الاعرابى من ماله لا من مال المسلمين ، لأن صلته لم تعد تقع على غيره
فخرجت من المصالح العامة

وكان مما نقمه الناس على عثمان انه جعل الصلوات من مال الفئى ولم ير
الفرق بين الامرين . ولما مضى زمن الهجرة وصار الاسلام دولة جوزوا صرف
كل واحد من المالمين فى كل واحد من الفريقين ، على حسب الاقتضاء .
وازدادت موارد الفئى باتساع المملكة الاسلامية وتعددت ابوابها ، وصاروا
يعبرون عن الفئى بجباية الاعمال ، وهو ما يجبى من أصناف الاموال ، كالجزية
والخراج والصدقات واعشار السفن واخماس المعادن والمراعى وغلة دار
الضرب والمراصد والضياح والمستغلات الخ . . وقد تقدم الكلام فى الصدقات ،
وسنذكر اهم ما بقى من مصادر الفئى

الجزية

الجزية والخراج متشابهان بأنهما يؤخذان من غير المسلمين ، وهما من
جملة اموال الفئى ويجبيان بأوقات معينة كل سنة ، ولكنهما يختلفان بأن
الجزية موضوعة على الرءوس وتسقط بالاسلام ، واما الخراج فيوضع على
الارض ولا يسقط

تاريخ الجزية

والجزية ليست من محدثات الاسلام ، بل هى قديمة من اول عهد التمدن
القديم . وقد وضعها يونان اثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى
القرن الخامس قبل الميلاد ، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين ، وفينيقية
يومئذ من اعمال الفرس ، فهان على سكان تلك السواحل دفع المال فى مقابل
حماية الرءوس . والرومان وضعوا الجزية على الامم التى اخضعوها ، وكانت
اكثر كثيرا مما وضعه المسلمون بعدئذ . فان الرومان لما فتحوا غالبا (فرنسا)
وضعوا على كل واحد من أهلها جزية يختلف مقدارها ما بين ٩ جنيهات

و ١٥ جنيها في السنة ، او نحو سبعة اضعاف جزية المسلمين . ولم تكن الجزية كبيرة بهذا المقدار في كل البلاد التي افتتحها الرومان ، ولكنهم يعللون كبرها في غالبا ونحوها انها كانت تؤخذ من الاشراف ، عنهم وعن عبيدهم وخدمهم . وكان الفرس ايضا يجبون الجزية من رعاياهم ، ويؤيد ذلك ما اورده ابن الاثير في كلامه عما فعله كسرى انوشروان في الخراج والجند ، قال : « وألزموا الناس الجزية ما خلا العظماء واهل البيوتات والجند والمرازبة والكتاب ومن في خدمة الملك ، كل انسان على قدره اثني عشر درهما وثمانية دراهم وستة دراهم واربعة دراهم » . فالظاهر ان العرب أخذوها عن الفرس لفظا ومعنى ، فعربوا لفظها حتى صار « جزية » (*) وعدلوا في كيفية جمعها كما رأيت . وقد رفعوها عن المسلمين كما فعل كسرى أيضا ، لان المسلمين عندهم هم الجند والعظماء واهل البيوتات الذين استثناهم كسرى من الجزية (***) واهل اللغة يعدون لفظ الجزية مشتقا من جزاه به وعليه ، كافاه

مقدار الجزية

اما الجزية في الاسلام فقد كان النبي يقدرها بحسب الاحوال ، وعلى مقتضى التراضي الذي كان يقع بين المسلمين واعدائهم ، فلما صالح اهل نجران تراضوا على جزية مقدارها ٢٠٠٠ (***) حلة في صفر و ١٠٠٠ في رجب ، ثمن كل حلة أوقية والاقوية اربعون درهما . وصالح اهل اذرح على مائة دينار كل رجب . وصالح اهل مقنا على ربع اخشابهم وغزوهم وكراعهم ودروعهم وثمارهم . وصالح غيرهم من يهود جزيرة العرب على نحو ذلك

وما زالت الجزية بلا تعيين الى آخر ايام ابي بكر ، فلما تولى عمر وكثرت الفتوح عين مقدارها ، فكتب الى امراء الاجناد يأمرهم ان يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى ، وان يجعلوها على اهل الفضة كل رجل اربعين درهما ، وعلى اهل الذهب اربعة دنانير . وعليهم من ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة ، وثلاثة اقساط زيتا كل شهر لكل انسان في الشام والجزيرة

ثم تعدلت فتعينت باعتبار درجات الناس ومقدرتهم ، فوضعوا على الظاهر الغنى ٤٨ درهما تدفع اقساطا ٤ دراهم في كل شهر ، وعلى اوسط الحال

(*) الرأي السائد ان اصل لفظ الجزية يوناني ، واصل لفظ خراج ارمني : خراجه (***) التفسير المتفق عليه لاستثناء المسلمين من الجزية هو انها تجبى من غير المسلمين في نظير حماية المسلمين اياهم ، وهي تجمع لبيت المال لتنفق فيما فيه صالح الدولة ويقال مثل ذلك في الخراج ، فقد كان العرب لا يؤدون الخراج اول الامر ، وانما يؤدون العشر ، لان خراج الاراضي المفتوحة كان فيئا للمسلمين ينفق فيما فيه صالحهم جملة (***) الحلة وزن من اوزان النقود كان مستعملا في نجران

٢٤ درهما كل شهر درهمان ، وعلى الفقير ١٢ درهما كل شهر درهم ، ولا يؤخذ شيء من النساء والصبيان ولا من اهل العاهات ولا من الرهبان الذين لا يخالطون الناس ، الا البلاد التي عقدت شروط الجزية عليها باتفاق خاص ، كما عقد صلح مصر مع عمرو بن العاص ، على ان يدفع القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ، وعليهم اضافة من ينزل عليهم من المسلمين ثلاثة ايام ، وغير ذلك

وكثيرا ما كانوا يقدرون الجزية باعتبار ما يبقى في ايدي الناس من دخلهم بعد نفقاتهم ، كما وقع لأهل الجزيرة بالعراق ، فقد كان الذي فتحها عين جزيتها دينارا على كل رأس ، فلما تولى عبد الملك بن مروان استقل ذلك فبعث الى عامله هناك فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم . وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ، وطرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته ، وطرح ايام الاعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد ذلك اربعة دنائير لكل واحد ، فألزمهم دفعها وجعل الناس طبقة واحدة

والجزية تضرب كما قلنا على غير المسلمين ، فمن اسلم سقطت عنه ، الا في ايام عبد الملك بن مروان فان الحجاج وضعها على من اسلم من اهل الذمة . وخاطب عبد الملك أخاه عبد العزيز عامله على مصر يومئذ أن يضعها على من اسلم ، فشاور عبد العزيز بن حجيرة احد خاصته فأعظم الامر وقال : « اعيدك بالله ان تكون اول من سن ذلك بمصر ، فوالله ان اهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف تضعها على من اسلم منهم ؟ » فتركهم . فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقى الشهر ابطل ذلك من العراق ، ولم توضع الجزية على مسلم بعد ذلك

وتقبل الجزية من غير المسلمين ايا كانوا ، الا اذا كانوا من العرب عبدة الاوثان أو من المرتدين ، فهؤلاء لا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف . أما النصارى واليهود والمجوس وعبدة الاوثان من العجم فيقبل منهم الاسلام أو الجزية أو السيف

والقصد من ذلك توحيد امة العرب ، فأباد النبي الوثنية من جزيرة العرب في حياته ، ولما تولى عمر اخرج من كان باقيا فيها من النصارى واليهود . وقد قلنا ان الجزية لا توضع الا على من بلغ الحلم من الاصحاء ، ومعنى ذلك انها بدل من القتال ، اى ان دافعها لا يدعى الى القتال . ويشبهها من هذا القبيل ما كان يدفعه نصارى الملكة العثمانية من الضريبة المعروفة بالعسكرية قبل اعلان الدستور ، وكانت تدفع في مقابل اعفاء النصارى من الجندية

الخراج

تاريخه

الخراج ما يوضع من الضرائب على الارض او محصولاتها ، وهو اقدم انواع الضرائب . والاصل في وضعه ان الناس كانوا يعتبرون الارض ملكا للسلطان او الملك ، وهذا الاعتقاد قديم جدا . وفي التوراة اقوال صريحة في كيفية دخول الارض في ملك الفراعنة ، وردت في حكاية المجاعة الشهيرة في الفصل السابع والاربعين من سفر التكوين ، لما جاع المصريون في اثناء القحط فباعوا يوسف كل ما اقتنوه من فضة وذهب وماشية ، ولم يبق لهم الا الارض فباعوه اياها بالخبز

وهكذا كان شأن الارض في كل الممالك القديمة ، فالارض للملك والاهالي انما يتمتعون بريعتها . وللحكومة حصة من ذلك الربح وهو الخراج . ومن عادات التتر ان الانسان يستأثر بملك الماشية ، واما الارض فأنكروا حق تملكها على الافراد . وكان الجرمان القدماء لا يعترفون بملك الارض الا لحكامهم او رؤسائهم ، فكان رئيس القبيلة يوزع اراضيها على افرادها . وفي السنة التالية توزع عليهم بالتناوب ، بحيث ان القطعة الواحدة لا يستغلها الرجل الواحد سنتين متواليتين . ومثل هذه العادة لا تزال الى اليوم شائعة في بعض شعوب الصقالبة

وعلى هذا المبدأ كان الرومان يضعون الضرائب على اراضي مملكتهم ، وفي جملتها مصر والشام وغيرهما مما فتحه المسلمون من بلادهم . وكان لهم في كل ولاية ديوان خاص بالخراج تدون فيه اعماله ودخله وخرجه ، وله كتاب وجباة وعمال من اهل البلاد او من الحكام . وكان نحو ذلك حال الفرس في العراق وفارس ، لأن الفرس اقتبسوا كثيرا من قوانين اليونان والرومان

ديوان الخراج

فلما ظهر المسلمون وفتحوا الشام ومصر والعراق وغيرها، اقرروا الدواوين على ما كانت عليه من قبل ولم يغيروا فيها شيئا . وظل كتاب الدواوين من اهل البلاد انفسهم من النصارى والمجوس ، كما كانوا في عهد الدول السابقة . فكان عمال ديوان الخراج في مصر الاقباط ، ويكتبون ديوانهم بالقبطية . وعمال ديوان الشام الروم ، وكانوا يكتبونه بالرومية . وديوان العراق يكتبه الفرس بالفارسية . والعرب يراقبون اعمال الدواوين ويستولون على جبايتها ، كأنهم لم يريدوا بفتح البلاد امتلاكها لرغبتهم يومئذ في الدين عن الدنيا . فلما صار الامر الى بنى امية ، وانتقل المسلمون من غضاضة لبداوة الى رونق الحضارة ، ومن سداجة الامية الى حذق الكتابة ، وظهر

في العرب ومواليهم مهرة في الكتابة والحساب ، غيروا الدواوين الى لسانهم ، وسلموا أمورها الى رجال من المسلمين . واول من فعل ذلك منهم عبد الملك بن مروان (نحو سنة ٨١ هـ) فصارت الدواوين عربية من ذلك الحين . وربما كان عبد الملك الباديء بذلك التغيير ، ثم أتمه من جاء بعده ، لان ديوان مصر تم نقله الى العربية على عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ ، واما الحجاز فقد كان ديوانه في المدينة على ما وضعه عمر بن الخطاب ، كما ذكرناه في محله . وهو اشبه ان يكون ديوان الجند او ديوان الاعمال والجبايات ، لانه دون فيه أسماء الصحابة وعين أعطياتهم وطبقاتهم ، وضبط ما يرد على المدينة من بقايا الخراج والجزية ، بعد دفع نفقات الجند في مصر والعراق

وكان الخلفاء هم الذين يتولون النظر في امر الخراج ، ويراقبون سير الجباية ، فلما أفضى الامر الى الدولة العباسية وضعوا ديوانا مركزيا للخراج يشمل ما تحته من دواوين الاعمال - وضعه السفاح وعهد امره الى خالد بن برمك جد البرامكة ، وكان ذلك اول خطوة لتداخل البرامكة في شؤون الدولة وتصرفهم في أموالها . وكان في جملة تصرفهم فيها انهم كانوا يضمنون مبلغ الخراج لاولادهم وأهلبيهم ، كما ضمن يحيى بن برمك في أيام المهدي خراج فارس وانكسر عليه المال . واصبح ديوان الخراج في ايدي الوزراء مثل غيره من الدواوين ، حتى اذا ضعفت الدولة العباسية وصارت أمورها الى الامراء ابطلت الدواوين في أيام الرازي بالله

تقدير الخراج

قلنا فيما تقدم أن العرب اقرروا الخراج : دواوينه وسائر احواله على ماكان عليه في أيام الدول السابقة (الروم والفرس) ويؤخذ مما ذكره المقرئزي أن جباية خراجهم كانت بالتعديل ، وهو ما يعبرون عنه بالمقاسمة - اذا عمرت القرى وكثر اهلها زيد خراجهم ، وان قل اهلها وخربت نقصوه

وكانت جباية الشام على نحو ذلك ايضا . واما الفرس فكانوا يأخذون خراج ارضهم بالمقاسمة ، حتى مسح قباذ بن فيروز قبل الاسلام وجعله بالمساحة ، فضرب على الجريب الواحد درهما وقفيزا (الجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع) مهما يكن حاله من الخصب او الجذب . فلما فتح المسلمون البلاد عدلوا في الخراج على ما اقتضته الاحوال في سائر البلاد . ولهم قوانين عامه في الارضين ، فالارض في الاسلام اربعة اقسام :

١ - ارض استأنف المسلمون احياءها ، فهي ارض عشر ، للامام عشرها ، وتعد من قبيل احياء الموات

٢ - ارض اسلم اهلها عليها ، فهم احق بها ، وهي ايضا ارض عشر

٣ - ارض ملكها المسلمون عنوة ، فهي غنيمة لهم ، وتعد ايضا من ارض العشر

٤ - ارض صولح اهلها عليها ، وهي الارض المختصة بالخراج ، وخراجها لا يبطل ولو اسلم اهلها

وقدر الخراج على هذه الارض يعتبر بما تحمله . فلما فتحت العراق وضع عمر على سواده مثل ما كان الفرس قد وضعوه عليه ، وهو عن كل جريب من الارض قفيز ودرهم ، والقفيز عشر الجريب اى ٣٦ ذراعا مربعا . وضرب عمر على ناحية اخرى بطريقة اخرى ، فجعل مقدار الخراج تابعا لنوع المحصول . فأمر عثمان بن حنيف بالمساحة فمسح ، ووضع على كل جريب من الكرم والشجر الملتف عشرة دراهم ، ومن النخل ثمانية دراهم ، ومن قصب السكر ستة دراهم ، ومن الرطبة خمسة دراهم ، ومن القمح اربعة دراهم ، ومن الشعير درهمين . فقبل عمر بذلك . وظلت ارض العراق بالمساحة او التوظيف او الوظيفة ، الى ايام المنصور العباسي فعدل الى المقاسمة ، لأن السعر نقص فلم تكن الغلات تفي بخراجها ، وخرّب السواد فجعله مقاسمة اذا زادت الغلة زاد الخراج . وتقدير خراج المقاسمة مفوض الى الخليفة ، لكنه لا يزيد على نصف الغلة ولا يقل عن خمسها

ملكية الارض

اما ملكية الارض فظلت كما كانت عليه في اول الاسلام ، اى ان الارض ملك للامام (*) ، وان الناس يستفلونها وللحكومة حق من غلتهم ، ما عدا بعض الاراضى الممتازة مما يسمونه الامواسى او الرزقة او نحوهما ، مما لا محل لتفصيله هنا . حتى دخل القرن التاسع عشر وجرت الاصلاحات السياسية في المملكة العثمانية وفي جملتها مصر ، فانها لما دخلت في حوزة محمد على في اوائل القرن الماضى رأى ان الاحوال لا تستقيم والفلاح لا يعمل فى ارضه الا اذا كانت ملكا له . وكانت لما تولاها محمد على قد اصبحت التزامات يلتزمها بعض وجهاء الناس واهل الفنى والنفوذ ، ويستخدمون الفلاحين فيها ويستفلونها فيدفعون مال الحكومة ويستأثرون بما بقى . فقسم

(*) الارض ملك للامام من الناحية النظرية ، والناس قوامون عليها بما فيه صالحها وصالحهم ، ويعبرون عن ذلك بأن رتبة الارض ملك للامام ، واما الانتفاع بها فمن حق الناس . وقد استقرت اوضاع الاراضى فى صدر الاسلام بحسب ظروف كل منها ، فمنها اراض كانت ملكا لاصحابها يتصرفون فيها كيف يشاءون كأراضى العرب وارضى الصلح لمعظم ارض مصر ، اما اراضى العنوة فقد كانت ملكا للامام فعلا يزرعها من عليها ويؤدون عليها الخراج ، وكانت هناك اراض ذات وضع خاص كأرض نجران من اليمن . ثم أخذ الخلفاء يقطعون الناس من اراضى العنوة حتى نفذت ، واصبحت الارض كلها ملكا للناس يتبايعونها ويتوارثونها ، لان الاسلام لا يحرم الملكية العقارية . وظل الامر على ذلك حتى جاء خلفاء بنى عثمان فاستعادوا ملكية رقاب الارض ، ولم يبق للناس الا حق الارتفاق . ودرج خلفاء الالتزام على اعطاء الاراضى للمتزمين ، اى الذين يلتزمون بأداء مال الدولة عنها ، ولهم ان يتصرفوا فيها كيف شاءوا ، مما اضاع معنى ملكية الاراضى

محمد على مصر الى مديريات ، والمديريات الى مراكز او اقسام ، وهذه الى نواح . وعين فيها موظفين لادارة امورها ، وجباة لجمع الضرائب ، وابطل الالتزامات ووزع اراضي كل ناحية بين اهل تلك الناحية نفسها . بحيث ان كل فلاح قادر على الشغل اصابه قسم من الارض بقدر قسم الآخر

فلما تولى الخديو سعيد أصدر لائحته الشهيرة المؤرخة في ٥ اغسطس سنة ١٨٥٨ فتم ملكية الارض للاهالي وجعلها ارثا شرعيا في ذرياتهم . واصبحت الارض المصرية ملكا للمصريين من ذلك الحين . وجرى نحو ذلك في سائر بلاد الدولة العثمانية لأن الخليفة العثماني صادق على لائحة سعيد بخط همايوني في هذا المعنى

ارتفاع الخراج

ويراد به مقدار ما يجتمع من خراج البلاد في كل عام ، وهو امر يعسر تعيينه لاختلافه باختلاف الزمان والمكان ، ولأن مؤرخي العرب كثيرا ما يجمعون بين الجزية والخراج في تقدير الخراج ، فيقولون : ارتفاع الخراج ، ويريدون به الخراج والجزية جميعا . والجزية أقل من الخراج وأقل ثباتا منه ، لما يدخل من اهل الذمة في دين الاسلام بتوالي الازمان . وربما ادخلوا في الخراج ايضا العشور ونحوها . ونحن ذاكرون فيما يلي امثلة من جباية أعمال المملكة الاسلامية في عصر بنى أمية :

فالسواد بلغ ارتفاع خراجه في ايام عمر بن الخطاب (سنة ٢٠ هـ)
 ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وفي ايام عبيد الله بن زياد (نحو سنة ٦٢ هـ)
 ١٣٥.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وفي ايام الحجاج بن يوسف (سنة ٨٥ هـ)
 ١٨٨.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وجباه عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠٠ هـ)
 ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وكان ابن هبيرة بعده يجبيه ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم
 سوى طعام الجند وارزاق المقاتلة ، ثم كان يوسف بن عمر يحمل منه الى دار
 الخلافة ٦٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم الى ٧.٠٠٠.٠٠٠ وينفق على من معه من
 جند الشام ١٦.٠٠٠.٠٠٠ ، وعلى البريد ٤.٠٠٠.٠٠٠ ، وعلى الطوارق
 ٢.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، ويبقى عنده للنفقة على بيوت الاحداث والعواتق
 ١.٠٠٠.٠٠٠ ، فكان مجموع جباية السواد على ايامه نحو ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠
 درهم (*)

(*) بين المؤرخين خلاف في هذه التقديرات ، فالمقريزي مثلا يجعل جباية مصر ايام عمرو ابن العاص ١٢ مليون دينار أو ١٦ مليونا ، ويجعل جباية السواد ١٨٧ مليونا أو ١٦٠ مليون درهم وهكذا . وهذه الأرقام كلها تقديرية ، ولا يمكن حسابها على وجه التدقيق ، انها تمطينا مجرد فكرة عن الجانب المالي للدولة الاسلامية
 انظر : المقريزي : افئدة الامة بكشف الغمة ، طبعة زيادة والشبال ، القاهرة ١٩٤٠ ص ٦٢

اما مصر فقد جباها عمرو بن العاص ١٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار . ولكن يظهر من عبارة المقرئى انها مبلغ الجزية وحدها على الجماجم ، على فريضة دينارين من كل رجل ، قال : وجباها بعده عبد الله بن سعد بن أبى سرح ١٤ مليوناً . وقلَّ خراجها في أيام بنى أمية . حتى اذا كانت أيام هشام ابن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٧ هـ) انتبه لها ، فبعث الى عامله على خراجها وامره ان يمسحها ، فخرج بنفسه فمسح الهامر والهامر مما يركبه ماء النيل . فوجد مساحة ذلك ٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان (١) سوى ارتفاع الجرف ووسخ الارض ، فعدها فعقدت معه ٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وكان السعر راخيا . وجباها اسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبد الملك (سنة ٩٧هـ) ١٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم . واختلف مقدار الجباية بمصر بعد ذلك ، وضعف امرها خصوصا لما صارت الى بنى العباس ، وبعد مركز الخلافة عن وادى النيل ، حتى انحط خراجها الى ٨٠٠٠٠٠٠٠ دينار . فلما تولاهما ابن طولون (سنة ٢٥٧ هـ) استقصى عمارتها فبلغت جبايتها ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، مع رخص الاسعار ، فقد كان القمح كل عشرة ارادب بدينار . وظل خراجها نحو ذلك في سائر أيام بنى العباس

واما الشام فقد بلغ خراجها في أيام عبد الملك بن مروان ١٧٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، منها ١٨٠٠٠٠٠٠٠ من الاردن ، و ٣٥٠٠٠٠٠٠٠ من فلسطين ، و ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ من دمشق ، و ٨٠٠٠٠٠٠٠٠ من حمص وقنسرين والعواصم

تضمين الخراج

٤

تضمين الخراج نوعان :

١ - تضمينه للعمال ، اى الولاية الذين يتولون الامصار ، وهو باطل في الشرع الاسلامى ، لأن العامل مؤتمن يستوفى ما وجب ويؤدى ما حصل . فهو كالوكيل الذى ادى الامانة ، لم يضمن نقصانا ولم يملك زيادة . وكان الصحابة في صدر الاسلام يشددون في منع هذا التضمين : حكى عن ابن عباس ان عاملا أتاه يتقبل منه الابلة بمائة الف درهم فضربه مائة سوط وصلبه حيا تعزيرا وادبا . ولما صارت الخلافة الاسلامية ملكا اغضوا عن هذا الأمر ، وصار الخلفاء يضمنون الخراج لعمالهم احيانا ، فيعطون بخراج اعمالهم مالا معيناً ، ثم يجبون البلاد ويستولون على ما يفضل مهما كان مقداره ، كما فعل يحيى بن برمك وغيره ، وتطرقوا بعده الى تضمين القضاء والحسبة والشرطة كما سترى

(١) راجع ملاحظتنا على هذه المساحة في باب المملكة الاسلامية واحصائها .

(*) قد أرجأت التعليق عن ذلك الرقم الى الموضوع المشار اليه في الجزء الثانى من الكتاب .

٢ - تضمين الخراج للملتزمين ، وهم اناس من اهل الفنى او النفوذ كانوا يتقبلون الاراضى ، اى يضمونها من متولى الخراج بمال معين يقع عليه بالمزايدة ، فيضمن الواحد قرية او بلدا او كورة فيزرعها ويستغلها ، ويدفع ما عليها من الخراج ويستولى على الباقي . وضمانة الاراضى او التزامها على هذه الصورة ليس من مخترعات الاسلام ، بل هو قديم من ايام اليونان ، وقد شاع فى المملكة الرومانية وكان فى جملة ما اقتبسه العرب عنهم . وظل ضمان الاراضى على هذه الصورة شائعا فى المملكة الاسلامية الى عهد قريب ، وقد مرت عليه ادوار تقلب فيها على اشكال وضروب ، ومن هذا القبيل ضمان الاعشار فى المملكة العثمانية

ضرائب اخرى

توابع الخراج

وكان من موارد الاموال فى الاسلام ، غير خراج الاراضى وعشورها والصدقات والجزية ، اعشار السفن واخماس المعادن والمراعى وغلة دار الضرب والمراسد والضياح واثمان الماء وضرائب الملاحات والآجام ، وغيرها مما يعد من قبيل الخراج

اما اعشار السفن فكانوا يضربونها على السفن التى تمر ببعض الثغور ، فيأخذون عشرا مما تحمله اما عينا او نقدا . فقد كان عمال اليمن يأخذون هذه الضريبة من السفن التى تمر بسواحلهم قادمة من الهند ، تحمل الاعواد المختلفة والمسك والكافور والعنبر والصندل والصينى فيأخذون الضريبة عينا . وقد بلغت اعشار السفن فى ايام الواصل بالله مالا كثيرا

وكان الاندلسيون يضربون على السفن التى تمر ببوغاز جبل طارق فى ذهابها وايابها ، فكان الافرنج او غيرهم اذا مروا بسفنهم ادوا الضريبة فى مدينة هى فى أقصى بلاد الاندلس جنوبا يقال لها طريف واسمها الآن طريفة (Tarifa) ، ويزعم الافرنج فى كلمة (Tariff) - التى تدل عندهم على الضرائب او الرسوم التى تؤخذ على البضائع فى دخولها البلاد وخروجها ، او الكتاب المتضمن بيان لائحة الاثمان - انها تحريف « طريف » المشار اليها ، لانهم كانوا يسمون ما يدفعونه من رسوم السفن « رسوم طريف » ، ثم اهمل اللفظ الاول وبقي اللفظ الثانى . مع أن لفظ « تعريفة » فى العربية يدل على نحو معناها الافرنجى ، فيجوز ان اللفظ الافرنجى منقول عن لفظ تعريفة العربى او تحريف « طريف » كما يقولون

واما اخماس المعادن فهى ما كانوا يضربونه على ما يستخرج من باطن

الأرض من معدن أو نحوه ، وهى نوعان : معادن ظاهرة ، ومعادن باطنة .
 والمعادن الظاهرة كالكحل والملح والقار والنفط ، فهذه المعادن مباحة فى
 الشرع الإسلامى كالماء الجارى من العيون لا يجوز احتكارها ، والناس فيها
 سواء يأخذها من ورد إليها . وأما الباطنة فهى ما كان جوهرها مستكنا
 فيها ، لا يوصل إليه الا بالعمل كمعادن الذهب والفضة والنحاس والحديد
 والرصاص ، فهذه المعادن كانوا يقطعونها لأناس يستخرجون ما فيها على ان
 يؤدوا الخمس لبيت المال

وغلة دار الضرب هى ما يخصص لبيت المال من دار الضرب ، باعتبار
 شىء فى المائة كما ذكرنا فى كلامنا عن دار الضرب من هذا الكتاب . وقد بلغت
 غلة دار الضرب فى عهد بنى مروان بالاندلس ٢٠٠٠٠٠ دينار فى السنة

ومن الضرائب التى كانت تؤخذ فى الإسلام المكوس ، واحدها مكس ،
 وهو ضريبة تضرب على اصناف التجارة من قبيل ما يعرف اليوم بالجمرك
 أو الفردة (الفرضة) أو نحوها . وكان المكس ، أو المقس ، شائعا فى
 الجاهلية ، فكان يؤخذ من تجار القبط والفرس فى المدينة عشر متاجرهم .
 فلما ظهر الإسلام اقره عمر بن الخطاب (١) وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ
 من التاجر الا اذا انتقل من بلاده الى بلاد أخرى . فالشامى اذا طاف بلاد
 الشام كلها بتجارته لا يؤخذ منه عشر او مكس ، واما اذا انتقل الى مصر
 أو العراق فيؤخذ منه المكس . والمكس على ما فرضه عمر ثلاث
 درجات : يؤخذ من اهل الذمة (النصارى واليهود) نصف العشر ، اى من
 كل عشرين درهما درهم . ومن المسلم ربع العشر ، اى من كل ٤ درهما
 درهم . وليس فيما دون المائتين شىء . ويؤخذ من العربان الذين ليسوا
 من الرعايا العشر كاملا . ولم يرج المكس فى الإسلام ، لان اهل الورع كانوا
 يكرهونه . وقس على ذلك ما بقى من انواع الضرائب

الاقطاع

ومما يلحق بالخراج ايضا مال القطنع . والاقطاع قديم فى الدول ، واصله
 أن الملك اذا فتح بلادا وأراد استبقائها واستغلالها، فرقها على قواده فى مقابل
 حربهم واتعابهم كأنها اجرة لهم ، ويؤيد ذلك ان اصل لفظ الاقطاع فى
 الأفرنجية معناه الاجرة . والقواد يفرقون تلك الأرض فى ضباطهم ، وهؤلاء
 يفرقونها فى العساكر أو من يقوم مقامهم . ويشترط الملك على قواده عند

(١) المقرئى ١٢١ ح ٢

اعطائهم هذه الهبات ان يكونوا امناء له في الحرب والسلام ، فاذا خان احدهم ونكث رجعت الارض الى واهبها . واذا كان الخائن جنديا صغيرا رجعت الى ضابطه ، او كان ضابطا رجعت الى قائده ، وهكذا حتى ترجع الى الملك . فكان من عواقب هذا المبدأ أن تبقى الارض في أيدي الملوك ، بشروط وأساليب وضعوها لذلك لا محل لاستيفائها هنا . وبمقتضاها يكون الملك ورعيته وجنده يدا واحدة في الدفاع عن البلاد لاشتراك مصالحهم وتبادلها فيها . وانتشر مذهب الاقطاع في ممالك اوربا

اما في الاسلام فالاقطاع كان على كيفية اخرى . ويؤخذ مما كتبه الامام ابو يوسف ، ان الارض التي تقع في ايدي المسلمين وليس لها مالك يطالب بها - كالارض التي تكون لحاكم البلاد قبل فتحها ، او تكون لرجل قتل في الحرب ، او ان تكون من مفيض ماء او نحو ذلك - فهذه الاصناف من الارض كان الخلفاء الراشدون يجيزون اقطاعها لمن شاءوا ، على ان يؤدي عشر مالها لبيت المال او اكثر او اقل ، على ما يتراءى للخليفة . فبلغ خراج البقاع التي دخلت تحت هذه الشروط من ارض السواد في ايام عمر ۷۰۰۰۰۰ درهم . وجرى على نحو ذلك من جاء بعده من الخلفاء والامراء ، فبلغت غلتها في ايام عثمان ۵۰۰۰۰۰۰ درهم . فلما كان عام الجماجم سنة ۸۲ هـ في فتنة عبد الرحمن بن الاشعث احرق الديوان ، فاستولى كل قوم على ما كان في ايديهم (*)

وكان بنو امية وبنو العباس يقطعون الارضين لبعض خواصهم واهلهم ، فلا يأخذون عليها خراجا ، فتؤخذ اعطيات الجند وسائر النفقات من مال الخراج ، ويحمل ما فضل الى بيت المال ، والقطائع تبقى في ايدي اصحابها فلما خرجت السلطة من الخلفاء وافضت الى السلاطين السلجوقية ، جعلوا الاقطاع عاما على يد نظام الملك ، كما تقدم في الكلام عن اعطيات الجند . واقتدى به سائر السلاطين بعده وفي جملتهم الاكراد ، دولة بنى ايوب بمصر . فان السلطان صلاح الدين جعل البلاد كلها اقطاعا لامرائه وجنده ، وخصوصا مصر . ثم تعدل الاقطاع بعد ذلك وتبدل ، فصارت بعض الارض اقطاعا وبعضها مبيعا وبعضها موقوفا . ووصف المقریزی ارض مصر في

(*) يجوز أن يكون احراق الديوان سببا في استيلاء الناس على ما بأيديهم من ارض اقطاعية ، ويجوز أن يتم استيلاء الناس على ما بيدهم نتيجة لعملية تطور طبيعية ، فان الناس اذا استمرت حياتهم لقطعة ارض ازمانا طويلة ، وتوارثها عنهم ابناؤهم أصبحوا في الواقع اصحابها بحق الارتفاق ، ماداموا يؤدون المال عنها ، ونظرا لتغير الحكومات وتوالي الحكام وعدم الاستقرار في تلك العصور يضيع حق السيادة على الارض ، ولا يصبح للحاكم ايا كان الا المال الذي يؤدي عن الارض مهما كان مصدره ، وهذا هو الذي حدث في الغرب وفي بلاد الاسلام ايضا

ايامه (في القرن التاسع للهجرة) فقال انها تقسم الى سبعة اقسام : قسم يجرى في ديوان السلطان ، وقسم اقطع للامراء والاجناد ، وقسم جعل وقفا . محبسا على الجوامع والمدارس والخوانك وعلى ذراري واقفى تلك الارض ، وقسم يقال له الاحباس وهي اراض في ايدى قوم ياكلونها عن قيامهم بمصالح مسجد او نحوه ، وقسم صار ملكا يباع ويشرى ويورث ويوهب لانه مشترى من بيت المال ، وقسم لا يزرع للعجز عن زراعته ، وقسم لا يشمل ماء النيل فهو قفر

والاقطاع ضربان : اقطاع استغلال ، واقطاع تملك . وهما يختلفان باختلاف نوع الارض من الخراب والخصب ، وحالتها من الحرب والصلح والفتح وراى الخليفة في كل ذلك

وسنفضل الكلام في مقدار جباية الدولة في ايام العباسيين ، وعلاقة ذلك بشروة المملكة في كلامنا عن ثروة المملكة الاسلامية ، في الجزء الثانى من هذا الكتاب

البريد

يراد بالبريد في الدول الاسلامية غير ما يراد به الآن . فقد كان صاحب انبريد او صاحب الخبر اشبه برئيس البوليس السرى ، او رقيب اصحاب الاعمال ، او هو عبارة عن جاسوس الخليفة أو الامير ، أو عينه الباصرة وأذنه السامعة ، ينقل اليه اخبار عماله او مساعى اعدائه . فالبريد من هذا القبيل أشبه بقلم المخابرات

وكان الخلفاء لا يولون البريد الا ثقتهم من اهل التعقل والدراية ، لان على ما ينقلونه من الاخبار تتوقف علاقات الخلفاء بعمالهم او بمعاصريهم . وكان كسرى لا يولى البريد الا اولاده

ولاية البريد

وولاية البريد قديمة ، كانت عند الفرس والروم . واول من اتخذها من المسلمين معاوية بن ابي سفيان ، اقتداء بما كان قبله في الشام او ما اشار عليه به عماله في العراق . وكان الغرض منه في اول وضعه ، سرعة ايصال الاخبار بين الخليفة في الشام وعماله في مصر والعراق وفارس . ثم توسعوا فيه حتى جعلوه عينا للخليفة على عماله وسائر رجال دولته . فان طاهر ابن الحسين لما قطع الخطبة للمأمون على منبر خراسان ، عاتبه صاحب البريد فاعتذر انه سهو وقع منه ، وتقدم اليه ان لا يكتب الى الخليفة به . وتكرر ذلك منه ثلاث مرات وطاهر يتقدم اليه ان لا يكتب ، فقال له صاحب البريد : « ان كتب التجار لا تنقطع من بغداد ، وان اتصل هذا الخبر بأمر المؤمنين من غيرنا لم آمن ان يكون سبب زوال نعمتى » . فقال : « اكتب اليه » ، فكتب

وكان البريد واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل اوامر الخلفاء الى ولايتهم واخبار الولاة الى خلفائهم . وكان اصحاب البريد رقباء او مفتشين من قبل الدولة ، يرفعون التقارير عن احوال الجند او المال او غير ذلك من امور المملكة . فاذا تكدرت العلاقات بين العامل (الوالى) والخليفة ، واراد العامل ان يستقل او يتمرد ، قطع البريد عن الخليفة ، كما فعل المأمون لما سمع وهو وال في خراسان ان اخاه الامين تقض بيعته وباع ابنه موسى بولاية العهد بعده ، فانه اسقط اسم الامين من الطراز وقطع البريد عنه وكان بنو العباس اكثر الناس عناية في امر البريد ، وبالغوا في استخدامه

حتى نسب الى بعضهم مباشرة ذلك بنفسه للاطلاع على احوال ولايته ونوابه ورعيته ، وربما تطلعوا به على احوال العوام وآحاد الناس . وقد رتب بعض الخلفاء ذلك جهارا ، فعين مع وزيره صاحب خبر من الثقات ينهى اليه ما يجرى في مجلسه ، فلا يحسن الوزير لأحد ولا يجتمع به احد من الناس الا بحضور ذلك الشخص . وكذلك فعل مع القاضي والنائب وجميع ولاية الاعمال . وكان ابو جعفر المنصور يقول : « ما احوجنى ان يكون على بابى اربعة نفر لا يكون على بابى اعف منهم ، وهم اركان الدولة ولا يصلح الملك الا بهم : اما احدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية » ثم عرض المنصور على اصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول في كل مرة : « آه ! آه ! » . قيل : « ما هو يا امير المؤمنين ؟ » . قال : « صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة »

فأصحاب الاخبار هنا بمعنى جواسيس هذه الايام ، ولم يكن بين صاحب البريد والخليفة او السلطان او الامير واسطة ، فاذا جاء صاحب البريد بخبر لا يطلع احدا عليه قبل انهائه الى الخليفة ، ليكون هو الذي يشيعه او يكتبه على ما يراه

وقد يجعل الملوك او الامراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سرا ، فلا يعتمد احدهم كتاب صاحب بريده الا اذا كانت فيه تلك العلامة - ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه ، اذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه ، نحو ما فعل ابو مسلم الخراساني لما دعاه المنصور اليه من خراسان الى بغداد ، وخاف ابو مسلم عاقبة تلك الدعوة فاستخلف ابا نصر مالك بن الهيثم على عسكره وقال له : « اقم حتى يأتيك كتابي ، فان اتاك مختوما بنصف خاتم فأنا ختمته ، وان اتاك بالخاتم كله فلم اختمه » . فلما جاء ابو مسلم الى المنصور في المدائن وكان ما كان من قتله ، كتب المنصور الى ابي نصر عن لسان ابي مسلم يأمره بحمل ما خلف عنده وان يقدم ، وختم الكتاب بخاتم ابي مسلم ، فلما رأى ابو نصر الخاتم تاما علم ان ابا مسلم لم يكتبه

ومصلحة البريد ولاية جليلة خطيرة ، يحتاج صاحبها الى عمال عديدين والى نفقات طائلة للتوسعة عليهم حتى يظلوا على امانتهم . وكان في جملة واجبات صاحب البريد حفظ الطرق وصيانتها من القطار والسراق ، وطرق الاعداء وانسداد الجواسيس في البر والبحر . واليه كانت ترد كتب اصحاب النفور وولاية الاطراف ، وهو يوصلها في اسرع ما يمكن من اختصار الطرق واختيار المراكب

طرق البريد

وكان للبريد طرق تتشعب من مركز الخلافة الى اطراف المملكة ، حتى تتصل بطرق الممالك الاخرى . وتنقسم كل طريق الى محطات او مواقف فيها افراس او هجن ، فيستبدل عمال البريد افراسهم بأفراس مستريحة في كل موقف التماسا للسرعة . وكان الغالب في العرب ان يتخذوا الجمال لبريدهم ، واما الفرس فكانوا يستخدمون الخيل

وبلغ عدد سكك البريد في ابان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة ، ونفقات الدواب واثمانها وارزاق رجالها . ١٥٩١٠٠ دينار في السنة . وقد رأيت في كلامنا عن خراج السواد في ايام بنى امية انه كان ينفق على البريد اربعة ملايين درهم ، اى نحو ضعفى ذلك . وهو يؤيد ما قلناه غير مرة عن بذل بنى امية الاموال في سبيل تأييد سلطانهم

وكان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر ، حتى تبلغ اربعين او خمسين دابة . وكثيرا ما كانوا يستخدمون خيل البريد لحمل بعض الناس الى الخليفة او الامير ، التماسا لسرعة قدومهم . وتختلف سرعة البريد باختلاف الطرق ونوع المراكب ، بين ان تكون ابلا او خيلا . وكانوا يعلقون في اعناق الدواب جلاجل او سلاسل ، اذا تحركت سمعت لها قرقعة تعرف عندهم بققعة البريد . وقد ترسل البرد على السفن في البحار

ومن طرق المخابرة بالبريد ، غير نقل الخرائط على الدواب أو في البحار ، ارسالها مع الساعة . وهم رجال خفاف تعودوا الجرى والصبر على السير ثلاث مراحل في رحلة ، واهل البرارى انشط لذلك . واول من انشأ الساعة في الدولة العباسية معز الدولة ، انشأهم في بغداد لاعلام اخيه ركن الدولة بالاحوال سريعا . ونبغ في ايامه ساعيان ، اسم احدهما فضل والآخر مرعوش فاقا سائر الساعة . وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفا وأربعين فرسخا ، اى نحو ١٤٠ ميلا واتصل استخدام الساعة في سائر الدول الاسلامية

حمام الزاجل

ومن وسائل المخابرة بالبريد حمام الزاجل ، فقد كان له شأن عظيم عندهم ، والمخابرة به قديمة جدا عند الامم القديمة . ولكن المسلمين كانوا اكثر عناية من سواهم فيه ، ويقال ان اول استخدامه كان في الموصل ، ثم في مصر على عهد الفاطميين فالعباسيين . وكانت الاسكندرونة في سوريا وبين

مدينة بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب . على انهم لم يعتنوا به العناية الكافية ، ولم ينشئوا له الادارات الخاصة ، الا في العصور الاسلامية الوسطى . فانهم بذلوا في ذلك عناية كبرى ، ولا سيما ، مصر . فقد كان للمخابرة بالحمام ابراج في قلعة القاهرة على عهد الايوبيين في القرن السابع للهجرة . وقد بلغ عدد الحمام المستخرج لهذه الغاية فيها الفا



حمام الزاجل

وتسعمائة طائر ، لها عمال يناط بهم امر العناية بها . وكانت الطيور المذكورة لا تبرح الابراج بالقلعة . وكان بكل مركز حمام في سائر نواحي المملكة بمصر والشام والعراق من اسوان الى الفرات . فلا تحصى عدة ما كان منها في الثغور والطرق الشامية والمصرية ، وجميعها تدرج وتنقل من القلعة الى سائر الجهات (١)

طرق اخرى للمخابرة

ومن طرق المراسلة عندهم ان تكتب ورقة تعلق بقصبة ، وتغرس القصبة في باقة حشيش وتلقى في الماء ، فيعم الحشيش ولا يزال جاريا بمجرى النهر حتى يراه المرسل اليه . ومنها ان تكتب الاخبار على السهام وترمى الى المكان المراد ارسال الخبر اليه ، ويفلب ان يكون ذلك في ايام الحصار وانقطاع السبل

ومن طرق المخابرة بناء المناظر او المنائر كالابراج العالية على المرتفعات ، ونقل الاشارات عليها باشعال النار او نحوه ، فينتقل الخبر بها من منظرة

(١) تفصيل ذلك في الهلال ص ٢١٢ سنة ٦٠

الى منظره حتى تبلغ المكان المطلوب . وكان ذلك معروفا عند اليونان وغيرهم ،
 واستخدمه الحجاج بن يوسف في الاسلام ، فاتخذ المناظر بينه وبين قزوين .
 وكان اذا دخن اهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهارا ، وان كان ليلا اشعلوا
 نارا ، وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط فيصل الخبر في وقت قصير
 ومن عمال البريد - ما عدا السعاة - الشعوذى وهو رسول الامراء
 على البريد ، والكوهبانية وهم اصحاب الاخبار الذين يرسلون للاستطلاع ،
 ورجال يتولون فض الخرائط بين يدي الخليفة ، والخرائط اجربة او اكياس
 من جلد توضع الكتب فيها وتختم بختم المرسل وتحمل الى المرسل اليه ،
 فيفض ختمها بيده او بيد من يتولى ذلك عنه

القضاء

تاريخ القضاء

القضاء قبل الاسلام

القضاء - ويراد به منصب الفصل بين الناس في الخصومات - قديم ، لأن الانسان لم يستغن عن الفصل في قضاياه من اول ازمان وجوده . وكان قضاة القبائل عقلاءها وكبراءها ، وهم أيضا حكامها وامراؤها . فكان الرجل اذا نبغ في عقله وقوته تولى حكومة قبيلته وحكم في قضاياها ، وهو حال البدو على فطرتهم . وكذلك كان العرب في جاهليتهم ، فقد كانوا يتقاضون الى وجهائهم وعقلائهم . واشتهر من هؤلاء القضاة قبل الاسلام جماعة كبيرة يحكم كل منهم في قبيلته ، فمن تميم : حاجب بن زرارة والاقرع بن حابس وربيعه بن مخاشن ، ومن ثقيف : غيلان بن مسلمة ، ومن قريش : هاشم بن عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم وابو طالب بن عبد المطلب عم النبي والعاص ابن وائل ، ومن أسد : ربيعة بن جدار ، ومن كنانة : سلمى بن نوفل ، وغير هؤلاء ممن اشتهر في كل القبائل مثل اشم بن صيفى وعامر بن الظرب وغيرهما . وكان العرب يتقاضون الى الكهان والعرافين

القضاء في الاسلام

واما في الاسلام فأول من تولى القضاء رسول الله نفسه ، ثم تولاه خلفاؤه ، لان القضاء من المناصب الداخلة تحت الخلافة . فكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه الى من سواهم ، حتى اذا اتسع سلطانهم وكثرت مهام مناصبهم ، اضطروا الى استنابة من يقوم عنهم بالقضاء في مركز الخلافة وفي الاعمال . واول من فعل ذلك منهم عمر بن الخطاب ، فولى ابا الدرداء معه في المدينة ، وولى شريحا في البصرة ، وولى ابا موسى الاشعري في الكوفة ، وكتب اليه كتابا هو قاعدة الفقه الاسلامي ، وعليه تدور اكثر احكام القضاة الى اليوم ، وهذا نصه :

« اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم اذا ادى اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . ساو بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يياس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر . والصلح جائز بين المسلمين ، الا صلحا احل حراما او حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته امس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق ، فان الحق قويم

ومراجعة الحق خير من التماذى فى الباطل . الفهم الفهم نىما تلجلج فى صدرك مما لىس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها . واجعل لمن ادعى حقا غائبا او بينة امدا ينتهى الىه ، فان احضر بينة اخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه ، فان ذلك انفى للشك واجلى للعماء . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، الا مجلودا فى حد ، او مجربا عليه شهادة زور ، او ظنينا فى نسب او ولاء . فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات . واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فان استقرار الحق فى موطن الحق يعظم به الله الاجر ويحسن به الذكر والسلام « (١)

اما مصر فالقضاء فيها كان موكولا الى امرائها ، وهم الذين كانوا يولون قضاتها . وكان عمر بن الخطاب قد اراد ان يولى قاضى مصر ، كما ولى قضاء المدينة والبصرة والكوفة ، فكتب الى عمرو بن العاص ان يولى القضاء كعب بن يسار بن ضنة ، وكان ممن قضى فى الجاهلية ، فأبى كعب ان يقبل ذلك وقال : « قضيت فى الجاهلية ولا اعود الىه فى الاسلام » فولى عمرو عثمان بن قيس بن ابى العاصى (*) . وما زال امير مصر هو الذى يولى القضاء حتى افضت الخلافة الى بنى العباس ، فأرادوا توطيد سلطانهم على مصر فجعلوا تولية القضاء اليهم . واول قاض ولاء الخلفاء على مصر مباشرة عبد الله بن لهيعة الحضرمى ، ولاء ابو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ . ثم صارت تولية قضاء مصر الى الخلفاء

وكان القضاء اول الامر يولون على الاقاليم قضاء من قبلهم ، فيولون لكل ناحية قاضيا . فلما عمرت المملكة واتسعت ، تعدد القضاء حتى صاروا يولون فى المدن الكبرى عدة قضاء ، كل قاض فى جانب من جوانبها . والخليفة هو الذى يولى كلا منهم بنفسه ، الى زمن الرشيد وقد اتسعت بغداد فى ايامه . ونبغ يومئذ القاضى ابو يوسف الشهير ، وكان الرشيد يكرمه ويجله فدعاه قاضى القضاء ، وهو اول من دعى بذلك . وكان ابو يوسف على الهمة فخدم هذا المنصب خدمة جليلة وميز العلماء بلباس خاص بهم ، وكانوا من قبله يلبسون مثل سائر الناس . وصار قاضى القضاء

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ، ح ٢ ص ٣٩٦ - ٣٩٧
 (*) فى « الولاة والقضاء » للكندى ، ان عمر بن الخطاب هو الذى ولى قيس بن ابى العاصى قضاء مصر سنة ٢٣ هـ . فظل قاضيا ثلاثة اشهر ثم كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بان يولى كعب بن يسار بن ضنة ، فقال كعب : « والله لا ينجيه الله من امر الجاهلية ، وما كان فيها من الهلاك ثم يعود فيها ابدا » فتركه عمرو ، وقضى بين الناس فيها عثمان بن قيس بن ابى العاصى دون تولية . وظلت مصر بدون قاض من مقتل عثمان الى ولاية معاوية بن ابى سفيان فولى سليم بن عنز التجيبى ، ثم كان الولاة بعد ذلك يعينون قضاء مصر من قبلهم «
 انظر : ابو عمر محمد بن يوسف الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاء ، طبعة روفن جست (بيروت ١٩٠٨) ص ٢٩٩ - ٣١١

بعده هو الذي يولى قضاة مدينة بغداد ، ثم صار يولى قضاة الاقاليم .
واقتمدى بالعباسيين من عاصرهم وخلفهم من الخلفاء في الاندلس ومصر ،
وصاروا يولون قاضي القضاة وهو يولى القضاة (*)

عمل القاضي

وكانت وظيفة القاضي في صدر الاسلام محصورة في الفصل بين الخصوم ،
ثم صاروا يتعاطون امورا اخرى على ما تقتضيه الاحوال بحسب اشتغال
الخلفاء بأمور السياسة . فأضيف الى اعمال القاضي استيفاء بعض الحقوق
العامة للمسلمين ، كالنظر في اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى
والمفلسين وأهل السفه ، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم ، وتزويج
الايامى عند فقد الاولياء . . ثم امتدت سلطتهم احيانا الى النظر في مصالح
الطرق والابنية ، وتصفح الشهود والامناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة
فيهم بالعدالة والجرح (**). . وتوسع بعض الخلفاء حتى جعل للقضاة قيادة
الجهاد في عساكر الصوائف ، منهم يحيى بن اكثم فقد كان يخرج في ايام المأمون
بالصائفة الى ارض الروم . كذلك منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر
الاموي بالاندلس . وولى العزيز بالله الفاطمي القاضي على بن النعمان القضاء
بمصر ، وازاد اليه قضاء الشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز ،
والخطابة والامامة والعيار في الذهب والفضة والموازين والمكاييل . ثم تولى
القضاء ابو محمد البازوري سنة ٤٤١ هـ . وازيقت اليه الوزارة ، وهو
اول قاض جمع بينهما ثم اضيفت الي غيره بعده

فترى مما تقدم ان منصب القضاء كان واسعا جدا ، على انه لم يكن كذلك
في كل العصور ، وانما اختلف باختلاف الدول كما رأيت . ثم ان الخلفاء
كانوا في اوائل الاسلام لا يولون القضاء الا اهل عصبيتهم ، من العرب او
مواليهم بالحلف او بالرق او بالاصطناع ، ممن يوثق بكفايته او غنائه فيما
يدفع اليه . فلما تحولت الخلافة الاسلامية من الغرض الديني الى الغرض
السياسي ، وصار الامر كله ملكا او سلطانا ، ضعف هذا الشرط ، ثم
تحولت ازمة الاحكام الى الاعاجم ، فتقاصرت واجبات القاضي بالتدرج الى
الفصل بين الخصوم والحكم في الاحوال الشخصية . ثم انحصرت في الاحوال
الشخصية بالمحاكم الشرعية كما هو اليوم

وكان القضاة يجلسون في المساجد للحكم بين الناس ، فاذا جاءهم الخصوم
حكما بينهم هناك . وكانوا يعدون القضاء من الاعمال الشاقة الخطرة بالنظر

(*) كان المتبع في الاندلس ان يختار الامير او الخليفة شيئا فاضلا ويعتبره رئيس الفتيا ،
وهذا الرجل هو الذي يختار القضاة للعاصمة والاقاليم

(**) او بالتعديل والجرح ، وهو اصطلاح معناه الحكم بالصلاحيية وعدمها

الى الدين ، لما فيه من تحمل التبعة فيما قد يخطيء به القاضى ، فيحكم على صاحب الحق فيظلمه وهو مسئول عنه . فكثيرا ما كان العلماء ورجال التقوى يابون ولايته ، كما رأيت في أمر كعب بن يسار لما ولاه عمر قضاء مصر ، وكما فعل الامام أبو حنيفة النعمان لما أراد أبو جعفر المنصور أن يوليه القضاء فانه قال له : « اتق الله ولا ترع في أمانتك الا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تفرقني في الفرات أو تلغى الحكم لاخترت أن أغرق . ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ، ولا أصلح لذلك » . وكانوا اذا ولوا القاضى جاءوا به الجامع ، واحتفلوا هناك بقراءة السجل الصادر له بذلك



مجلس القضاء في غرناطة

وكان قضاء مصر على مذهب الامام الشافعى منذ ظهور هذا المذهب ، ولكن القاضى كان يستنيب من شاء من قضاة المذاهب الاخرى . وفي سنة ٥٢٥ هـ عين أبو أحمد بن الافضل أربعة قضاة يحكم كل منهم في مذهب من المذاهب الاربعة ، ثم توالى ذلك على هذا المنوال في أيام المماليك وكان منصب قضاء الجند (*) تارة يضاف الى القاضى الحنفى ، وتارة يضاف الى القاضى الشافعى ، وتارة ينفرد به قاض حنفى ، وماذاك الا لان قاضى العسكر انما ينتفع به في الجهاد ووقت خروج العسكر، وتقع وصايا من الامراء وشهادات بينهم ولا يوجد في العسكر الجالسين في المراكز أحد ، يحتاج الى اثبات ذلك عند القاضى الشافعى فلا يسمع شهادة العسكر فيتعطل اثبات ذلك ، فتبطل وصاياهم وشهاداتهم . فلهذا السبب ولى الملك الظاهر بيبرس القاضى الحنفى لما اتفق له في الجهاد مثل ذلك . وامتنع القاضى الشافعى في ذلك الوقت من شهاداتهم ، ثم بتداول الايام ودخول أكثر الممالك الاسلامية في قبضة الدولة العثمانية المقلد جمهور حكاهم لابي حنيفة النعمان ، انتهى الامر الى أن صار حصر القضاء على مذهب امامهم (١)

(*) أى القاضى الخاص بالجيش ورجاله
(١) رفاة رافع الطهطاوى : مناهج الالباب المصرية ، ص ٢٨٦

راتب القاضي

وأما راتب القاضي فيختلف باختلاف الدول والازمان ، فقد رايت في غير هذا المكان أن عمر بن الخطاب ولى شريحا قضاء البصرة وفرض له مائة درهم في كل شهر ومؤونة من الحنطة . وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك في سائر أيام الراشدين ، ثم تصاعدت في أيام بنى أمية مثل تصاعد رواتب الجند وسائر العمال . فلما كانت أيام العباسيين أصبح راتب قاضي مصر ثلاثين دينارا في الشهر . وأول من اقتضى هذا الراتب ابن لهيعة الذي ولاه المنصور كما تقدم . ثم تصاعد الراتب تصاعدا عظيما في أيام المأمون ، فبلغ عطاء عيسى



قاضي العسكر في الدولة العثمانية في القرن السادس عشر

ابن المنكدر قاضي مصر يومئذ ٤٠٠٠ درهم او نحو ٢٧٠ دينارا ، وهو راتب فاحش ، وربما جعل كذلك لغرض خاص . لانه اجيز فوق هذا الراتب بألف دينار . وعاد راتب قاضي مصر بعد ذلك يبضع وعشرين سنة الى الف دينار في السنة ، وأول من اقتضى هذا الراتب بكار بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر على عهد احمد بن طولون سنة ٢٤٥ هـ . وزاد ذلك في الدولة الفاطمية فأصبح راتب القاضي ، وهو قاضي القضاة يومئذ ، ١٢٠٠ دينار في السنة ما عدا

المؤونة والهدايا ، ولعلها استمرت على ذلك في دولة الايوبيين ومن تلاهم
 أما بغداد فاختلف راتب القاضى فيها باختلاف الازمان ، وكان في زمن
 المعتضد نحو ٥٠٠ دينار في الشهر ، بما فيه اجور عشرة من الفقهاء وخليفة
 القاضى . ثم دخل القضاء في الالتزام ، فصار القضاة يضمنون دخل القاضى
 بمال يؤدونه الى الخليفة او السلطان . وأول من ضمن القضاء عبد الله بن
 الحسن بن أبى الشوارب سنة ٣٥٠ هـ في أيام معز الدولة بن بويه ، فقد
 سمى قاضى قضاة بغداد ، والتزم القضاء على أن يؤدى ٢٠٠ الف درهم كل
 سنة . ثم صار ذلك أمرا مألوفاً ، وصاروا يضمنون الحسبة والشرطة (*)

ديوان المظالم

وهو من توابع القضاء ، ويشبه مانسميه اليوم « مجلس الاستئناف »
 بعض الشبه ، والغرض منه استماع ظلمات الناس من القضاة أو غيرهم .
 وكان العرب في جاهليتهم يلتفتون الى هذا الامر فيتحالفون على رد المظالم ،
 كما فعلت قريش قبل الاسلام . وذلك أنهم لما تعدد فيهم الزعماء وكثر
 التغالب والتجاذب ، اجتمعت بطونهم وعقدوا حلفاً على رد المظالم وانصاف
 المظلوم من الظالم ، وهو حلف الفضول المشهور الذى عقد في مكة والنبي عمره
 ٢٥ سنة ، وموضوعه الا يظلم أحد في مكة الا أنصفوه وأخذوا له حقه

ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الاربعة ، لان الناس في الصدر الاول
 كانوا بين من يقوده التناصف الى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم ، الا علياً
 فانه احتاج الى النظر في المظالم ، ولم تكن في الحقيقة كما صارت اليه بعدئذ .
 على انه لم يفرد لسماع الظلمات يوماً معيناً أو ساعة معينة ، وانما كان اذا
 جاء متظلم أنصفه . ثم أفردوا يوماً خاصاً للنظر في اقوال المتظلمين وتصفح
 قصصهم ، وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، ولكنه كان اذا وقف منها
 الى مشكل واحتاج فيه الى حكم رده الى قاضيه ابن ادريس الأزدي ، فكان
 ابن ادريس هو المباشر وعبد الملك الأمر . وأول من ندب نفسه لمباشرة المظالم
 عمر بن عبد العزيز الشهير ، ثم أهملت بعده الى أيام الدولة العباسية فجلس
 لها خلفاء بنى العباس ، وأول من جلس منهم المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم
 المأمون ، وآخر من تولاها منهم المهدي بالله محمد بن الواثق

وكانوا يسمعون ظلمات الناس وينصفونهم ، وفيهم من يتظلم من الولاية
 أو من العمال أو من جباة الاموال أو من كتاب الدواوين ، في تقصيرهم بشيء
 من رواتبهم أو من أحد أبناء الخلفاء أو الامراء أو نحوهم من اهل الوجاهة

(*) أى ان القضاء أصبح مورداً خصباً يدر على صاحبه الربح ، فيدفع ملتزم القضاء لبيت
 المال مبلغاً معيناً في السنة ، ويتولى تعيين قضاة النواحي وما يلزمهم ويقوم برواتبهم ، ويتقاضى
 من الناس رسوماً عالية تزيد أضعافاً على ما دفع

ممن يفتصبون الاموال أو الضياع ، أو من القضاة لانهم لم ينصفوهم في احكامهم ، أو من أى انسان كبيرا كان أو صغيرا . فهو اوسع دائرة من مجلس الاستئناف ، واطول باعا واشد وقعا واسرع نفوذا . ومن امثلة ما ردوه من المظالم على هذه الصورة أن عمر بن عبد العزيز خرج ذات يوم الى الصلاة فصادفه رجل من اليمن فاستغاثه فقال : « ماظلامتك ؟ » فقال : « غصبنى الوليد بن عبد الملك ضيعتى » فقال : « يامراجم اتنى بدفتر الصوافى » فوجد فيه : « أصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان » فقال : « اخرجها من الدفتر وليكتب برد ضيعته اليه ويطلق له ضعف نفقته »

وحكى عن المأمون أنه كان يجلس للمظالم يوم الاحد ، فنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة في ثياب رثة وتظلمت اليه في ابنه العباس ، فأوقفه بجانبها ورد ظلامتها . وبعد المهتدى لم يجلس الخلفاء العباسيون للمظالم ، على أنهم كانوا كثيرا ما يعهدون بهذا المنصب الى وزراءهم ، كما فعل المأمون ليحيى بن اكرم والمعتصم لاحمد بن ابي دؤاد ، فلما غلب السلاطين على بنى العباس صار النظر فى المظالم الى السلاطين

أما فى مصر فأول من نظر فى المظالم احمد بن طولون لما استقل بحكم مصر سنة ٢٥٧ هـ فكان يجلس لذلك يومين فى الاسبوع ، ثم صار خلفاؤه يولون من يقوم بها دونهم . حتى فتح الفاطميون مصر وبنوا مدينة القاهرة فاهتموا فى أمر المظالم ، وجلس لها أولا قائدهم جوهر فاتح مصر ، وكان يوقع على قصص المتظلمين بيده . ثم صار الخلفاء بعده يعهدون بذلك الى قاضى القضاة ، أو الى بعض علماء الدولة . فلما ضعف أمر الفاطميين واستبد وزراءهم بالحكم ، صارت المظالم الى الوزراء وأشهرهم فى ذلك الافضل بن شاهنشاه ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه . واقتدى به من جاء بعده ، وكانوا يجعلون بباب الديوان مناديا ينادى : « يا ارباب الظلمات ! » فيحضرون اليه فيأمر بانصافهم

دار العدل

ولما أفضت الحكومة فى مصر الى السلاطين الايوبيين ، بنوا دارا للنظر فى المظالم سموها « دار العدل » ، وكان قد سبقهم الى بناء مثل هذه الدار فى دمشق الملك العادل نورالدين زنكى . وكان الايوبيون يجلسون فى دار العدل للنظر فى المظالم . وجرى سلاطين المماليك بعدهم على ذلك ، وكانت لهم عناية كبرى بانصاف الناس ، وكانوا يحترمون مجلسهم للمظالم فلا يقعدون فيه على تخت الملك ، ولكنهم يجلسون على كرسى بجانبه حتى تلحق ارجلهم الارض ، فاذا جلس السلطان على ذلك الكرسى يجلس قضاة من المذاهب الاربعة على يمينه ، ووكيل بيت المال وغيرهم من ارباب الوظائف والحرس والخاصة

بين يديه ، وفيهم من يقرأ الظلمات للسلطان ، فيراجع القضاة أو أمراء
العسكر فيما يرى مراجعتهم فيه ثم يمضى بما يراه
وكان لسلطين المسلمين وأمرائهم عناية كبرى بالنظر في مظالم الرعية ،
وكانوا يبذلون الجهد في رفعها ، ولو كان المتظلم منهم أو من اولادهم . وأمثلة
هذه الحوادث كثيرة في تاريخ الاسلام ، فتعود الناس أن يرفعوا شكواهم الى
خلفائهم وسلطينهم في أيام معينة ، وساروا يحسبون ذلك فرضا واجبا .
فاذا أمسك الخليفة عن النظر في المظالم يوما أو بضعة أيام ضجروا وملوا ،
وكان بعض الخلفاء يقسم المظالم الى فروع ، بعضها للنظر في مظالم الجند ،
وبعضها للنظر في مظالم العمال ، وبعضها لغير ذلك

الحسبة

هي منصب دينى من قبيل القضاء ، وصاحب الحسبة (المحتسب) يبحث
عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في
المدن مثل المنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الجمالين ومنع أهل السفن
من الاكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها
وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب
اذا بالغوا في ضربهم للصبيان ، وله النظر في الفش والتدليس في المعاش وغيرها
وفي المكايل والموازين . والاصل في الامور التي ذكرناها أن تكون من واجبات
القاضى ، لكنهم جعلوها عملا مستقلا تنزيها للقاضى عن استقصاء هذه الامور
بنفسه . على انها كثيرا ما كانت تجعل في جملة أعمال القضاة في عهد الفاطميين
بمصر والامويين في الاندلس ، فلما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار
نظره عاما في السياسة اندرجت الحسبة في وظائف الملك وافردت بالولاية (*)
ولا يتولى الحسبة الا رجل من وجهاء المسلمين لانها خدمة دينية ، وكان
صاحب الحسبة يولى عنه نوابا في سائر الكور والاعمال ، وله الجلوس في
الجوامع كل يوم ، ويطوف نوابه على أرباب الحرف ، والمعاش . فكان
صاحب الحسبة في مصر يجلس في جامعى القاهرة والفسطاط يوما بعد يوم ،
ويبعث نوابه في الشوارع لتفقد اللحوم والمطبوخات ، ومراعاة أحمال الدواب
فلا يأذنون لاحد أن يحملها فوق طاقتها ، ويأمرون السقاين بتغطية الروايا
بالاكسية ويلزمونهم بمراعاة المعيار المقدر للروايا وهو أربعة وعشرين دلو
وكل دلو اربعة رطلا ، يأخذونهم بلبس سراويلات الزرقاء القصيرة
الضابطة لعوراتهم ، وينذرون معلمى المكاتب ألا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا
ولا في مقتل ، وكذلك معلمى العوام بتحذيرهم من التفريير بأولاد الناس .
وللمحتسب النظر في ادارة العيار

(*) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٢ ص ٤٠٤

أما في الأندلس فكانوا يسمون هذا المنصب « خطة الاحتساب » ويتولاه قاض ، وكانت العادة فيه أن يمشى بنفسه راكبا إلى الأسواق وأعوانه معه ، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان . وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حمله المحتسب في الورقة . ولا تكاد تخفى خيانتة ، فإن المحتسب يدس عليه صبيا أو جارية يبتاع أحدهما منه ، ثم يختبر المحتسب الوزن فإن وجدته ناقصا قاس على ذلك حاله مع الناس . ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما يتدارس الفقهاء أحكام الفقه (*)

الشرطة

والشرطة في الأصل من توابع القضاء ، لأن المراد بها تنفيذ أحكام القضاة أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، وإقامة التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة . فكانت الشرطة خادمة للقضاء تساعد القاضي في إثبات الذنب على مرتكبه وتساعد الحكومة على تنفيذ الحكم . ويتولى صاحبها أيضا إقامة الحدود على الزنا وشرب المسكر ، وكثيرا من الأمور الشرعية التي يجلون مقام القاضي عنها

ثم صار النظر في الجرائم ، وإقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية في الأندلس والفاطمية بمصر ، راجعا إلى صاحب الشرطة وأفردوها من نظر القاضي ، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ثم تفرعت الشرطة في الأندلس إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، تحكم الكبرى في الخاصة والزعماء وأهل المراتب والسلطان ، فتضرب على أيديهم في الظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه . وأما الصغرى فتتخصص في الأحكام على العامة والرعايا . ونصبوا لصاحب الشرطة الكبرى كرسيًا بباب دار السلطان ، وله رجال يتباون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا من تصريفه ، وكانت تعد ولايتها ترشيحا للوزارة أو الحجابة . وكان صاحب الشرطة يسمى عندهم صاحب المدينة أو صاحب الليل ، وفي دول السلاطين كانوا يسمون صاحب الشرطة الوالي ، وفي إفريقية يسمونه الحاكم فكان الشرطة نشأت مع القضاء ، لكنها لم تنفرد بنفسها وتميز عنه إلا في أيام بني أمية (**)

(*) انظر : ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، بتحقيق ليفي بروفنسال القاهرة ١٩٥٥

(١) لم يدرس نظام الشرطة الإسلامية إلى الآن الدراسة الواجبة . المادة التي كتبها تسيترشتين في دائرة المعارف لاقية لها وكذلك ما يقوله ابن خلدون عنها قليل لا يفي
انظر : المقدمة ، ح ٢ ص ٤٥٠

ديوان الإنشاء

الكتابة

لم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون الكتابة الا نفرا قليلين . ولم تكن كتابتهم بالاحرف العربية المعروفة اليوم ، وانما كانوا يكتبون بالاحرف العبرانية اقتياسا من اليهود في جملة ما اقتبسوه منهم ، وكان ممن كتب العربية بالقلم العبراني ورقة بن نوفل ، ابن خال خديجة زوج النبي . او بالاحرف النبطية ، نقلها ممن هاجر اليهم من الانباط في القرون الاولى للميلاد فرارا من سلطان الروم . والارجح عندنا ان الحرف العربي الذي نكتب به اللغة العربية اليوم ، متخلف عن الحرف النبطي الذي كان يكتب به الانباط في بطرا ومدائن صالح (١) واما الحرف الكوفي فقد تخلف عن القلم الاسطرنجيلي ، الذي كان يكتب به السريان او الكلدان في العراق ، واستخدمه العرب في اول الامر لكتابة اللغة العربية ، فحدث فيه بعض التبديل حتى صار الى ما هو عليه . ويؤيد قولنا انه من العراق وانه حدث بعد الاسلام ، لان الكوفة من المدن التي بناها المسلمون في العراق . وسنعود الى تاريخ الخط في الجزء الثالث من هذا الكتاب (*)

ولما ظهر الاسلام لم يكن يكتب بالعربية الا بضعة عشر انسانا ، كلهم من الصحابة وفيهم علي بن ابي طالب وعمر بن الخطاب وطلحة وعثمان وابوسفيان وولداه معاوية ويزيد وغيرهم . فكان علي وعثمان وزيد بن ثابت وعبد الله ابن الارقم ممن كتب للنبي ، لانه لم يكن يكتب ولا يقرأ . فكتبوا له سور القرآن والكتب التي خاطب بها الملوك يدعوهم الى الاسلام . وكان بعضهم يكتب له حوائجه ، والبعض الاخر يكتبون بين القوم في مياهم وقبائلهم وفي دور الانصار بين الرجال والنساء ولما تولى ابو بكر كان عثمان بن عفان كاتبه يكتب له الكتب الى العمال والقواد ، وصارت الكتابة منصبا من مناصب الحكومة لا يستغنى عنه ، فلما تولى عمر كتب له اولا زيد بن ثابت ثم حل محله غيره ، ولما فتحت الامصار وتدونت الدواوين عين عمر كاتبها لكل ولاية يكتب في ديوانها . وكان الكاتب يكتب في اول الامر لديوان الجند وبيت المال ، فتولى عثمان وعلى وانقضت دولة الخلفاء الراشدين والكتابة منحصرة في واحد يضبط حساب الديوان من

(١) كتاب العرب قبل الاسلام ، ٨١ ج ١

(*) من الثابت الآن ان الخط المسمى بالخط الكوفي ظهر قبل الاسلام بزمن طويل ، ونسبته الى الكوفة ليست نسبة اصل بل نسبة تجويد ، اذ الغالب ان من استقر بها من العرب بعد الاسلام استعملوه وجودوه واعطوه طابعه المعروف فنسب اليها . واصل الخط الكوفي مولد من خطوط العبرانيين والتدمريين

انظر : الدكتور ابراهيم جمعة ، قصة الكتابة العربية . القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٢ وما بعدها

اعطيات الجند وأسمائهم ويكتب المراسلات ، وربما كانا اثنين يتولى الثاني كتابة بيت المال

ولما انتقلت الخلافة الى بنى أمية ، وتعددت مصالح الدولة على ما مر بك ، تعدد الكتاب فصارت الكتابة خمسة اصناف : كاتب الرسائل لمخاطبة العمال والامراء والملوك وغيرهم ، وكاتب الخراج يدون حساب الخراج داخله وخارجه ، وكاتب الجند يقيد أسماء الاجناد وطبقاتهم واعطياتهم ونفقات الاسلحة وغير ذلك ، وكاتب الشرطة يكتب التقارير عما يقع من احوال القواد والديات وغيرها ، وكاتب للقاضي يكتب الشروط والاحكام

ديوان الانشاء

وأهم اصناف الكتاب ، كاتب الرسائل وهو اقدمها ، وقد يسمى كاتب السر ، وهو يد الخليفة وكاتبه ومستودع اسراره ، كما كان عمر لابي بكر ، وعثمان لعمر . وكان الخلفاء في اول عهد الاسلام لا يولون هذا المنصب الا اقرباءهم أو خاصتهم ، لما فيه من الخطورة . وظلوا على نحو ذلك الى أيام بنى العباس ، فكان كتابهم في اول الامر يستبدون في الامر دونهم ، ثم صارت الكتابة الى وزرائهم ، ولم يكن الوزير يكتب الرسائل أو الرقاع بيده ، ولكنه يمضيها أي يوقع عليها كما يفعل اليوم الوزراء والرؤساء . واول من وقع على الرقاع عندهم يحيى بن جعفر البرمكي ، لما اطلق الرشيد يده في أمور الدولة ومقاليدها ، فصار اذا رفع أحد كتابا في ظلامه أو طلب رزق أو نحو ذلك وقع يحيى عليه بيده . وصار الوزراء بعلمه يوقعون على الرقاع أو القصص ، وربما انفرد بعضهم في ولاية ديوان السر أو ديوان الرسائل أو الانشاء

وفي اخريات دولة بنى العباس استقلت الكتابة وعهد فيها الى غير الوزراء ، وكانوا ببغداد يقال لهم كتاب الانشاء ، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الانشاء أو صاحب ديوان الانشاء أو كاتب السر وكل أمور هذا الديوان الى الوزير . وكانوا يسمونه أيضا الديوان العزيز ، وهو الذي يخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء بما يشبه ديوان الرياسة أو وزارة الخارجية في هذه الايام

التوقيع

يريدون بالتوقيع في دوائر الحكومة اليوم « الامضاء » ، أما في أيام الخلفاء فكان يراد به ما يعلقه الخليفة على القصص أو الرقاع « العرضحالات » المعروضة عليه لطلب أو شكوى أو نحو ذلك ، فيكتب عليها بما يجب اجراؤه أو ما يفيد الجواب على فحواها بما يشبه التأشير أو التعليم في دوائر حكومتنا ، وهو من واجبات صاحب ديوان الانشاء أو من يتعين للتوقيع خاصة . فيجلس الكاتب بين يدي الخليفة أو السلطان في مجالس حكمه وفصله ، فاذا

نظر الخليفة في الرقاع أمر الكاتب أن يوقع عليها فيتوخي الكاتب ابلغ ما يستطيعه . وكانوا يختارون للتوقيع كتابا من أهل العارضة والبلاغة ليستقيم توقيعه ، فكان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمى بالقصة الى صاحبها ، وكانت توقيعاته يتنافس البلفاء في تحصيلها للوقوف منها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قالوا انها كانت تباع كل قصة منها بدينار

توقيعات الخلفاء وغيرهم

وكان الخلفاء في صدر الاسلام هم الذين يوقعون في القصص والرقاع بأنفسهم أو يأمرؤن كتابهم بتدوينه ، والغالب في توقيعهم أن يكون اقتباسا من آية أو حديث أو حكمة مشهورة أو شعر حكيم . ومن أمثلة ذلك أن سعد ابن ابي وقاص عامل العراق كتب الى عمر بن الخطاب كتابا يستأذنه فيه ببناء دار ، فوقع عمر في أسفل الكتاب : « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » . ووقع عمر أيضا لعمر بن العاص عامله على مصر ، جوابا على كتاب كتبه اليه : « كن لرعيك كما تحب أن يكون لك أميرك »

وتشكى قوم لعثمان بن عفان من مروان بن الحكم ، وذكروا أنه أمر بوجيء أعناقهم فوقع في ذلك الكتاب : « فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون » وأرسله اليه . ومن توقيعات على بن ابي طالب في كتاب جاءه من ابنه الحسن : « رأى شيخ خير من جلد غلام » ، وكتب سلمان الفارسي الى على يسأله : « كيف يحاسب الناس يوم القيامة ؟ » فوقع على كتابه : « يحاسبون كما يرزقون »

ومن توقيعات معاوية بن ابي سفيان أن عبد الله بن عامر كتب اليه يسأله ان يقطع مالا في الطائف فوقع : « عش رجبا تر عجبا » وكتب زياد بن ابييه الى معاوية يخبره أن عبد الله بن عباس يطعن في خلافته فوقع في أسفل الكتاب : « ان ابا سفيان وأبا الفضل كانا في الجاهلية في مسلخ واحد ، وذلك حلف لا يحله سوء رأيك » . ووقع عبد الملك بن مروان في كتاب جاءه من الحجاج يخبره فيه بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسى منهم ، ويستأذنه في قتل أشرافهم : « ان من يمن السائس ان يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه ان يختلف به المتألفون » . ووقع في كتاب جاءه من الأشعث وهو ثائر عليه :

«فما بال من أسعى لاجبر عظمه حفاظا وينوى من سفاخته كسرى»

وكتب قتيبة بن مسلم الى سليمان بن عبد الملك يهدده بالخلع ، فوقع سليمان على الكتاب :

«زعم الفرزدق ان سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يامربع»

وكتب اليه قتيبة مرة أخرى بالتهديد فوق في الكتاب : « وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » . وكتب بعض العمال الى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في مرمة مدينة ، فوق في أسفل كتابه : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » ، وكتب اليه عامله على العراق يخبره بسوء طاعة أهلها ، فوق له : « ارض لهم ماترضى لنفسك وخذ بجرائمهم بعد ذلك » . وكانت توقيعات عمر بن عبد العزيز كثيرة . ووقع يزيد بن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل : « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »

ومن توقيعات بنى العباس ان بعض اهل الانبار كتبوا الى السفاح يشكون ان منازلهم أخذت وأدخلت في البناء الذي أمر به ولم يعطوا اثمانها فوق : « هذا بناء اسس على غير تقوى » وأمر باعطائهم الاثمان . وشكا اهل الكوفة الى ابي جعفر المنصور سوء معاملة عاملهم ، فوق على كتابهم : « كما تكونون يؤمر عليكم » . ووقع على قصة رجل شكاه عيلة : « سل الله من رزقه » وجاءه من عامله على حمص كتاب فيه خطأ فوق في أسفله : « استبدل بكاتبك والا استبدل بك » . وكتب صاحب ارمينيا الى المهدي يشكو سوء طاعة رعاياه ، فوق في الكتاب : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وشكا بعضهم اهمال عامله في خراسان فوق على شكواهم : « انا ساهر وانت نائم » وأرسله اليه . ومن توقيعات هرون الرشيد الى عامله في خراسان : « داو جرحك لا يتسع » ، والى عامله على مصر : « احذر ان تخرب خزانتي وخزانة أخى يوسف فيأتيك منه ما لا قبل لك به ومن الله اكثر منه » . وقس على ذلك سائر توقيعات الخلفاء

على ان التوقيع لم يكن خاصا بالخلفاء، ولكنه كان شائعا بين الامراء والكبراء أيضا مثل زياد بن أبيه وأبي مسلم الخراساني وجعفر بن يحيى . ولجعفر شهرة طائفة في بلاغة توقيعاته كما تقدم ، من ذلك توقيعه لمحبوس : « ولكل أجل كتاب » ، ووقع في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله : « لقد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت » ، وفي رقعة رجل يستأذن في الحج : « من سافر الى الله انجح » ، وفي كتاب رجل طلب ولاية : « لا اولى بعض الظالمين بعضا » ، وفي قصة رجل يستمنحه وقد كان منحه مرارا : « دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » . وغير ذلك شيء كثير ، ومثله للفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وغيرهما

اختصار الكتابة

وكان لهم ولع غريب في اختصار الكتابة في المراسلات اختصارا يصح ان يتخذ مثالا للبلاغة . من أمثلة ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يستمده الحنطة والمؤونة من مصر على اثر ما أصاب أهل المدينة من الجهد ،

فكتب ابن الخطاب يقول : « من عبد الله أمير المؤمنين الى العاصي بن العاصي . سلام . أما بعد فلعمري يا عمرو ماتبالي اذا شبعنت أنت ومن معك ان أهلك أنا ومن معي ، فياغوثاه ثم يا غوثاه ! » فكتب اليه عمرو : « لعبد الله أمير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص . أما بعد فيالبيك ثم يالبيك ! قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام » وأمثال ذلك كثيرة من مراسلاتهم ، فلتطلب في كتب الادب والتاريخ

ولم يكن هذا الاختصار قاصرا على المكاتبات بينهم وبين عمالهم ، لكنه كان شأنهم في كل مكاتباتهم . من أمثال ذلك جواب هرون الرشيد الى نقفور « نيسوفورس » ملك الروم ، وكان قد كتب اليه كتابا يهدده فيه ويطلب اليه ان يرد ما كان أخذه من الخراج من الامبراطورة التي كانت قبله ، فلما قرأ الرشيد الكتاب احتدم غيظا فلم يتمالك عن أن أخذ دواة وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ! قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ماتراه لا ماتسمعه »

ومثل ذلك جواب يوسف بن تاشفين صاحب مراکش على كتاب الاذفونش ملك الافرنج الذي يهدده فيه ، وكان الكتاب طويلا فلما قرأه يوسف كتب على ظهره : « الذي يكون ستراه »

مكاتبة الخلفاء

وكان من القواعد المرعية في مكاتبة الخلفاء أن يبدأوا بأسمائهم قبل مخاطبتهم، ويكلفوا مكاتبتهم أن يراعوا ذلك . . كما رأيت فيما دار بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ويعدون العدول عنه ذنبا . وقد كان في جملة ما حمل المنصور على قتل أبي مسلم الخراساني - مع ما له على دولتهم من الفضل - أنه كتب مرة الى المنصور وبدأ بنفسه . واذا رأيت في بعض المراسلات ما يخالف هذه القاعدة فانه سهو من النساخ

ولم يزل الامر كذلك الى أن استولى بنو بويه على الامر وغلبوا على الخلفاء واستبدوا بهم ، فاحتجب الخلفاء ولم يبق اليهم في ما يكتب عنهم غالبا سوى الولايات . وفوض الامر في غالب المكاتبات الى وزراءهم ، وصارت اذا اقتضت الحال ذكر الخليفة كنى عنه بالمواقف المقدسة والمقامات الشريفة والسدة النبوية والدار العزيزة والمحل المجد ، يعنون بالمواقف الاماكن التي يقف الخليفة فيها ، ثم انتقلوا الى تعظيم الامراء والوزراء بالتلقيب بالمجلس العالی والحضرة السامية وما أشبه

الإشارة أو الرمز

ومن تفننهم في المكاتبات الإشارة بحرف واحد الى مقالة طويلة ، كما وقع للسلطان محمود الغزنوي بن سبكتكين بعد أن استقل بالسلطنة ، فانه كتب

الى الخليفة ببغداد يطلب اليه ان يذكر اسمه في الخطبة وينقش اسمه على النقود فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث محمود اليه كتابا يهدده فيه قال في جملته : « لو اردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » ، فبعث اليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه محمود لم يجد فيه غير البسمة ، وبعدها الف ممدودة ، وفي وسط الكتاب لام ، وفي آخره ميم ، ثم الصلاة والحمد لله ! فتحير السلطان واهل مجلسه من ذلك ، حتى دخل عليهم ابو بكر القهستاني ، وكان من كبار العلماء ففكر في ذلك حتى فقه له فقال : « عندى شرحه » ، فقال السلطان : « قل ولك ما تريد » فقال : « انكم بعثتم تهددون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا الكتاب وفيه الف لام ميم اشارة الى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الى آخر الآية فارتاع السلطان لذلك وتشاءم وندم وعاد الى احسن الاحوال

ومن هذا القبيل حكاية لطيفة وقعت لسديد الملك على بن مقلد ، صاحب قلعة شيزر في اواسط القرن الخامس للهجرة ، وكان شجاعا مقداما موصوفا بقوة الفطنة. وكان قبل تملكه قلعة شيزر يتردد الى حلب وصاحبها يومئذ تاج الملوك محمد بن صالح ، فوقع بينهما امر أخاف سديد الملك من تاج الملوك . فخرج سديد الملك الى طرابلس الشام ، وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده . فعلم تاج الملوك بذلك ، فأراد الاحتيال في استقدام سديد الملك اليه للفتك به ، فأوعز الى كاتبه ابي النصر محمد بن الحسين ان يكتب اليه كتابا يشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه اليه . وفهم ابو النصر الغرض الحقيقي من ذلك الكتاب ، وكان صديقا لسديد الملك ، لكنه لم ير مندوحة عن كتابة الكتاب . فكتبه كما امر به تاج الملوك ، حتى اذا بلغ الى قوله : « ان شاء الله تعالى » شدد النون في ان وفتحها فجعلها « ان » وأنفذ الكتاب . فلما وصل الكتاب الى سديد الملك قرأه ، ثم عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن في مجلسه من الخواص ، فاستحسنوا عبارة الكاتب واستعظموها ما فيه من رغبة تاج الملوك في سديد الملك وايثاره قربه . فقال سديد الملك : « انى ارى في الكتاب مالا ترون » . ثم اجابه على الكتاب بما اقتضاه المقام ، وكتب في جملة ذلك : « انا الخادم المقر بالانعام » وكسر همزة « انا » وشدد نونها فصارت « انا » . فلما وصل الكتاب الى تاج الملوك ووقف عليه ابو نصر الكاتب سر بما فيه وقال لاصدقائه : « قد علمت ان الذى كتبته لا يخفى على سديد الملك » . وكان ابو نصر قد قصد بتشديد نون « ان » الاشارة الى الآية « ان الملائكة يأترون بك ليقتلوك » ، فأجابه سديد الملك بتشديد « انا » اشارة الى الآية « انا لن ندخلها ابدا ماداموا فيها »

ومن تفننهم من هذا القبيل ماكتبه عضد الدولة بن بويه الى ابي منصور افتكين متولى . وكان افتكين قد كتب اليه كتابا مضمونه : « ان الشام

قد صفا وصار في يدي وزال عنه حكم صاحب مصر ، وان قويتنى بالاموال والعدد حاربت القوم في مستقرهم « ، فكتب اليه عضد الدولة جوابا في كلمات متشابهة لا تقرأ الا بعد الشكل والتنقيط والضبط وهى : « غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاحش فاحش فعلك فعلك بهذا تهدا » الخ. اراد ان لا يقع الكتاب بيد احد فيطلع على ما فيه ، ففهم افتكين مراده وعمل به

ادوات الكتابة

القلم كانوا يصنعونه من القصب نحو مانفعل اليوم ، واما الحبر وهو المداد فالظاهر انهم كانوا يصنعونه من مسحوق الفحم أو من الهباب مذابا في سائل لزج كالصمغ أو نحوه

واما القرطاس فأقدم ما كتب فيه العرب من اول الاسلام الرق وهى الجلود، وكتبوا ايضا على الاقمشة واشهرها نسيج مصرى كانوا يسمونه القباطى ، وعليه كتبت المعلقات السبع قبل الاسلام ، واذا تعذر ذلك كتبوا على الخشب أو العظام أو على قطع الخزف أو على الاحجار أو نحو ذلك

ولما فتحوا مصر اتخذوا البردى فكان اكثر مكاتبات الامويين على البردى والقباطى . وفي دار الكتب المصرية فى القاهرة آثار مخطوطة بالعربية عثروا عليها فى بعض أنحاء القطر المصرى ، شاهدنا بينها صفحة من البردى وقطعا من القباطى ، وقد ظهر البلى فيها والكتابة لا تزال ظاهرة عليها . وراينا قطعا من الفخار عليها كتابة عربية أيضا ، وتلك المخطوطات لا يتجاوز تاريخها آخر القرن الاول للهجرة . وكلها معروضة فى معرض دار الكتب المصرية (*)

فلما كانت أيام الدولة العباسية اتخذوا الكاغد ، والذي أشار به الفضل بن يحيى البرمكى فاصطنعوه . والارجح انهم أخذوه عن صناعة الصين، لان الصينيين برعوا فى صناعة الورق قبل الميلاد، وكانت هذه الصناعة منتشرة فى بلادهم . فلما فتح المسلمون سمرقند أخذوها عنهم ، اكنهم لم يجتهدوا فى تعاطيها الا فى ابان الدولة العباسية ، اذ ضاقت الرقوق والجلود عن المكاتبات والمراسلات والسجلات ، فأشار الفضل باصطناعه فأنشأوا له المصانع فى بغداد والشام وغيرهما من عواصم الاسلام

وعن العرب أخذ العالم صناعة الورق ، لان اهل أوروبا لما افاقوا من سباتهم فى الاجيال الوسطى استخدموا الكاغد الشامى وكان اسمه عندهم Charta Damascena ، وانتقلت صناعة الورق الى أوروبا بطريق الاندلس ، فقد كان للعرب مصانع لصناعة الورق فى شاطبة وبلنسية وطليلة .

(*) الاشارة هنا الى مجموعات الوثائق البردية العربية واليونانية المحفوظة بدار الكتب المصرية ، وقد نشر الكثير من هذه الوثائق المستشرق أدولف جروهمان ، ونشرت مسز جرتروود بل ترجمة انجليزية لعدد كبير من الوثائق الاغريقية . وكلها ترجع الى القرون الهجرية الثلاثة الاولى

فلما دخلت الاندلس في حوزة الافرنج استبقوا تلك المصانع ، ثم نقلت من اسبانيا الى سائر ممالك اوربا . ومن اقدم المخطوطات العربية على الكاغد نسخة من كتاب « غريب الحديث » في مكتبة ليدن الجامعة يظن انها كتبت في اوائل القرن الثالث للهجرة ، وكتاب « ديوان الادب » في مكتبة المتحف البريطاني كتب في اوائل القرن الرابع (*)

الحجابه

يراد بالحجاب في دول الاسلام ما يراد بالتشريفاتى في هذه الايام ، وهو الذى يتولى الاذن للناس في الدخول على الملك أو السلطان أو الامير ، ولا بد منه في الدولة حفظا لهيبة الملك . وكلما أعزقت الدولة في المدنية واستغرقت في الترف تكاثف الحجاب بين ملكها ورعاياه ، فكان الخلفاء الراشدون يفتحون ابواب مجالسهم لاي من كان ، ويخاطبون الفقير والغنى والصعلوك والقوى بلا حجاب ولا كلفة

فلما تحولت الخلافة الى الملك كان في جملة ما ادخلوه على الدولة التدقيق في الحجاب ، وترتيب الناس في الدخول على الخلفاء بحسب طبقاتهم وانسابهم . وأول من انتبه لذلك معاوية بن أبى سفيان ، نبهه اليه زياد بن ابيه . فكانوا يفضلون في الدخول أهل البيوتات، أى أهل النسب ، فاذا تساوت الانساب فضلوا أهل السن ، فاذا تساوت فضلوا أهل الادب والعلم . لكنهم كانوا يبيحون الدخول لاربعة في أى وقت شاءوا وهم : المؤذن ، وطارق الليل ، ورسول الثغر ، وصاحب الطعام . ومن هذا القبيل قول زياد لحاجبه : «وليتك حجابتى وعزلتك عن أربعة : هذا المنادى الى الله في الصلاة والفلاح لاتفرجنه عنى فلا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لاتحجبه فشر ماجاء به ولو كان خيرا ماجاء به في تلك الساعة ، ورسول الثغر فان ابطأ ساعة افسد عمل سنة فأدخله على وان كنت في الحافى ، وصاحب الطعام فان الطعام اذا أعيد تسخينه فسد » (**)

فلما جاءت دولة بنى العباس وصارت الى ما هو معروف من العز والترف، زادوا في منع الناس عن ملاقة الخليفة الا في الامور الهامة ، وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثانى . وصار بين الناس والخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل فئة في مكان على ما يراه الحجاب . وتطرقوا عند انحطاط الدولة الى حجاب ثالث احصن من الاولين ، ولا يكون هذا الا عند الحجر على صاحب الدولة . وذلك ان اهل الدولة كانوا اذا نصبوا الابناء من

(*) Ph. K. Hitti, History of the Arabs (London, 1949) p. 414-415

(**) وتروى ايضا : «قد وليتك حجابة بابى الا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فانه داعى الله ، وصاحب البريد فامر ماجاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد»

ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٢٦

الاعقاب وأرادوا الاستبداد عليهم ، فأول ما يتوخونه حجب البطانة وسائر الاولياء عنهم ، ويوهمونهم ان في مباشرتهم خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الادب ، كما حدث في آخر أيام العباسية ، ولا يكون ذلك الا في أواخر الدولة

النقابة

النقابة، ونعنى نقابة الاشراف، سموها بذلك اشارة الى انها تتعلق بأشراف المسلمين وهم أهل بيت رسول الله . وذلك انهم كانوا يجلون حرمة أهل البيت فكانوا يجعلون منهم رئيسا يتولى أمورهم ويضبط انسابهم ويدون مواليدهم ووفياتهم ، وينزههم عن المكاسب الدنيئة ويمنعهم من ارتكاب الذم ويطالب بحقوقهم ويدعوهم الى أداء الحقوق ، وينوب عنهم في المطالبة بحقوقهم في سهم ذوى القربى من الفىء والغنيمة ، ويقسمه بينهم ويمنع الأيامى منهم أن يتزوجن الا من الاكفاء وغير ذلك مما يشبه الوصاية العامة ، وكان نقيب الاشراف وصيهم

وكانت نقابة الاشراف من المناصب السامية ، ولها الشأن الاول من الشرف بعد الخلافة - ولذلك قال الشريف الرضى نقيب الاشراف يخاطب الخليفة القادر بالله العباسى من قصيدة :

عظفا أمير المؤمنين فاننا في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا كلانا في المعالى معرق
الا الخلافة ميزتك فانى أنا عاطل منها وأنت مطوق

وكان الخلفاء يكتبون لنقباء الاشراف عهدا وتقاليد تدل على جلاله قدرهم ورفعة منزلتهم، وكانوا كثيرا ما يعهدون اليهم بسقاية الحاج وديوان المظالم من الخطط السامية ، وما زالت الدول الاسلامية تحترم نقابة الاشراف في كل ادوار تاريخها حتى الدولة العثمانية ، وكان نقيب الاشراف في أيام العثمانيين يقدم في التشريفات الرسمية على سائر رجال الدولة العلية حتى الصدر الاعظم وشيخ الاسلام

مشيخة الطرق الصوفية

مشيخة الطرق الصوفية من المناصب الدينية التى حدثت بعد حدوث الصوفية ، ولصاحبها التكلم عن جميع الطرق الصوفية . والشأن فى هذه الطرق ان لكل طريقة شيخا ، ولكل شيخ خلفاء فى القرى والامصار ، ولكل خليفة مرادين . فالشيخ يدير أمر الخلفاء ، والخليفة يدير أمر المرادين من حيث ارشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتربيتهم ونحو ذلك . ولشيخ المشايخ الولاية العامة على الجميع . ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها اعمالهم وتتوحد بها مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة او زاوية مستقلة بنفسها، فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن . فلما انشأ السلطان

صلاح الدين الايوبى خانقاه سعيد السعداء وسمأها دويرة الصوفية ، جعل
لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ . وكان لا يولى عليها الا اعظم رجال
الدولة من الاكابر والاعيان ، كأولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه ، مع ما كان لهم
من الوزارة والامارة وتدير الدولة وقيادة الجيوش . ووليها ذو الرياستين
الوزير صاحب تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الاعز وغيره . وما زالت الحال
كذلك الى ان توحدت رئاسة الصوفية بمصر فى القرن التاسع للهجرة ، فجعلت
الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى ، وكان من اعظم رجال عصره
علما ودينا ، قال الشعرانى عنه : « ولو قلت انه اعلم اهل زمانه لم ابعد عن
الصواب » . ثم تولاه بعدة ابنه الامام شيخ الاسلام المفسر الشهير ابوالسرور
البكرى ، وانتقلت بعده الى ذريته ولا تزال الى الآن فى البيت البكرى الصديقى
بمصر

فهرس

صفحة		صفحة	
٩٤	الدولة العباسية	٥	تقديم
٩٨	الدولة الاموية فى الاندلس	١٢	مقدمة الطبعة الاولى
١٠٢	الدولة الفاطمية	١٧	مقدمة الطبعة الثانية
	سائر الدول الاسلامية فى	١٩	مقدمات تمهيدية
١٠٦	أنحاء العالم	٢٢	العرب والتمدن
	الدولة الاسلامية : سعتها	٢٥	عرب اليمن
١١٢	وأعمالها	٣٢	الحجاز فى العصر الجاهلى
١١٦	احصاؤها	٣٦	حكومة العرب الجاهلية
١١٧	مقدار العمارة	٣٦	الكعبة والتجارة وقريش
١٢٢	مناصب الدولة الاسلامية	٤٠	النهضة العربية قبل الاسلام
١٢٢	نمو الدولة الاسلامية	٤٠	سبب تلك النهضة
١٢٥	تشعب المناصب	٤٣	الدولة الاسلامية : كيف نشأت
١٢٧	الخلافة	٤٣	الدعوة الاسلامية
١٣٠	مبايعة الخلفاء	٤٩	الروم والفرس عند ظهور الاسلام
١٣٤	بيعة ولى العهد	٥٧	انتشار الاسلام
١٣٦	علامات الخلافة	٦٠	الفتوح
١٣٦	البردة	٦٦	الخلفاء الراشدون
١٣٦	الخاتم	٧٠	الفتوح فى صدر الاسلام
١٤٠	شارات الخلافة	٧٠	ما الذى جرا العرب على الفتح ؟
١٤٠	الخطبة	٧٣	ما الذى ساعدهم على الفتح ؟
١٤٠	السكة والنقود	٨٣	عود الى الخلفاء الراشدين
١٤٦	الطراز	٨٣	الفتنة
١٥٠	ولاية الاعمال	٨٦	أحوال الخلفاء الراشدين
١٥٠	الولايات قبل الاسلام	٨٨	دولة بنى أمية
١٥١	الولايات فى الاسلام	٨٨	الخلافة وبنو أمية
١٥٣	الامارة العامة	٩١	خلفاء بنى أمية
١٥٦	الامارة الخاصة	٩٤	بنو العباس
١٥٦	رواتب العمال		

صفحة	صفحة	الوزارة وما يتبعها
٢٢٤	الغنيمة ١٥٨	أمير الامراء
٢٢٦	الفيء ١٦٠	وزارة التفويض
٢٢٧	الجزية وتاريخها ١٦١	وزارة التنفيذ
٢٢٨	مقدار الجزية ١٦٢	السلطان
٢٣٠	الحراج وتاريخه ١٦٣	الجند وتوابعه
٢٣٥	ضرائب أخرى ١٦٦	جند الروم
٢٣٦	الاقطاع ١٦٦	جند الرومان
٢٣٩	البريد ١٦٧	جند العرب
٢٤١	طرق البريد ١٦٨	تنظيم جند العرب
٢٤١	حمام الزاجل ١٧٠	جند الاعاجم في الاسلام
٢٤٢	طرق أخرى للمخابرة ١٧١	ديوان الجند
٢٤٤	القضاء ١٧٩	أعطيات الجند
٢٤٤	القضاء في الاسلام ١٨٠	عدد الجند
٢٤٦	عمل القاضي ١٨٣	اللواء أو الراية
٢٤٨	راتب القاضي ١٨٨	الموسيقى
٢٤٩	ديوان المظالم ١٩٢	السلاح
٢٥٠	دار العدل ١٩٢	آلات الحصار
٢٥١	الحسبة ١٩٦	النار اليونانية
٢٥٢	الشرطة ٢٠٠	اختراع البارود
٢٥٣	ديوان الانشاء ٢٠١	المدافع
٢٥٣	الكتابة ٢٠٣	تعبئة الجيوش
٢٥٤	التوقيع ٢١٠	الثغور والعواصم
٢٥٩	أدوات الكتابة ٢١٢	الغزوات
٢٦٠	الحجاجة ٢١٣	الاساطيل
٢٦١	النقابة ٢٢١	بيت المال
٢٦١	مشيخة الطرق الصوفية ٢٢٢	الصدقة

